أحمد الشارف

دراسة وديوان

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



علي مصطفى المصراتي

طبعة جديدة تتضمن قصائد
لم تنشر في الطبعات السابقة



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



أحمد الشارف

دراسة وديوان

شاعر من ليبيا

أحمد الشارف

دراسة وديوان

(يتضمن قصائد لم تنشر في الطبعات السابقة)

علي مصطفى المصراتي



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

أحمد الشارف

دراسة وديوان

علي مصطفى المصراتي

- الطبعة الثالثة: أي النار 1430 ميلادية (2000)

- كمية الطبع: 3000 نسخة

- رقم الإيداع المحلي: 4549/ 99 دار الكتب الوطنية بنغازي

- رقم الإيداع الدولي: ردمك 8 - 0016 - 0 - 9959 ISBN

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: هاتف: 614658 - 051 - 606086 - 021

ص.ب. 17459 - بريد مصور 619410 - 051

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح أحمد الشارف

الشاعر الذي هتف بالعروبة وقدّس أمجادها

الشاعر الذي لهج بوطنه واعتز بمفاخر قومه

أهدي إليه هذا العمل المتواضع وفاءً لذكراه وتقديراً لمكانته

في دنيا الأدب العربي.

علي مصطفى المصراتي

يجامل عصراً ليس يرضاه صاحباً
إذا قيـل هـذا شـاعـر وأديـب

* * *

إن الـبـضـائـع كـلـمـا عـرضـت تـبـاع وتـرتـهـن
وبـضـاعـة الـشـعـراء إن عـرضـت فـلـيـس لـهـا ثـمـن

أحمد الشارف

الشاعر في سطور

- ولد الشاعر أحمد الشارف بزليطن حوالي سنة 1864 إفرنجي.
- درس بزاوية الأسمر والمعاهد الدينية المعروفة بليبيا.
- برزت مواهبه الشعرية منذ صباه، وشعره به مسحة من القديم وطلاء من الجديد.
- له قصائد رائعة في النبويات متألقة، بجانب الشعر الصوفي الذي ينبع من فيض الإيمان وإشراق الروح..
- يعتبر ديوانه سجلاً حافلاً بالأحداث التي مرّت بليبيا العربية من العهد العثماني إلى عهد الحرية والاستقلال.
- في أيام الجهاد المقدّس ساهم شعره في إذكاء الروح الوطنية.
- الشارف من أجلة العلماء وتعتبر أحكامه الشرعية من أدق الأحكام ومكنته من هذا دراسته العميقة للفقه الإسلامي واطلاعه على مذاهب التشريع.
- عفيف النفس. وكان حر الرأي يجنح إلى التجديد ويمقت التزمّت والتعصّب الفكري.
- بجانب علمه وشعره عالج الكتابة ونشر بضعة فصول ومقالات في الصحف الليبية قبيل الحركة الوطنية.
- نشر شعره في صحف الترقي 1908، والعصر الجديد، والمرصاد، والرقيب، واللواء الطرابلسي 1920، والرقيب العتيد، وليبيا المصورة، وطرابلس الغرب.
- له مراسلات مع شعراء وأدباء من تونس ومصر والشام والعراق.
- مكث في القضاء الشرعي أكثر من نصف قرن وكان رئيس المحكمة الشرعية العليا عندما أحيل للتقاعد.
- توفي يوم الثلثاء 11 أغسطس 1959 إفرنجي رحمه الله.



صورة الشاعر يستمع إلى المؤلف

احياء للذكرى الرابعة لشيخ الشعراء

احمد الشارف

سيقـــام حفـــل ادبى بالمناسبة

عند الساعة ٧،٣٠ مساء يـــوم الاحد ١١ أغسطس

١٩٦٣ بقاعة مدرسة طرابلس الثانوية

وستلقى فيه دراسات وكلمات من بعض الادباء

والكتاب الليبيين

عن لجنة الذكرى

على مصطفى المصراتى



الشاعر يملي بعض قصائده على المؤلف



صورة الشاعر بريشة الأستاذ فؤاد الكعبازي

مقدمـــة

الشاعر أَحمد الشَّارف، من أكبر شعراء ليبيا.

كان يطلق عليه، شيخ الشعراء.

وهو من الذين أسهموا بقسط وافر في الحركة الأدبية في ليبيا.

شاعر طال عمره على درب الحياة، وطال نفسه في مجالات الشعر الأصيل، وكان الشعب الليبي أيام الجهاد، والمعارك الوطنية، ومقاومة الاستعمار يردّد أناشيد وقصائد الشاعر أَحمد الشَّارف. ومن أشهر قصائده التي سارت في البلاد وخارج البلاد والتي حفظها الناس، تلك القصيدة التي نظمها أثناء المعارك الوطنية في طرابلس ضد الغزاة الإيطاليين، وصور فيها جهاد الشعب وقتاله المرير من أجل الحرية والكرامة:

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعرف الضيم فينا

* * *

والشاعر أَحمد الشَّارف ظل ينظم الشعر منذ أوائل هذا القرن، حتى آخر يوم في حياته.

وأسهم الشاعر في ميدان الكلمة الشاعرة، وظل يعطي الكلمة النابضة، ويجول في مختلف ضروب الشعر الأصيل الرصين، ويقدّم شحنات النور، وفورات الحماس، في عربية صافية، وشاعرية أصيلة تمتد جذورها في المنبت الثقافي إلى المتنبي والبحتري ومهيار وأضراب هؤلاء.

وفي المدرسة الحديثة هو من أضراب الكاظمي والرصافي.

وتمتد جذور شاعريته إلى أعماق الشعب في ليبيا، فيصوّر أمانيه، ويسجّل آلامه، ويرسم الطريق في أصالة صادقة وإيمان عميق، مدى ثلاثة أرباع قرن وهو ينظم ويهتف ويصوّر ويعبِّر في العهد العثماني، وفي الآونات المختلفات والأدوار التي مرّت بالوطن العزيز. لم يترك الشاعر نوعاً من ضروب النظم إلاَّ وأسهم فيها. ولكن رغم هذه الثروة الطائلة، والعمر الطويل، والإنتاج الغزير، ضاع أكثر شعره، وذهب في قصاصات أوراق أَو في ذاكرة الناس والرواة له.

وكنت قد تعرفت على شاعرنا الكبير من شعره بالسماع، وحفظت وأنا طالب في المهجر قصيدته. . «رضينا».

ثم أتيحت لي فرصة العودة إلى الوطن العزيز عام 1948 إفرنجي مع هيئة التحرير التي كان يرأسها الزعيم المجاهد «بشير السعداوي».

وكان أول لقاء مع الشاعر أَحمد الشَّارف ـ لا أنساه ـ هناك في فندق «تريبولي تانيا»، فندق طرابلس غرب.

وكان الشيخ في مشارف كهولته، وأخذنا نتحدّث في الأدب والشعر، ورغم تقدّم سنّه، لقد كان حلو الحديث، سريع الخاطر، ذكي الطرف، قوي الذاكرة، يتدفّق حماساً، وغيرة على الوطن، ومستقبل الوطن.

وكنت أحمل معي في حقيبتي بضعة كتب أدبية، أهديته منها ديوان الشاعر «البهاء زهير».

ومن يومها، أخذت أتردّد عليه ـ في المحكمة ـ أَو في بيته. وكنت ألح عليه في أن يجمع الشاعر شوارده، ويضم مبعثراته.

وكان ـ أَحمد الشَّارف ـ يتوق إِلى أن يرى ديوانه مجموعاً مطبوعاً.

وتقدّم به العمر، وقعد في عزلته، وظل رهيناً في ركن بيته، في عزلة تشبه عزلة أَبي العلاء المعري.

ومضى الشيخ الشاعر إلى الشوط النهائي.

سار على الدرب، وانتقل إلى رحمة أوسع من دنيا الناس وفقد الأدب والشعر إنساناً معطاءً، مسهماً في الكلمة ذات الإحساس المتوهج، والنور المتدفق، وفي المحافظة على اللغة ومناهج المدرسة المحافظة.

ذهب الرجل، فهل يضيع شعره وتذهب آثاره؟

كان وفياً للأدب والوطن فهل نجازيه بالعقوق والنكران!؟.

لن يكون هذا!.

ورأيت من واجبي أن أسهم في الكشف عن هذه الثروة من الشعر العربي القوي.. العطّاء.. البنّاء، وأن أزيح الستائر عن جوانب من حياة الشاعر الفنية والاجتماعية.

وأخذت أجمع وأبحث عن قصائده.

تلك القصائد والمقاطع التي طالما حدَّثني عنها ورغب في أن أدرسها وأشرف على طبعها.. طالما حدَّثني عن هذا ـ رحمة الله عليه ـ.

وطال بحثي عن قصائده. هنا.. وهناك.

وهذه الصفحات التي نقدّمها ـ اليوم ـ ليست كل ما أبدعه.

ليس هذا كل ما نظم الشاعر أحمد الشّارف.

لقد قال في حياته.. كثيراً وطويلاً..

وضاع أكثره.. ثلاثة أرباعه.. ظروف الحياة القلقة أضاعت كثيراً من هذا التراث الأدبي.

وهنا في هذه المجموعة.. في هذه الأوراق. حاولت أن أتدارك وأن ألقي الضوء على بعض الجوانب الفنية والاجتماعية ولم أحاول الشرح الطويل والتعليق على كل قصيدة ومقطع، فتركت أكثر القصائد ـ هنا بلا تعليق ولا

شرح واكتفيت بنشر القصائد ـ كما هي ـ في أكثر الكتاب.

وفي هذه الأوراق.. ألقي نظرة.. وأعطي مفتاحاً.

وأكشف عن مجهودات ونتاج شاعر قد يجهل الناس في خارج بلادي عنه الكثير.

مخافة أن يطويه الجحود والنسيان بادرت بنشر هذا.

وهناك ملاحظة، إن ترتيب هذه القصائد ليست كما رتّبها الشاعر في كراسته بل قدّمت وأخّرت في ترتيب الفصول والقصائد.

وملاحظة أخرى.. العناوين في رأس القصائد والمقطوعات من عندنا فالشاعر لم يجعل لقصائده عناوين.

وقد حاولت أن أجعل عنوان القصائد ملائماً لموضوعها.

وبعد،

إن شاعرية أَحمد الشَّارف خصبة متدفقة تصلح لدراسات متنوعة، وهذه الفصول، إنما هي مفتاح وطرقة صغيرة.

ومن أجل الوفاء للشاعر، وتحقيقاً لعهدنا له، وتكريماً لذكراه، نقدّم اليوم هذه الدراسة وهذه المجموعة من القصائد مساهمة في إحياء المكتبة الأدبية في ليبيا العربية.

علي مصطفى المصراتي

أدب المجالس والمسامرات:

سَرَت في مجالس أدباء طرابلس في القرن التاسع عشر ألوان من حديث المسامرات، وفنون من شعر المعارضات، وأدب الرواية والحفظ..

ألوان وأنماط تدور حول تقليد الشعر القديم ومحاكاته..

أقبل بشغف الطلّاب والمنتسبون للعلم على حفظ شعر الفحول، أَو المشاهير من شعراء المتقدمين، فكان الشباب المثقف ـ ثقافة ذلك العهد ـ يعجب بالشعر وطرائف الأدب، يراها في فصل من أغاني «الأصفهاني».. أَو يتلمسها في «المستطرف». وقد يهمس بنكتة حلوة أَو نادرة عجيبة، أَو عبارة مكشوفة يراها في «المخلاة» أَو في هامش «العقد الفريد» أَو في كتاب «ابن سكرة».

وكانت هذه المجالس والندوات أَو أصحاب هذه الأسماء ترى أن طريق التكوين الأدبي هو ما أشار إليه «ابن خلدون» أن على دارس الأدب أن يقبل على الأمّهات وينهل من المصادر المعتمدة: «الأمالي» لأبي علي القالي، «والعقد الفريد» لابن عبد ربه، «والبيان والتبيين» للجاحظ.

ورغم ندرة الكتب في تلك الحقب وعدم انتشار المطبوعات، إِلاّ أن بيوتات السراة والوجهاء من أهل البلد يقبلون على اقتناء الكتب.. ويتوارثون «خزانة» في الحائط. أَو صندوقاً مليئاً بالكتب الفقهية والأدبية وقواميس اللغة وشروحها..

وكانت ظاهرة من ظواهر المجتمع في طرابلس أن يشجع الأعيان والسراة الأدب في شكل «سهريات» أَو ندوات تعقد هذه الحلقات في «المرابيع» الملحقة بالبيوت. أَو يجد الأدباء فرصة لهم في حفلات أسبوعية أَو مناسبات موسمية في حفل يقام في بستان أَو على حد تعبير أهل طرابلس ـ حوازة ـ على شكل «زردة» ورغم أنها حفل طعام أَو شراب أَو عطلة الأسبوع. لا تخلو من عالم أَو هاوٍ للآداب ومنشد للشعر وراوٍ للطرائف والفرائد..

من «السهرات» والندوات في «المرابيع» ومن حفلات «الزرادي» والمواسم والمناسبات كان يجد هواة الأدب والشعر نافذة يطلّون منها على أفق محدود من الأدب وفن الكلمة..

وكانت من فرص السماع والاستماع والاستمتاع.. فكاهات قد تكون مكشوفة عارية.. وقد تكون محتشمة وقورة، ومسامرات منوعة فيها متعة للحسّ ومجال للقول، ورواية للشعر فيه المدح وفيه الهجاء والمداعبات.

ولا ينسى الناظر لتلك الفترة ما لهذه «السهرات» والتجمعات من فضل على الأدب والشعر خاصة.. وأيضاً الناحية الصوفية من قراءة أوراد وتلاوة أدعية عند بعض من الناس.

وكان لهذه «السهريات» جوانب أخرى.. وأعني بها الناحية الفنيّة من موسيقى وطرب. فقد كانت في الغالب تدور بجانب المسامرات أدوار غنائية تبعث من حنجرة هاوٍ للأغاني ومردّد للأدوار لا تخلو من هتاف ذلك العهد.. أمان.. أمان!!

وتلعب أصابع العازف على أوتار العود بتقاسيم نهاوند وصبا إلخ، أَو على القانون أَو النفخ في الشبّابة.

هذه «السهريات» كانت ـ في الواقع ـ متنفساً لمواهب في الأدب والموسيقى والأدب الصوفي أيضاً. ألوان لم تجد الري الكافي ولا الهواء

الطليق حتى تثمر الثمر الناضج. إلاّ أنها ـ رغم هذا ـ هي صورة من حالة الأدب والأدباء في تلك الحقبة.

وبيوتات العلم كانت تتوارث القضاء والإفتاء.. والوظائف الإدارية العالية. وكان لدى هذه الطبقة من الناس أيضاً في بيوتها ـ روشن ـ أو طاقة محفورة في الحائط مليئة بالكتب أمثال «مقامات الحريري» و«قاموس الفيروزآبادي» وكتب الجاحظ وبعض دواوين الشعر، وأشياء من الكتب المخطوطة بجانب الكتب التقليدية في الفقه ولوازمه. فكان شباب الأدباء ـ في القرن التاسع عشر ـ يجدون في الأسمار والأحاديث وسهريات المرابيع ـ طرائف الأحاديث.. أو طرائف الكتب.. أو يعثرون على قصيدة آتية من الشرق.. أو ساعية من الغرب.

هذا فضلاً عن شخصيات ـ وإن كانت محدودة الأثر ـ غير أن الوقار يحوط بها والاحترام والتبجيل يلقونه من الناشئة والشباب لأن هؤلاء شيوخ أتوا من الجامع الأزهر أو الزيتونة. بعد أن انقطع هؤلاء الأساتذة المتسربلون في قفاطينهم الزاهية ـ أشواطاً من عمرهم المديد ـ فالآذان تصغي إليهم.. والقلوب تهفو لهم عندما يتحدّثون عن العلم والأدب ومجالس أهل العلم في المغرب أو في المشرق..

وقد تركت الزوايا الدينيّة أثراً ملموساً في البلاد.. فانتشرت الدراسة بالمعاهد العلمية أمثال: المعهد الأسمري بمدينة زليطن، وزاوية الأستاذ أحمد زروق بمدينة «مصراتة»، وزاوية «الدوكالي» بمدينة مسلاتة، وكلية أحمد باشا القره مانلي، وكلية عثمان باشا بمدينة طرابلس، وزاوية أبي ماضي بالجبل الغربي.. وهناك الطلاّب الذين درسوا في «الجغبوب» والزوايا الدينية، (وهذه الزوايا قد أدّت دوراً هاماً في المحيط العلمي والأدبي وحفظ اللغة، كان لها أثر كبير في البلاد) وغير ذلك من معاهد ومدارس كانت ملحقة بالمساجد فيها ظلال من العلم وأنماط من الأدب.. وبها مكتبات لا تخلو من كتب قيّمة.

وكانت الدراسة حرّة طليقة قد لا تخضع لسنٍ معين.. ووقت مقيد.. وهذا لون من الدراسة عرفته مدارس المشرق والمغرب العربي..

وحيث تنشأ الدراسة العلمية يتكوّن بجانبها الأدب والشعر.. فالنحو فيه شواهد وفيه نظم وبه رواية شطرة أَو شاردة.

والتاريخ وفنون السِّيَر لا تخلو من ألوان الأدب والقصص.

وهكذا يجد الشاب القارىء ما يروي ظمأه أَو يشفي غليله أَو غلّته إن أراد.

وإن كانت الكوة ضيقة.. والنور أشبه ما يكون بالبصيص. أَو هي شموع خافتة.. إلاّ أنها ذات لهب محدود وحرارة فيها نوع من النبض.. إذا لوحظ الزمان.. والمكان.. وراعينا العوامل المحيطة بحياة المجتمع في طرابلس آنذاك.

كان هناك نوع من الشغف بالأدب.. ورغبة في قرض الشعر. وممارسة النظم، وإن كان الأدب ـ آنذاك ـ وفي تلك المدارس بالمدينة والدواخل أشبه ما يكون بالتقليد والاجترار.

شأن الثقافة وأدوات الكلمة في عصر الولاة الأتراك..

ليس في الكلمة حرارة ولا لون مميز.

ليس في أدب تلك الحقبة شكل فيه صبغة مميزة.. ولا يمكن أن يقاس ـ نظماً أَو نثراً ـ بالمعيار الفنّي الجديد.

فالأدب بمفهومه، ومضمونه، وأدواته.. في هاتيك المرحلة لم يدرس كفنٍّ مستقل له حيثيته ومقوماته وطابعه ودلالته.

لم يدرس كعلم له فنونه.. بل هو في ترتيب مواده.. وعند شيوخ الدراسة هو شيء إضافي.. وهو أمر متروك للهواية والسير على غير منهاج.. شيء متوقف أَو مرتبط بالمطالعة الحرّة.

من هنا كان الأديب أحياناً. . أو في كل الأحايين. . يترك أمره لنفسه لا مقوم ولا سند. . ينشأ كزهرة على ضفة جفّ منها الماء.

فلا تجد مقوماً يبعث فيها الحياة والحيوية. . ولا تلقى عناية. . ولا تجد رياً. فتذهب بدون أن يحس بها أحد أو يتأثر بها أو يتأثر لها أحد. . بل أدهى من هذا. . ربما لمس الشيخ المدرّس من الطالب هواية للشعر وتهافتاً على الأدب فينهاه ويزجره. . لأن ما صنعه وتهافت عليه يراه الشيخ ملهاة عن الضرورات. مشغلة عن المتون والأراجيز والفناقل اللغوية. . عبثاً ومضيعة للوقت وملهاة عن الواجب.

هذا شأن الأدباء والشعراء في القرن التاسع عشر في بلادنا. . إلاّ من عصمته ملكته وأنقذته همّته. . وثابر على المطالعة والرواية، وسار على دربه، يشعل مصباحه بنفسه ويدفع الضريبة من ذات حسّه. لهذا كانت الهواية والمطالعة الحرّة والميل أو شيء يسمى «الفطرة» و«القريحة» من أهم العوامل والمقومات للأدب أو صفحتيه: النثر والنّظم.

وكل من لمس أو آنس من نفسه جنوحاً للأدب مال إلى الشعر وعطف على أوديته. . وأخذ يصب كلامه في «القوالب» المعهودة. ويلاحظ إقبال الشباب على النّظم أو صبّ الألفاظ في قوالب دون الإقبال على الكتابة والخطابة، ووسائل التعبير الأخرى.

لم تكن هناك مجلاّت أدبية حتى ينشر بها هذا الرعيل نفثات قرائحهم أو محاولات أقلامهم.

ولم تكن هناك حفلات تقام للأدب حتى يستمع إليهم الجمهور فيدفعهم إلى الإجادة والاستمرار. . وإن كان الجمهور آنذاك ينقصه التثقيف والوعي المركّز.

ما هي ـ في المحيط الاجتماعي ـ إلاّ مجرد مناسبات محدودة ذات طابع

معين. . وذات صبغة رسمية. هي فرصة الشعراء أَو المتشاعرين للإلقاء والإصغاء.

أَو شيء آخر يكَون في شكل حلقات ذكر تلحن وتلقى فيها قصائد دينية ومدائح نبوية وقطع من أدب التصوّف.

ويستمع الناس إِلى أَلوانٍ من هذه الأناشيد والمقاطع أكثرها مكرّر ممطط ذات إطار ديني.

والواقع ـ على أي حال ـ فقد كانت هذه الحلقات والحفلات في طرابلس مسرحاً صغيراً لهواة الشعر بمفهومه وقوالبه آنذاك.

ولا سيما الحفلات الموسمية ذات الإطار والهالة الدينية مثل ليالي المولد النبوي. . وليلة الإسراء والمعراج في شهر رجب. . وليلة النصف من شعبان. .

وتوديع ركب شيخ الحجيج. . وحفل إلباسه «البرنوس» التقليدي.

أَو الحفلات العائلية خاصة من ختان. . حفل أَو قران. . أَو عيد السلطان.

يجد الأدباء أَو الناظمون في هذا مناسبة للسماع والإلقاء والإنشاد.

منها قصائد تمشي مشية الكسيح أَو الأعرج ولو نشرت في هذا العصر الذي نعيش فيه لرثى القراء والنقاد لأصحابها.

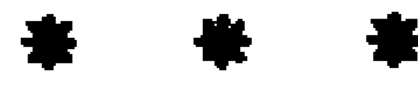
ولكنها ـ على طابعها وقالبها ـ كانت تجد الاستحسان من الناس.

ألم يكن كلاماً مصبوباً في قوالب مقفاة. ذات نغمة يمط لها الأديب الناظم، ويتيه ويتبختر. . ولا تبختر البحتري. . عند إلقائه قصائده في مجالس الأمراء والخلفاء!

كان من شعراء تلك الحقبة وأُدبائها أسماء لمعت. . وأَسماء بهتت وأُخرى ضاعت وتلاشت.

كان من هذا وذاك تراث ذَهَبَ. . وآثار أَو محاولات في طريق الشعر ومعالجته، طمست. . اكتسحها موج الزمان كما يكتسح موج الشاطىء تخطيطاً على الرمال.

وطلع في أواخر القرن التاسع عشر شعراء احتفظوا بقوتهم في زمنهم، واحتفظوا بشيء من التوازن رغم زحام الحياة، وبرزت ملامح في موكب الشعر. . ودنيا الأَدب أمثال بن زكري وشتوان والشارف.



هناك صور و«رتوش» من حياة الفكر في ليبيا، رغم أن الثقافة كانت ذات دائرة ضيّقة. . وفي جوانب محدودة. والتعليم لطبقات الشعب لم يكن متسعاً. . وسبله لم تكن ميسّرة! غير أنّ هناك ـ كما أسلفنا ـ إشعاعات ترسل من منارات أَو كوات وحلقات يتجمع فيها طلّاب. ويجلس لها شيوخ أساتذة يدرسون الفقه ويردّدون أحكام العبادات والمعاملات. وكتب صفراء. . وفنون صعبة التعبير. . تريد شرحاً. ولا يكفي الشرح. فبجانب الشروح تعليقات. . ومفاتيح صدئة لحل المعميات التي تكدست عليها أتربة عصور التأخر. وعجمة الثقافة والتعبير والفقه، والنحو، وما يتصل بهذه المعارف من أصول الثقافة الإسلامية.

هناك حلقات ترسل ضوءاً لا يكشف معالم الطريق. . كل الطريق. . إِلاّ أنها بشهادة الواقع والتاريخ استطاعت هذه الدراسة العملية التقليدية أن تؤدي واجباً من ناحية تقوية العاطفة الدينيّة والمحافظة على اللغة العربية ـ ولو في شكل محنطات. . أَو قوالب ـ في عهد طغت فيه لغة العثمانيين في الدواوين والرسائل والمكاتبات، وفي عهود الاستعمار البغيض وناهيك بالاستعمار الإيطالي الذي جنى أفظع جناية على الفكر العربي في ليبيا العزيزة في مطلع القرن العشرين.

كانت هذه المدارس تحافظ على القرآن الكريم وعلوم العربية، وآلات هذه العلوم ـ ولو في ثوبها القديم ـ فأحياناً، وفي بعض الظروف والملابسات نجد أن الثوب القديم أجدى للجسد من العري التام والصقيع القتال.

ولو لم يكن للمدارس العتيقة إلاَّ هذا الدور.. المحافظة على المقوم اللغوي.. والعاطفة الدينيّة أو المقوّم الديني لكفاها أنه واجب أدّته في عهود التأخّر والتجمد.

مجهود محدود قامت به في سبيل الكيان واللغة.

كان المتنبي في نظر أولئك المثقفين سيد الشعراء.

وأبو العلاء ـ الأعمى المقعد ـ زنديق عند طائفة وزائغ مارق.

أما «عنترة» فهو سيد شعراء الحماسة عندهم.

وأبو تمام ـ مدرسة شعرية بديوانه من ناحية ـ وبمجموعة «حماسته» بما اختاره من ناحية أخرى!

أما أبو نواس.. فيقرأ شعره همساً وغمزاً.. لا تخلو رواية شعره من ضحكات وإضافات.

وديوان «عمر بن الفارض» وأحمد البهلول الطرابلسي كانا يلقيان عند عشاق الأدب وهواة النّظم إقبالاً في تلك الحقبة وكانوا يقبلون على أمثال هذا يحفظونه ويقلّدونه! ويرون في خطتهم التقليدية ـ أن ملكة الشعر.. وعروسه أو شيطانه لا يمكن أن ينقاد وينصاع إلاَّ بالحفظ. ولا تثمر أوراقه إلاَّ بالرواية. فنشأت المطارحات.. والتشطيرات.

كانت كتب الجاحظ ثروة لكن لا يصل إليها إلا قلّة نادرة.

والمحافظة على البحور والتفعيلات مقياس. بل من أهم وأخطر مقاييس الشعر وقوالب النّظم..

يجري هذا أَو يهرول على نسق مألوف متداول بقطع النظر عن المضمون.. والفحوى..

ولا يهم القارىء أَو الناظم مقياس الحرارة ومدى الفاعلية والتأثير في القطعة ونبرة الكلمة.

* * *

ثم جاءت نهضة شعرية جديدة وافدة من الشرق، حوت التجديد من ناحية الموضوعات والمضامين.

جاء أمثال البارودي وصبري وشوقي وحافظ والزهاوي والرصافي والكاظمي وعبد المطّلب.

في شعر بعضهم رقّة وسلاسة.

وفي شعر بعضهم بداوة وجزالة.

فيه محافظة على العمود والقالب.. وتجديد في الموضوعات والمضامين، ولمس لحياة الناس.. وتعبير عن معانٍ تتجاوب معها الجماهير.

وفي قصيد بعضهم تجاوب مع مطالب الشعب وتصوير لأمانيه ورسم لأهدافه.

واشترك الشعر في معارك الشعب.

صور لأماني.. ورسم لأهداف.. وبلورة أحاسيس.

عبّر بصدق وحرارة.

وكانت تيارات وتجديدات، ولكن في إطار المحافظة على الأسلوب وركيزة العقيدة.

* * *

وبقيت مع هذا مجالات الشعر أَو النّظم في ليبيا تسير في ركب المحافظة والحفظ والمعارضة أَو التقليد والمحاكاة!

والمناسبات ـ هنا محدودة ـ مناسبات رسمية، أَو موسمية.

إلاً بصيص من نور يرسله أمثال مصطفى بن زكري، وسليمان الباروني، وأَحمد الزدام، والأزمرلي، وبن شتوان.

من هذه المدرسة التي حاولت التجديد أَو التأثر بالجديد في إطار المحافظة، والسائرة في ركب «الحفظ».

والتي أخذت من القديم ألواناً ومن روح التجديد طرفاً.

من هذا الرعيل.. أَو في مقدمته.. يقف شاعر وهب نفسه للشعر هو أَحمد الشَّارف، الذي ولد عام 1864 إفرنجي.

فهو محافظ من ناحية.

وجديد من ناحية.

لقد فاق أقرانه ومعاصريه من مواطنيه أبناء ليبيا.

فاق من ناحية الإنتاج الشعري.

لهف بالشعر وأقبل عليه، كان دأبه وديدنه، يترنّم به ويلهج بالرائع منه.

سار على المنهاج على طول الطريق.

غيره من المتأدّبين أَو المتشاعرين ـ في عصره ـ يرى الشعر ترفاً أَو حلية زائدة.. أَو همهمات من الخواطر عابرة.

أما أَحمد الشَّارف، فلم تشغله عن الشعر في دنياه أملاك يستدرها، أَو سياسة تأخذ وقته.. أَو مغامرات.

لم ينظر للشعر كشيء زائد كمالي.. إنما شغله الشعر عن كل شيء.. وشغل به عن كل شيء.

ترك غيره من زملائه المعاصرين قرض الشعر وقوالبه.

والشاعر لم يترك الشعر وملاحقته إلى آخر يوم من حياته مصداقاً للنظرية القائلة: إن الفنان الأصيل لا يمكنه أن يترك الإنتاج أو يتخلى عنه الإحساس. ليس في إمكان الفنان الأصيل هذا.

نظم الشارف في صباه.

ونظم في كهولته.

وبين حياة الصبا والكهولة على درب الحياة حقب طوال.

بينهما عمر كان مديداً.

عمر في عد السنين طويل عريض.. قضاه في ممارسة الشعر ومعاناته.

فهو راهب من رهبان الشعر.. وفي تاريخ ليبيا الأدبي كان أَحمد الشَّارف قرباناً لمحراب الحرف.

وشيء آخر يلاحظ هنا.. طوال سيره على درب الشعر لم يكن الرجل يتناول أجراً على شعره!

بتعبير آخر.. لم يكن في شعره مأجوراً.. فكان يعبّر به فقط عن فيض خاطره ومنبع إحساسه.

قد ينال بعض الشعراء جائزة.. ولكن لم ينل من الشعر جائزة ولا عائدة.. بل وهب حياته الفنية للشعر من أجل إرضاء تلك الموهبة.. تلبية وإرضاء لأبولو.. أو آلهة الشعر.

كان أَحمد الشَّارف طروباً للشعر ينتشي للبيت من الشعر الرفيع.

ويهتز كما يطرب الولهان الصبّ عند لقاء حبيبته.

* * *

كان «الشارف» ينظم شعره على طريقة مدرسة ـ المشَّائين ـ ولا نعني بها مدرسة الفلسفة الإغريقية من مدرسة المشَّائين لدى رواق «زينون»، إنما كانت تعتريه حالات من النشوة فيقبل على النّظم. . ماشياً أَو قاعداً أَو مهرولاً.

كان من ذلك النوع من الفنَّانين الذين تعتريهم حالات من السرحان والذهول والشرود عند هبوط الوحي الفنّي عليهم.

كانت تعتريه حالات من حالات الانتفاض فيظل ماشياً أَو سارحاً. . وأحياناً مطرقاً إطراقة غير يسيرة!

ويحكون أنه خرج مرة من بيته حافياً. . لم يشعر لأنه كان في حالة هيمان وسرحان فنّي.

ومرة حكى عنه أصدقاؤه أنه خرج من المحكمة الشرعية التي كان بها قاضياً حاسر الرأس ـ ومنظر قاضٍ شرعي بلا عمامة في السوق شيء ليس بالمألوف في تلك الآونة. . بل هو نوع من التصرّفات الغريبة.

ولم يشعر القاضي بحالته حتى أشار إليه أحد الناس.

الشيخ القاضي عاري الرأس أَو حافي القدم.

لا يهم. . لا بأس.

إنه شاعر. . شرد منه بيت. . وطفق يبحث عن فكرة.

فكرة شاردة قد يساعده المشي والسرحان على التقاطها والعثور عليها.

حالة. . حالة مخاض ذهني!

وقد حكوا عن شوقي أنّه كان ـ أحياناً ـ يسرح أَو يسوح ويهيم في شوارع القاهرة وأزقتها عندما تصيبه حالة الانفعال الشاعري.

لكن الشاعر شوقي كان «أرستقراطياً» أنيقاً. . رغم سرحانه وزوغانه. . وشروده أحياناً.

والشَّارف في «طرابلس» اقتضت منه حالات الهيمان الشاعري أَو التهويم أحياناً لا يعنى بهندامه. . ولا يلتفت إِلاَّ لقبْاء كقباء الشيخ «الشعبي».

إن الإكرام والتقدير في إنتاجه الفنّي وعلمه وصدق إحساسه لا في قبائه.

* * *

كان الشاعر ذهناً لقناً.

له ذاكرة قوية، كأقوى ما تكون الذاكرات.

ولا سيما عندما يتدفّق صنبور الذكريات. . له حنين. . يتمثل في سرد ذكرياته التي وددنا لو سجَّل منها أهله وجلاّسه وخلاَّنه الكثير. . ولكنها شيمة الأدباء. . يمضون وذكريات حياتهم الخاصة كالومضات. . أَو كوشم عفت عليه السنون.

ولو أنه عمر إِلى التسعين أَو ما فوقها.

وإذا ذكرنا الشاعر الشَّارف هنا، وحاولنا أن ندرس أثره وقيمته الفنيّة، فقد يظهر أثره الفنّي أكثر وضوحاً وإضاءة، عندما نرى صورة الأَدب التقليدي في عصره!

تتضح منزلته أكثر عندما نرى ما كانت عليه موضوعات الأَدب وخاصة ـ في ليبيا ـ أَو غيرها من بلاد العرب في أواخر القرن التاسع عشر، أكثرها موضوعات عتيقة مجترة. . ليس بها حرارة. . وفي الغالب هي موضوعات ـ ميتة ـ لا تتصل بحياة الناس على مدى أوسع بل هي «ذاتية» مغرقة في الذاتية. أَو فردية مغرقة في الفردية.

أَو نفور من الحياة في شكل مواعظ أقرب ما تكون إِلى المحنطات من الكلمات. . أَو زهديات تقليدية!

تقليد في الحماس «العنتري».

وتقليد في الزُّهد «العتاهي» إن صحت نسبة ذلك لأبي العتاهية.

أما حياة الشعب..

التغنّي بأمانيه..

تصوير آلامه..

حياة المجتمع..

فذلك شيء كان مرماه بعيداً عن شعراء تلك الفترة.

وإذا تلمسنا منهم ذلك كان أمراً عسيراً.

والبلاغة كل البلاغة في ألفاظ ذات رنين أَو مقابلة وازدواج.

والبديع.. ناهيك بالبديع كالتزاويق على الحائط والنقوش في ستائر مهلهلة.

أما ما وراء الحائط.. وقيمة هذه الستائر فلا تحرّك لسانك به.

تقليد في الإطار.. تقليد في الأسلوب.

حفظ للمعلقات السبع.. والمقامات الحريرية.. وغير الحريرية.. وترادف ألفاظ الهمذاني.

في كل درب من دروب الأدب ومشاربه كان الطابع العام هو التقليد..

التقليد في الشكل والمضمون!

تقليد ومحاكاة للفطاحل.. أَو المغامير المضامير.

من غير أن تكون القصيدة ذات طابع عصري.. أخطأنا ـ يا سيدي ـ وهل كان طابع العصر إِلاَّ هكذا..

إنها طابع بالنسبة لعصرها ـ استعارة وكناية، إغراق في التشبيه.

رأيت أسداً في الحمام ـ وحق رأسك ـ هكذا نرى لوناً من ألوان البلاغة.

أَو حبيب كالقمر.. من غير خسوف ولا كسوف..

ويا ضيعة الشعر بين إغراقين.

إغراق التقليد والقوالب.

وإغراق «الحرية» ـ في الجديد ـ من غير قيد فنّي ولا ميزان ولا ضابط..

بين هذا «الجمود» وذلك «الجحود» يتعثّر الشعر ويضيع الأثر الفنّي.

* * *

وفي ليبيا في العهد الأخير من القرن التاسع عشر.. كان الأَدب والشعر بوجه خاص يدور في حلقة ضيقة مثلاً:

المدائح السلطانية، الزهد المصطنع، النفور من الحياة، شكوى الزمان وسبّه بلا مبرر ولا طائل، بكاء الأطلال ولو من غير طلل، مطولات في الرثاء بدموع جافة وحرقة ملفقة.

أَو ضحكات وبسمات باهتة، وصف حفلة، بناء سبيل، ختان أَو قران، توديع مسافر، ترحيب بقادم، وصف بستان، أَو خد غلام؛ بشطرات يرقم فيها التاريخ في ذيل القصيدة كأنّها أثقال أحجار تشد رجليها الكسيحتين!

حمَّلوه ما لا يتحمّل..

وجاءت سنة 1908 ـ عام إعلان الدستور.

وتحرّكت أقلام، وتحركت مشاعر، ونظم شعراء، وكتب كتّاب، وخطب خطباء.

ونشأت جمعيات أدبية وندوات تحلّق فيها شباب، وبدت مطالب إصلاح، وتنوعت أهداف.. أَو سبل ومناهج للأهداف. وازدهرت صحافة وبرز فن المقال وانتعشت الكتابة بشكل ما.

وإن كانت مطالب الإصلاح كانت تدور، بحسب الاتجاه الفكري والسياسي آنذاك.. تدور في نطاق أَو مناحي الجامعة الإسلامية..

فرح الشعب ـ وأصابته هزّة، آملاً في انبثاق «الدستور» وبرزت في محيط المجتمع وعلى ألسنة الخطباء والأدباء أمثال عبارات: أخوّة، مساواة، عدالة، مشروطية، حرية، إصلاح، تنظيم، أهداف، إرادة.. وها هو أَحمد الشَّارف الشاب الأديب يترنم بقصيدة يلقيها في حفل:

أُعِيدَ لنا الدستور والعود أَحمد فمن حقه يثني عليه ويحمد
شفاً غلة فينا وكنا على شفا ونار الأسى كانت بنا تتوقد
ولاحت شموس الحق بعد خفائها وضاء لنا في حندس اللّيل فرقد

نظمها عام 1326هـ أي منذ ما يزيد عن نصف قرن بمناسبة الدستور العثماني في عهد السلطان «عبد الحميد».

ويلاحظ كلمة أُعيد عام 1908 إشارة إلى دستور عام 1876 الذي أُلغي.

أدب المراسلات:

من صور الشعر الذي كان يتراسل به الأدباء في طرابلس مثلاً نجد «أَحمد الشَّارف» وهو شاب منذ ثلاثة أرباع قرن يرسل لصديقه «أَحمد الزدام» الأديب عندما كان «الزدام» بتونس:

يا بارقاً لاح من الخضراء أرمق رياض تونس الخضراء
وعج على مراتع الظباء وانشد فؤاداً ضل في تيهاء
بين البحيرة وباب البحر

ويا نسيماً كن لهم رسولا وأقر سلامي الأهيف الضئيلا
وأحك لنا حديثه تفصيلا وإن وجدت حولنا ثقيلا
إيّاك أن تبح له بالسر

هذا لون من ألوان الشعر الذي كان ينظمه «الشَّارف» في تلك الآونة.

به طابع الأَدب المعروف في تلك الأعصر.

غزل ونسيب وتشبيب وتصوير للصداقة.

وهذه الأبيات التي أثبتناها هنا كانت ما زالت عالقة بذهن «أَحمد الشَّارف» إِلى أيامه الأخيرة.. عندما سألناه عن أوائل نظمه وأوائل أصدقائه وخلاَّنه، وطريقة المراسلات الأَدبية في طرابلس.

مدارج وتعاريج:

بدأ «أَحمد الشَّارف» ينظم ويترنم منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.. يقبل على حفظ الشعر وروايته.. والاستشهاد به ومحاولة السير على منهاج هذه المدارس التي عرفتها تواريخ الأَدب العربي في تلك الحقبة.

وظل الإعجاب والإكبار لهؤلاء الشعراء العماليق القدامى لا يضاهيه شيء في نفس الشاعر «أَحمد الشَّارف» الأديب الطلعة النهم، إِلاَّ إعجابه وإقباله على شعراء وأدباء العقد الأوّل من القرن العشرين أمثال شعراء المحافظين: الكاظمي، والزهاوي، وشوقي، وحافظ، والرصافي، والشعر العربي الحديث.

وكان إقبال الشَّارف وإعجابه بهذه المدارس الشعرية أيضاً لا يشاركه ويضاهيه شيء إِلاَّ إقباله على آراء فقهاء المالكية، واستنباطات «سحنون» وآراء «بن عرفة» ونقليات «خليل» و«الدردير» و«العدوي» و«الزروق» و«الحطاب».. وأمثال هؤلاء في تعريج الدراسة التشريعية ومنحنيات الفقه ومسالكه ودروبه.

فكان الشيخ الشاعر الأديب المفتون بهذه الدراسات الشغوف بها خير نموذج للعالم الدارس، والشيخ المتفنن.. والأديب المطّلع على ذخائر القديم ومقوماته، في تلك الفترة التي بدأت فيها طلائع النهضة الفكرية تطل من الأفق البعيد!

وعاش أَحمد الشَّارف بهذه الروح العلمية الممتزجة بالأدب طيلة حياته يقسم وقته للدراسة الشرعية. . وللأدب والشعر. . كما هو مفهوم الأَدب والشعر لدى تلك المدارس. .

ولا غرابة. . ولا تناقض.

بل هو موطن إعجاب. . دراسة وتقدير.

ولم يكن الشيخ الشاعر باتجاهه هذا بدعاً من الناس. . أَو عجباً من العجب. . فقد تشاهد في الأَدب العربي، في تاريخه الطويل العميق، أيّام ازدهاره وحتى أيام ركوده وانكماشه، صنوفاً من الّذين استطاعوا الجمع بين التعمّق في الدراسة الشرعية وبين هواية الأَدب أَو استهوائه. . بين الغوص وراء الآراء والأدلّة وبين الإبداع الفني في حلبة القول والافتنان بالتعبير الشعري، وتصوير عرائس الإلهام، أَو اصطياد ما توحي به شياطين الإلهام.

وقدّمت طائفة من الناس ـ في عهد الازدهار ـ على مسرح النبوغ الأَدبي آيات من الفن وبدائع الشعر، والأمثلة كثيرة وفيرة والشواهد متناثرة متعددة. ولسنا هنا في موطن السرد والاستشهاد والتمثيل.

ولكن نقصد بهذا الازدواج أَو هذا الالتقاء غير الشعر الفقهي ـ المتكلّف ـ الذي كان في عصور الانحطاط نظماً باهتاً ينوء تحت ثقل المصطلحات. . وجفاف الأسلوب وفقر الخيال.

كان ـ أَحمد الشَّارف ـ فقيهاً شاعراً، وقد تظهر بعض آثار الدراسة الفقهية في شعره ولكنها لا تفسد خياله ولا تجني على تصويره الشاعري كثيراً. أي أنّها لا تطغى على روحه الشاعرية. . فتميّز شعره. . وامتاز قصيده عن غيره من شعر أَو منظومات وقوالب الفقهاء المتكلّفين من «أدباء» المتأخّرين.

فهو ملهم، شاعر بالفطرة والسليقة.

شاعر في جرابه ذخيرة أمدّته فلم يغرق موهبته في أساليب جافة، وإن كان

يبدو عليه في بعض المقاطع والقصائد طابع البداوة. . والإغراق في المحافظة. . والتلاعب البديعي.

كما كان فقيهاً دارساً.

يتصدّر للقضاء ويدلي برأيه في الأحكام.

واغترف هذا من ينبوعه. . وأخذ الأَدب مأخذه. . ولم تجن على روحه الشاعرية المصادر والمراجع، واختلاف الآراء والتأويلات.

وبعبارة أقرب إِلى الإيجاز لم يجن شعره على علمه ولا علمه على شعره.

فهو بهذا الصنيع صورة من العلماء الذين يقولون الشعر بوحي من الإلهام والفطرة، وبدافع من الإحساس النابع من نفس ملهمة.

* * *

وظهرت من «أَحمد الشَّارف» هذه الميول منذ أن كان طالباً في بلدته «زليطن».

وهي بلدة تعد مسرحاً من مسارح المتصوفة حيث الطريقة الأسمرية والمنهاج «العروسي» والأناشيد والتواشيح والليالي المقمرة أَو على المصابيح وقناديل الزيت يحييها المريدون بالذكر والأغاني والتواشيح والتراتيل المنغمة والقصائد الصوفية.

وتموج هذه البلدة أيضاً ببيوتات العلم، ومجالس أهل الفضل وأسمار أهل الفن.

بجانب هذا حلقات للدراسة العلمية في زاوية الشيخ «عبد السَّلام الأسمر».

هذه المدرسة التي كان يؤمّها وفود من طلبة العلم من أنحاء الدواخل والسواحل وأطراف البادية.

حيث كان طعامهم «المحمصة» و«الزميتة» وفناء العمر في مراجعة كتب وحواش تحتاج إِلى دليل ومرشد.

كان الشيخ الشارف من أسرة لها وجاهتها ومكانتها من قبيلة «ولاد يحيى» ـ عمايم ـ.

وطفق يدرس ويتدرّج في الدراسة حتى وصل إِلى مركز القضاء الشرعي الذي ظل فيه طيلة عهود مختلفة: العهد العثماني، وعهد الكفاح الوطني، وعهد الاستعمار الإيطالي الغابر، وفترة الانتقال في عهد الإدارة الإنجليزية، ثم في عهد الاستقلال. وفي أيام الاستقلال ظل في منصبه بضع سنوات أُحيل على التقاعد بعد أن بلغ من السن عتياً.

شاهد الرجل في حياته وعايش عهوداً متغايرات. وفترات متباعدات.

عهد الترك وربط البلاد بالخلافة.

عهد الجهاد وطلقات البارود وكفاح الشعب من أجل الحرية.

وفترة الاحتلال الاستعماري.

مكث في القضاء أكثر من واحد وخمسين عاماً.

ومع دراسته الشرعية وتعمّقه في «الأحكام» لم يؤلّف في الفقه كتاباً أَو يقدم لنا بحثاً.

فحركة التأليف من هذه الناحية جد فقيرة.. إذا استثنينا بضع بحوث قديمة في الفقه الإباضي، أَو كتاب فتاوى الشيخ «كامل بن مصطفى» أَو في العهد الإيطالي كتاب «الأحكام الشرعية» للمحامي «محمّد بن عامر».

ورسالة صغيرة أشبه ما تكون بخط المتون للشيخ عز الدين الغدامسي.

ما عدا ذلك في فترة قرن لا نرى مؤلّفات ترى النور والمطبعة في الفقه.

فكان أَحمد الشَّارف الشيخ الأديب من هذه الناحية مثل علماء زمنه يكتفون بإصدار الأحكام أَو التدريس والإفتاء ولا يقدّمون كتاباً أَو يخرجون مؤلَّفاً.

* * *

وقد سألت الشاعر في إحدى الأمسيات التي كنت أزوره فيها عن أول قصيدة نظمها.. وطرق بها باب الشعر. فإذا بها أبيات ما زالت عالقة بذهنه، رغم كبر سنّه.. وتباعد أيّامه، وتزاحم ذكرياته.. فقد استطاع أن يوردها ويرويها وهي أبيات ـ شأن شعر الشباب ـ مبدوءة بالغزل:

للقلب لولا انهمال الدمع إكماء   وليس فيه لما يخفيه إبداء

تخفى المحبة والأحوال تكشفها   وليس بعد انكشاف الحب إخفاء

ينظم هذه الأَبيات منذ كان في مطلع شبابه عندما كان يدرس ويتلقى العلم في بلدته «زليطن» وكان يتأثّر بديوان «عمر بن الفارض» و«عبد الرحيم البرعي» في مدائحه والبهلول، وأمثال هؤلاء من الّذين ملء شعرهم مدحاً للرَّسول وآل بيته الأطهار. وقد سمى الشارف ولده «البهلول» رحم الله الجميع.

ونظم المطولات من الشعر الصوفي الذي يبدو أثره واضحاً في فترة الاسترسال والتدفّق الشعري لديه.

شاعر وأديب:

وبين يدينا صورة رسمها ـ أَحمد الشَّارف ـ في فترة من فترات شبابه وهو يشكو الحرمان، ولا يصوّر لنا صورة ذاتية فقط.. بل عن الأديب الفنّان بصفة عامة في المجتمع العربي.

وعندما رسم هذه الصورة ـ شأنه في مطالعه وبداية مقاطعه ـ مزج الغزل بالفخر.. بالحديث عن النفس صوّر فيها ملامح واضحة:

سليب فؤادٍ لم يجره حبيب يجاري خلي البال وهو كئيب
يهون عليه أن يواريَ شوقه عن الخَلق لولا زفرة ووجيب
تعذرت الشكوى فطال سكوته وإن يدعه داعي الهوى فيجيب
يجامل عصراً ليس يرضاه صاحباً إذا قيل هذا شاعر وأديب

أبيات قصار نظمها «الشَّارف» ولكنها مركّزة، لوّنت صورة شعرية.. فالحب ينم عنه، والشوق يدفعه ثم يخلص إِلى الفحوى، ويضمن المضمون في هذا البيت الرائع الدقيق في تصويره الذي أشبه ما يكون بزفرة حارة، وكلمة صريحة، تحمل أكثر من معنى:

يجامل عصراً ليس يرضاه صاحباً.

لماذا لا يرضى به أهل هذا العصر، لا عيب فيه. لا منقصة به. ليس فيه ما يشين. إِلاَّ أنّه ماذا؟ أديب وشاعر.

ومن يرضى بصحبة الأدباء؟ بضاعتهم كلام، وثروتهم خيال.

والناس يبحثون عن الثروة والحطام، فهل في صحبة الأدباء والشعراء منفعة وكسب!؟

وهذا البيت أَو هذه الزفرة تدل على حالة من التوتر النفسي والقلق قد بلغت حدّاً مريعاً عند الشاعر الأديب.

هو من أصحاب التجويد والتنميق في الورق.. يسطر الأَبيات ويزيد ويحذف وينقص ويشطب ويضيف.. حتى تنوء ورقته القصيرة بما حملت من تهاميش وتشاطيب.

ثم يطلب من صاحبه أَو كاتبه أن يُسمعها له والويل له إن أغضب سيبويه أَو أهمل نبرة أَو مدّ في موطن الإدغام.

إنه يطرب لقصيدته إذا قُرئت على نسق صحيح وبأسلوب سليم.

وكان يرتجل الشعر أحياناً، ولكن أشعار الارتجال ضاعت إلاَّ بضع أبيات في مناسبات.

والنّاس يظنّون أن الشاعر الفنّي كالخطيب الملهم يستطيع أن يتحفهم في الحال والحين ولهذا كان الشاعر «أَحمد الشَّارف» يتحاشى الحفلات العامة مخافة طلب الإسماع والإتحاف.

والشاعر كان يحافظ دائماً على البناء الشعري القديم ويراعي التفعيلات المتعارف عليها مع فخامة اللفظ وانتقاء العبارة وجزالة الكلمة وفصاحة الأداء وأصالته ولم يُغضب سيبويه ولا الخليل بن أحمد. .

وكان ـ أَحمد الشَّارف ـ يكره أكثر ما يكره هذا اللون من الشعر الحديث ـ المنفلت ـ الذي يتهرب من الوزن ويتباعد عن الذوق، ولا سيما شعر «الرمزيات» ذات الخيال المرهق والإغراق في الغموض وتلطيخ الأصباغ، هذا اللون من الشعر الذي لا تكمل به صورة ولا تظهر فيه فكرة. . ذي الإيقاع غير المطرب.

ذات مساء سألته عن الشعر الحديث ـ الطليق ـ غير المتقيّد بوزن، فاهتز الشاعر وحمل حملة عنترية على هذه الأساليب التي أبدعها. . أَو «سلقها» بعض ممن لا بضاعة له من لغة ومران أَو لا ثروة له من ثقافة، ولكنه ـ مع هذا ـ قرأ الشَّارف واستمع لبضع قصائد للشاعر «نزار قبّاني» وأُعجب بها وإن كان لا يستسيغ أسلوب نظمها. ولكل مذهب، والأذواق والطعام والصحاف قد تتلوّن وتختلف.

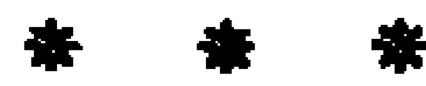
وكان يعجبه من الشعراء المعاصرين «عزيز أباظة» وقرأ له شيئاً من تمثيلياته وتمنّى لو تسمح له الظروف ليشاهد هذا الشاعر! لولا بُعْد الزمان. . وبُعْد المكان. . وظل كالمعري رهين محابسه.

* * *

وهو من ناحية أو أكثر من ناحية يعد من طراز «عبد المحسن الكاظمي» و«عبد المطلب».. مع رقّة وانسياب وسرعة الإجابة لشيطان الشعر. ومع هذا ليس في إسعافاته الشعرية سهولة أو إهمال لقواعد الشعر القديم المألوفة.. بل يلاحظ فيها الإطار المحافظ.. ويراعى في نسجها المنهاج القديم.

في شعر «أَحمد الشَّارف» كأَحمد المتنبّي قديماً، و«أَحمد شوقي» في العصر الحديث يجنح إِلى ترصيع قصائده بالحكمة، ويشحنها بالأمثال، من ذلك النوع من الأبيات أَو الشطرات التي تبقى عالقة في ذهن القارىء ـ أَو السامع ـ ذات أثر وتأثير لما تحويه من معانٍ أَو لما تتضمنه من «قواعد» عامة أَو «كلية» استخلصها الإنسان من تجاربه عبر الحياة الطويلة.

وأحياناً يكون «المثل» أَو «الحكمة» في شعر «الشَّارف» آخذًا شكل التضمين، أَو قالب الاستشهاد. فيجد القارىء بعض القصائد فيها شطرات أَو «مقتبسات» من شعر الفحول أَو نوعاً من الأمثال السائرة. فالشاعر في عديد من أبياته يلجأ إِلى الحكمة أَو القول المأثور بل أحياناً بحكم ثقافته الشرعية.. وحفظ كتاب الله الكريم قد «يضمن» البيت آية كريمة.. أَو «قاعدة من قواعد التشريع والفقه» ومصطلحات العلماء الأقدمين.



ونوّع الشاعر في الأبواب التي طرقها.. والموضوعات التي تضمنها شعره. فهو بحكم مناخه الثقافي وأجوائه.. كان يصور معاني تتصل بالدين.. ومكارم الأخلاق.. ومدائح الرَّسول.. وآل بيته، حتى شملت مجموعة أشعاره فصلاً كبيراً وقسماً خاصاً بالنبويات.

ونراه عندما أثيرت في الآونة الأخيرة بطرابلس مسألة إدماج القضاء الشرعي بالقضاء المدني، واتّخذ في هذا قرار وقدم طرابلس القانوني الكبير «عبد الرزَّاق السنهوري» وأصدرت وزارة العدل الليبية قراراً بإدماج القضائين

وتوحيدهما، اجتمع الشيوخ. ورحبوا بهذا، وصار قانوناً معمولاً به.. ولكن الشيخ «أَحمد الشَّارف» رفض هذا. ورغم أنه كان وقتها كهلاً منعزلاً، إِلاَّ أنه كان يتتبع هذه المسألة. وتشغله هذه القضية، ويتحمّس مع الذين يرون استقلال القضاء الشرعي عن القضاء المدني.

ثم هو يدعو إِلى التمسّك بأهداب الدين.

ولا غرابة فهو شيخ يجنح للتصوّف، عازف عن المغريات.

وما عرف عنه في حياته الطويلة العريضة عربدة بعض من شعراء، أَو مجون بعض من أدباء.. أَو أي لون من ألوان الاستهتار، مع أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون.

بل كان الشاعر عدواً للعربدة، مستنكفاً عن المجون، هازئاً بالمستهترين..

وعندما أراد أن يرتب ديوانه وينسّق مجموعة أشعاره، وينظم أبواب نظمه، ألحّ على كاتبه أن يجعل الباب الأوّل ـ أَو القسم الأول ـ المدائح النبوية، الزهديات، أَو كما أشار: قصائد في مدح الرَّسول.

فهو في شعره متشيع لأهل البيت ولم يكن من مذهب الشيعة ـ لكنه محب لآل البيت أشد ما يكون الحب ومقدّس لأمجاد الإسلام أروع ما يكون التقديس.

فهو من حفاظ «البردة» وديوان «عبد الرحيم البرعي» و«أَحمد البهلول».

فمن مطالع مدائحه:

إذا رمت من بحر طويل مدائحاً ... فمدح النبيّ المصطفى جوهر الكلم
نبيٌ له كنز المعارف والتقى ... ومعدن أسرار البلاغة والحكم

نراه يشحن ديوانه بقصائد في المناسبات والشعائر الدينية: الهجرة، الإسراء والمعراج، المولد، الذكريات الإسلامية وأمجاد العروبة. له في هذا مطولات رائعات.

وله أيضاً مجال خصيب في الشعر الحماسي والفخر والوطنيّات والمناسبات السياسيّة والأحداث القومية، وتصوير التيّارات التي مرّت بالبلاد.

الشيخ كأديب وشاعر يصعب علينا معرفة ترجمته، وأطواره الأَدبية.

يصعب التنسيق في ترجمته، رغم أنه معاصر، رغم أننا سمعناه وجلسنا إليه وسألناه في أواخر أيّامه عن حياته.. ودراساته.

وليس هذا بالأمر العجيب في الشرق العربي.

لقد ذهب «شوقي» و«حافظ» وما عرف عن حياتهما الخاصة وتطورهما أَو تصرفاتهما التي تفيد المترجم الدارس، لم يعرف عنهما إِلاَّ الشيء النادر الطفيف. وذهب «الشابي» في تونس، وأخيراً حاول أدباء تونس أن يتلافوا شيئاً مما فاتهم وأخذوا يسجلون ويكتبون عن أيام الشابي وأحواله ورسائله وتصرفاته وأطواره.

ونحن هنا لا نغالي، ولا يذهب بنا الغرور بعيداً فنزعم أن «الشَّارف» في كفة مقابلة أَو في كفة مع «شوقي» أَو «الشابي» في ميزان واحد.

كلا.. وإنما تلك عبقريات ذات لون ومدرسة.. وهذا أيضاً أديب له وزن في تطور الشعر والأَدب في بلاده. وإنما أشرنا إِلى «شوقي» و«الشابي» من ناحية إهمال الحياة الخاصة للأديب، ولعل مرجع هذا.. أن صورة الشاعر والأديب لا ترى وتتضح قسمات ملامحها من قرب.. بل هي تتضح من بعيد ولهذا ـ في الغالب ـ يبحث المترجمون والدارسون عن التراث الفكري وحياة أصحابه بعد أن يصبح هذا شيئاً لا يخلو من صعوبة.

الأديب الشاعر الفنّان.. من يُعنى ويهتم بحياته الخاصة؟

لا أحد ـ إلاَّ نادراً ـ وبعد فوات الوقت.

وإن كان تراث الشاعر ومؤثراته النفسية والحسيّة يظهر أثرها جلياً أكثر ما يظهر في إنتاجه. فيما صدر من قلمه أو فنّه.

ولكن مما يساعد على ترجمته ترجمة ضافية، ومما يلقي ضوءاً كاشفاً، الترجمات الذاتية، والذكريات الصادقة، ومعرفة العادات والتقاليد، والأهواء والميول لدى الفنان الشاعر أو الأديب الكاتب.

وإذا أردنا أن نسير على هذا الدرب، ونسلك تلك الجادة، وننسج على هذا المنوال، نلاحظ أن المعاصرين للشاعر «الشّارف» في عصر شبابه الأوّل، راحوا فلم نجدهم، ولم نعثر لهم على أثر ولا جرة.. ذهبوا.. ودّعوا الحياة قبله..

بقي المعاصرون له الذين أدركوه على كبر بعد أن غدا شيخاً متقدم السن. منهم من في ذاكرته صورة مهزوزة عن الشاعر.

أو من يروي نادرة الذهول والسرحان.

ومن لا يذكر إلاَّ أكلة دسمة، وشربة شاي أخضر في بستان فلان.

وهناك من يروي المعروف المتواتر.

فلجأنا إلى قصاصات سجلناها عن ذكريات أملاها علينا الشاعر نفسه في صورة أجوبة لأسئلة، كنت أوجهها إليه عندما كنت أزوره في عزلته الهادئة بمدينة طرابلس.

ولجأت إلى قصاصات وجذاذات كتبت فيها شعره.

وإلى صحف ومجلات معاصرة له.

ثم إلى الأهم.. أصدق شاهد.. وأوضح دليل ناطق.

ديوانه.. الذي شُغف به.

إلى مجموعة أوراقه التي رواها وأملاها.. وملأها بنفثات شعره. كان يتلمسها في أواخر أيّامه، وكلما أقبل عليه زائر ـ على قلة زوّاره ـ يطلب الشيخ منه أن يقرأه له.

قسم مجموعة شعره هكذا عندما أملاها على كاتبه الذي لازمه أواخر أيامه. وكان يجمع له الصحف والمجلات التي نشر فيها.

القصائد الأولية في مدح خير البرية، بدأها بقصيدة:

صلاة من المولى على ساكن الحرم

الباب الأول: في الحماسة، بدأها:

من مبلّغ عنّي حديث غرامي
ولطيف أشواقي وفرط هيامي

الباب الثاني: في الأمثال والحكم:

أكرم الناس وأولى بالثنا
من يعاني الصعب في نيل العلا

الباب الثالث: في الشعر القصصي:

قد طالما قلت في شعري وفي أدبي
يا أخت برقة في مجد وفي حسب

الباب الرابع: في الرسائل:

مـا زلـت أحـفـظ لـلـكـرام ودادا

عـاد الـزمـان إلـيـهـمـو أَو عـادى

الباب الخامس: في الغزل والتشبيب:

أحـاديـث عـن لـيـلـى بـهـا الـلـيـل يـقـصـر

يـهـيـم بـهـا قـلـب الـمـحـب ويـسـكـر

وهذه الكراسات التي جمعها الشاعر وأشرف على تنظيمها شملت 150 قطعة ومجموع أبياتها حوالي 2040 بيتاً. وهي مجموعة يسيرة من قصائده، فقد ضاع الكثير جداً من نظمه كما أسلفنا.

المدرسة ـ المدرِّس ـ أول شاعر أُعجب به ـ الكتب التي أثرت في حياته الأَدبية:

وفي ذات مساء زرت الشاعر في بيته في شارع طنجة.

وبعد لفائف الدخان وفناجين القهوة.. وأكواب الشراب الحلو التي قدمتها خادمته الصغيرة ـ ذهبية ـ كانت الحجرة خالية من الكتب إلاَّ ديوانه في شكل كراسات من شعره المخطوط.

وكان معنا مندوب من مجلة «العربي» التي تصدر في الكويت.

والتقطت له المجلة آخر صورة له.

وسألت الشاعر في هذه المرة وقبلها أسئلة أجاب عنها.

* * *

بدأ بمدرسة زاوية «عبد السَّلام الأسمر». . زاوية «الفطيس» وبعدها المعهد الأسمري، وأيضاً تنقل في دراسته الأولية بين زوايا: «المدني» «لاغا» «القصية» وكلها ببلدته زليطن.

وفي زاوية الأسمر من أساتذته: عبد السَّلام بن محسن.

وفي زاوية الفطيس من أساتذته: سالم الفطيس.

وفي زاوية المدني ـ لاغا من أساتذته: عبد السَّلام بن كريم.

س ـ ما هو الذي حبَّب إليكم الشعر؟

جـ ـ الّذي حبَّب إليّ الشعر هو ديوان «المتنبّي» وكتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني، و«البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ.

س ـ ما الذي أعجبكم في شخصية المتنبّي؟!

جـ ـ أُعجبت به وحبّبني فيه الأساتذة الأدباء الذين كانوا يعرّفوننا به مثل الشيخ «عبد السَّلام الفطيس» و«عبد اللَّه بن حجر» و«ميلاد الشويرف» و«رحومة الصاري».

كانوا يعجبون بالمتنبّي، وعن طريقهم عرفته ولمست فيه ـ أي في شعره ـ الطموح والجرأة وأصالة الشعر.

س ـ وغير المتنبّي من أعجبك؟

جـ ـ يعجبني شعراء ودواوين الأندلس مثل «ابن زيدون».

وفي شعر الأندلس رقة وطابع يميّزه عن أي شعر غيره.

س ـ أول قصيدة نظمتها؟

جـ ـ أول قصيدة نظمتها في الديوان. . يشير إليها.

س ـ هل كان هناك في ليبيا شعراء في شبابك وعصرك؟

جـ - الشيخ «الفطيس» و«رحومة الصاري» و«أحمد الزدام» من كبار الأدباء وكنت في «مسلاتة» مدرّساً ومن أوائل قصائدي في تلك الآونة لما ذهب «الزدام» لتونس للزيارة والعلاج ونظم قصيدة شم الاستعمار منها رائحة الطعن في فرنسا، ضايقه الفرنسيون هناك وعاد الزدام إلى ليبيا خفية وكتبت له عندما كان بتونس:

يا بارقاً لاح من الخضراء   أرمق رياض تونس الخضراء

(إلخ . .).

* * *

ومن نظم الشّارف في تلك الآونة قصيدة اشترك فيها الأديبان، المصراع الأول للشارف والمصراع الثاني للزدام:

ش - أتى بعد أن طال التهاجر والبعد

ز - إلى مستهام قد أضرّ به الوجد

ش - حبيب له خد أسيل ولحظه

ز - سهام سوى الأجفان ليس لها غمد

ش - مكانته فيمن يهيم بحبه

ز - مكانة سلطان له الفخر والمجد

ش - دهاني بلحظ منه قلت لمهجتي

ز - دهاك بما يوهي به الحجر الصلد

وأحمد الزدام درس بالجغبوب وكان من أدباء تلك الحقبة يميل لدراسة التاريخ وقرض الشعر، وعمل في وظيفة «قائم مقام» بلدة «مسلاتة».

أول مرة تأهّل الشَّارف من ابنة عمه «سليمة بنت محمّد التومي» وكان أوان ذاك فتى دون العشرين. والثانية عندما كان قاضياً بتاورغاء سنة 1900 إفرنجي من «عافية بنت محمّد المصراتي» وخلف بنتين وولداً.

وتوفي أحمد الشارف ـ رحمات الله عليه ـ الثلثاء 11 أغسطس 1959 إفرنجي بمدينة طرابلس.

* * *

وكان يراسله الأديب «السنوسي بن صالح» عندما كان مهاجراً بالشام وأرسل إِلى الشَّارف إحدى القصائد مطلعها:

«أبا العباس قد طال انتظاري».

سألناه عن هدفه فأجاب: الأدب والشعر.

ونشرت قصائده في صحف ليبيا ومصر وتونس.

الإنسان الوفيّ:

هو إنسان وفيّ يحفظ الودّ، ويصون العهد، ويجعل للعاطفة مكاناً، وللصداقة منزلة.

رغم أنه حسّاس.. مرهف الإحساس، إِلاَّ أن حوادث الزَّمن لم تغيّر من طبعه.. ولم تبدّل من طبائعه وخصاله.

فظل وفياً، أبياً. والوفاء والإباء شيء قد يحتاج لنعثور عليه إِلى مصباح «ديوجين» في عهد المادية الطاغية.

تكبّر قوم، ولم يتكبّر الشاعر الإنسان.. إِلاَّ كبرياء الاعتزاز والعزوف، إنها رفعة نفس لا تكبّر مزيّف.

لقد انتفخت أوداج وبطرت، وظل الشاعر «أَحمد الشَّارف» كما هو لم يتلاعب في مسرح اللاعبين.

وظل وفياً في زمن أصبح فيه الوفاء عنقاء مغرب، أَو عنقاء مشرق، أَو كبريت، كبريت أحمر أَو ياقوت، ياقوت في عهد الذرّة والصاروخ.

انفض من حوله أصحابه، وتفرّق خلاّنه، تركوه قاعداً في عزلته ينشد أناشيده، ويتحسّس أضابيره ويستعرض ذكرياته.

وكان في نفسه جرح.

ولكنه جرح إنسان نبيل، لا يحمل حقداً، ولا ينطوي على ضغينة.

فقد نفر أصحابه ـ ومنهم من ساعدته الظروف على أن يتمركز في مناصب عالية ـ تسربوا من حوله، حتى زملاؤه، وسمّاره.

منهم من نفضهم الدهر، ومنهم من نفضتهم الكراسي والمناصب، ومنهم من ضيّعه النسيان والهروب من الناس.

يهتف الشاعر الإنسان، الحافظ للوداد قائلاً:

ما زلت أحفظ للكرام ودادا	عاد الزمان اليهمو أَو عادى
تاللّه لا أنسى عوائد برّهم	بخل الزّمان بقربهم أَو جادا
والقلب معتاد بصدق ولائهم	أبداً وليس بتارك ما اعتادا
قلب إذا يوماً تذكّر عهدهم	قدحت يد الأشواق منه زنادا
وإذا دجى ليل نفى طيب الكرى	شوقاً وأضرم ناره الوقادا

وعندما أسدل حجاب النور على عينيه. وشارك أبا العلاء المعري في عزلته بركنه وعدم رؤيته المحسوسات صور هذا في أبيات قصار، وجد فيها باعثاً للصبر والتأسي:

وكم سمعته يردّدها في نغمة حزينة.. إلاّ أنّها ذات إطار من الصبر والإيمان:

لا تـظـهـروا أسـفـاً ولا تـأسـوا عـلـى   مـا نـابـنـي يـا قـوم مـن عـدم الـنـظـر
لـي أسـوة بـأئـمـة فـضـلاء قـد   كـان الـعـمـاء أصـابـهـم زمـن الـكـبـر
ولـبـعـضـهـم زمـن الـشـبـاب وبـعـضـهـم   لـم يـعـرف الألـوان حـتـى فـي الـصـغـر
قـد جـاءت الـبـشـرى لـمـن صـبـروا عـلـى   مـا نـابـهـم والله يـجـزي مـن صـبـر
وفـضـيـلـة الإنـسـان راجـعـة إلـى   نـور الـبـصـيـرة لا إلـى نـور الـبـصـر

* * *

شكوى وصبر:

ثـلاثـة قـد أحـاطـت بـي مـع الـكـبـر   فـقـد الـوصـال وفـقـد الـسـمـع والـبـصـر
لـم يـبـق فـي الـقـلـب مـا يـدعـو لـتـسـلـيـة   كـآيـة الـصـبـر والإيـمـان بـالـقـدر

* * *

عتــاب:

عجب ما صنعه الأحبة والخلّان مع الأديب المرهف الإحساس.

كانوا معه يسامرونه، ويؤازرونه، وها هم يتخلّون عنه..

تغيرت نظراتهم، هل هذا هو خلق المجتمع؟.. أكل الناس هكذا!!؟

يصور الشاعر هذه الحالة التي لمسها وهزّت نفسه:

لأحـبـتـي عـجـب لـمـن يـتـبـصـر   فـيـهـم وتـذكـرة لـمـن يـتـذكّـر
نـهـضـوا مـعـي حـتـى إذا لـم يـبـق لـي   إلاّ الـقـلـيـل مـن الـحـيـاة تـأخـروا
نـظـراتـهـم شـخـصـيـة ومـن ابـتـغـى   نـظـر الـعـواطـف مـنـهـم لـم يـنـظـروا

فإذا ارتفعت وجدت من نظراتهم وإذا سقطت فلن ترى من يبصر
فغنيهم لفقيرهم متهاون وعلى الضعيف قويهم يتسيطر
وتقيّهم لا يتقي وعصاتهم كثر المطيع إليهمو فاستكبروا
إني أقول ولا أقول لغير من أضحى يفكر فيهم ويدبر
ليس التغير في الأحبة كلهم بل بعضهم باقون لم يتغيّروا

الشاعر بين الفقه والأدب:

هل هو في زمرة الفقهاء وأصحاب الدراسات الشرعية؟

أم هو أديب شاعر يتغزّل ويصف الجمال، ويصوّر أحاسيسه، ويصبّها في منظومات منوعة؟

أين تضع الرجل.. صاحب العمامة والقفطان. وصاحب الألحان والأوزان.

سؤال قد يدور على لسانك.. أو يدور في خاطرك.

وها هو أَحمد الشَّارف نفسه يجيب على هذا السؤال فلا يتعبك في البحث عن الجواب.. إنه يصور نفسه في زحام الفقه وزحام الأدب.. يريد أخذ الطرف من هذا وذاك. فهل هناك مانع؟ لقد كان هذا هو الواقع في حياته:

لا شك أن حياتي كان معظمها نقل وحفظ لما في الفقه من كتب
تخصيص وصفي بقرض الشعر تغطية لما عُرفت به من سالف الحقب
والشعر من أدبي والفقه مكتسبي فينبغي الجمع بين الفقه والأَدب
وكلّ من قام بالتعبير عن صفتي ولم يعبِّرْ بهذا الجمع لم يصب
والشعر ما دام شعرًا غير مبتذل فلا يلام على أسلوبه الأدبي

كـجـيـد الـنـثـر تـذكـاراً ومـوعـظـة والـفـرق بيـنـهـمـا في الـوضـع والـلـقـب
كـلاهـمـا حـلـيـة تـزهـو لـنـاظـرهـا عـقـد مـن الـدر أو عـقـد مـن الـذهـب

* * *

فالشعر من أدبه، من هوايته وميوله الطبيعية، أما دراسة الفقه ومسائل التشريع فبحكم الوظيفة، فقد كان قاضياً مكتسبًا عيشه من منصب القضاء.

وكان الشاعر يحذّرنا من أن نغفل وصفه بالأَدب والشعر، خشي ألا نقرن الصفتين، الفقه والأَدب.

اصطلاحات من فن المصطلح:

وهو، كما يشير، جمع بين الدراسة التقليدية وفنون التشريع وبين الأَدب والشعر:

وكـل مـن قـام بـالـتـعـبـيـر عـن صـفـتـي ولـم يـعـبّـر بـهـذا الـجـمـع لـم يـصـب

كل من أراد أن يدرس الشَّارف أَو يصفه يلمس هذا، وتجد في ثنايا شعره اصطلاحات وتعابير من أثر الثقافة التي تلقّاها في المدارس التقليديّة.

ومن اصطلاحات «مصطلح الحديث» وتعابير الفقهاء صوّر الشاعر قصيدة، ورسم قطعة فيها طرافة الحب.. وشروط الهوى: غرامي صحيح.

ألـم ينظم أحد المتقدمين قصيدة طويلة، وأرجوزة شهيرة ضمّنها «فن المصطلح» يقرأها الدارسون لفن الحديث النبوي ونقد سنده فيستفيدون.

ويطالعها ـ أيضاً ـ عشّاق الأَدب وأهل الهوى فيتأمّلون.. وقد حفظ كثير من أدباء وعلماء الأجيال الماضية قصيدة «غرامي صحيح».

وها هو أَحمد الشَّارف يعطينا لوناً من هذا الشعر الذي يصوغ فيه فنوناً من التعابير والمصطلحات:

أحبة قلبي والأحبة أنتمو ... علي بما شاء الغرام تحكموا
وشرط الهوى التسليم والشرط لازم ... لدي فلا أشكو ولا أتظلم
وإني على العهد القديم ومن وشى ... له خطأ في كل ما يتوهم
وكم نقل الواشي حديثاً «مضعفاً» ... فيوهم أني قد تسليت عنكمو
على أنه يروي حديثاً «مجرداً» ... بلا «سند» ما كان يرويه «مسلم»

* * *

والشاعر بطبيعة دراسته وثقافته، وبحكم اطلاعه على فنون البلاغة على نمط قديم، ولتأثره بفن «البديع» وأصباغه اللفظية، ومصطلحات علم «المعاني» و«البيان» على نهج «السكاكي» و«الجرجاني» و«الزمخشري» و«الأخضري».

وبحكم غزارة مطالعاته واطلاعه على دقائق اللغة، وتملّكه لثروة لغوية، تراه أحياناً في ثنايا قصائده يتلاعب بالألفاظ ويجنح للمقابلة بين كلمة وكلمة.. ويزاوج بين تعبير وتعبير من قبيل النحت.. أَو احتمال الكلمة لمعنيين.. فهي ذات وجهين.. من المطابقة.

أَو يتلاعب باللفظ لمجرد الحيلة.. والنقش اللفظي.

وهنا نستعرض بضع تراكيب وجملة عبارات ظهرت فيها لدى الشاعر البراعة في فنون اللفظ.

وإن كان هذا الاجتهاد اللفظي غدت سوقه بائرة غير رائجة في النقد ومسارح التعبير.

وقد كثرت هذه المحاولات، وتفشت فنون الحيلة اللفظية في عصور تأخّر الأدب.. وإنهاك القوى الشاعرية. وإن كانت الحليات والنقوش والزخارف والألفاظ والتلاعب الحرفي بقيت ـ بشكل ما ـ حتى في عصور ازدهر فيها فن

التعبير والتصوير الشعري. . ولكنّ تعمده، والإكثار منه كالملح أَو كالسكر. . كثيره قد يفسد. . قد يقلب ويغيّر الطعام. .

وعلى أية حالة. .

هنا نرى نماذج ولسنا ندافع عن هذه الطريقة التي قد تكون من معرقلات الجناح الشعري.

وإليك نماذج سريعة:

ويـا عـشـبـاً يـعـطّـرنـا شـذاه يـقـول الـرائـد ذا الـعـشـب عـش بـي

فالعشب الأخير ـ قد تأخذه على أنّه فعل أمر من المعيشة أَو هو «عشب» على الإضافة.

وقد يرى هواة المصطلحات البلاغية العتيقة أن الشاعر هنا أصاب بهذا التلاعب اللفظي محزاً كبيراً أَو هذا البيت الذي يخاطب فيه سرب القطا:

ويـا سـرب الـقـطـا حـتّـامَ أنـي أنـادي حـادي الأظـعـان سـربـي

فالكلمة قد تحمل معنى الإضافة. . أَو هي من صيغة فعل الأمر من السير والمسير:

أرشـف الـريـق الـمـسـلـسـل وعـن الـخـمّـار سـل سـل

هل العبارة الأخيرة من السلاسة. . أم تكرار لفعل الأمر. . يجوز.

وهذه من ألوان المقابلة بين كلمتين:

يـــا سـعـد قـم حـيّـنـا بـنـفـحـة مـــن حـيّـنـا

أَو هذه المقابلة بين «عذري» من الاعتذار والمعذرة.. أم هو هوى «عذري» يتصل ببني «عذرة»:

أما آن للعذال أن يقبلوا عذري   وقد علموا يا صاح أن الهوى عذري

وقد سمعها من فم الشاعر أحد عشّاق الأَدب القديم فطرب لها واستحسن وقعها كأن أغنية من حنجرة «أم كلثوم» أطربته وهزّته.. وللناس فيما يعشقون مذاهب.. مذاهب من التعابير والتصاوير والألفاظ.

وهناك قد يكون التقارب في منحت الألفاظ أَو متحفها.. مجرد تقارب في اللفظ.. لا في دلالة الكلمة:

بلابل مغناكم تهيج بلابلي   ورؤية مغناكم لها سحر بابل

وإن كنا نحمد للشاعر أنه لم تغرقه كثيراً وتشغله فنون النحت اللفظي.. وإلاَّ.. لضاع عبير شعره.. وضاعت تعابير أدبه بين هذه الأشكال التي لا تغني في سوق الأَدب، ولا تهز عاطفة في عصرنا، ولكن أثبتنا بعض النماذج وأشرنا إليها، لأنّها كانت ظاهرة، وقد كان من الصعب على الشاعر ـ بالنسبة لعصره وثقافته ـ أن يتخلّص منها بسهولة.

ونحمد للشاعر انطلاقه وفكاكه من هذا، إذ لو غرق في هذه المحاولات لكان كمن يضع تعابيره في قماقم الألفاظ.

عروبيـات ووطنيّـات

أَحمد الشَّارف من الشعراء الذين تغنّوا بالعروبة وهتفوا لها، واعتزوا بأمجادها.

سجّل في عديد من قصائده تطورات القضية العربية.

لم يكن الشاعر بعيداً عن الأحداث والهزّات التي مرّت بها قضية الشعب العربي.

بل حمّس وحفّز، وهتف وأثار.

نظم في قضايا فلسطين، والمغرب، والجزائر، ومصر، وحنّ لديار الشام، ومسارح البطولات العربية. وبادر برثاء الشاعرين حافظ وشوقي كما رثى فيصل الأول.

كان في شعوره وإحساسه عربياً صادق العروبة.. يعزف على أوتارها لحناً شجياً، ولحناً أبياً، حتى في أحلك الأيام التي مرّت بالوطن الليبي، كان الشاعر، من وراء الستار، ومن خلف الأسوار، ينادي بالعروبة حتى عندما كانت المناداة همساً، والبلاد في قبضة الاستعمار الإيطالي الديكتاتوري!

إنه في شعره صورة من الشعراء المؤمنين بالعروبة، الهاتفين بالحرية، المؤمنين بوحدة الشعب، ووحدة الشعور والإحساس.

آمن بالوطن الليبي كجزء من الأمة العربية. آمن باللغة والكفاح والإحساس المشترك إلى غير ذلك من مقومات روحية ومادية وسياسية.

واسمع «أَحمد الشَّارف» شاعراً يصف المواطن الليبي.. المواطن المتحمّس للعروبة وقضاياها:

لا غـرو إن يـدّعـي الـلـيـبـي أن لـه	مـا لـلـعـروبـة مـن مـجـد ومـن حـسـب
لـديـه مـن لـغـة الـقـرآن مـعـجـزة	تـلـوح كـالـدر والـيـاقـوت والـذهـب
تـخـالـه فـي ارتـيـاح مـن تـجـلّـده	بـالـرغـم عـمـا بـه مـن شـدة الـتـعـب
عـزم لـديـه وإيـمـان وتـضـحـيـة	يـوم الـلـقـاء بـلا خـوف ولا رهـب

والشاعر دائماً كان ينبه قومه على الأخطار، ويشير في صراحة إلى موطن الداء، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ويستصرخ العزائم، ويدعو إلى التسلّح بالخلق، وتهذيب النفس لخوض معركة الحياة. إنه يدعو إلى الإيمان بالقِيَم ليتكوّن المواطن الصالح. فهو أستاذ يرى الروح والمثل عماد التقدّم وسبيلاً من سبل الانتصار. فالجبن والرياء، ووسائل التزلّف والأكاذيب ودنيا الخرافات والأوهام كلها أسلحة فتّاكة كم عانت منها الشعوب العربية. كم جنت التربية الفاسدة، والروح الحزبية على الأفراد والجماعات في المجتمع العربي.

لا بد من خلق وتكوين، وبلورة نفوس.

نهضة الشعوب تبنى على الأخلاق.

الخلق السليم القويم يدعو إلى الوطنية.. والإحساس والعزّة.. أما الخنوع، والاستسلام فيولدان العار وينتج عنهما الهزيمة.

وها هو «أحمد الشَّارف» يهتف في أذن الشعب:

الجبن عار ومن أجلى مظاهره حب التزلّف والتمويه والكذب
وإن تمشت على الأوهام خطته لا غرو إن أخطأ المرمى ولم يصب
وطالب المجد لم ينجح له طلب إلاّ على الصدق والإخلاص في الطلب
ونهضة الشعب أمر لا ينفذه إلاّ التعاضد من أبنائه النجب
وقوة الصّدق في أعمالنا سبب للنصر والشيء يقوى قوة السبب

والشاعر المواطن أحس بالأدواء، وبحث عن الدواء، ولم يورده في أسلوب وعظ، أَو بأسلوب الخطابة العاطفية، بل بمنطق وحكمة، ورأي حصيف. صوّر ذلك في كلمات تنبعث من شغاف قلبه، وعبارات سطرها بمداد الصدق، وأصدق آيات الأدب ما كان فيض خاطر، وتعبيراً صادقاً في إطار من الصراحة.

عاش الرجل في فترة حالكة من أعسر الفترات التي مرّت على الأمة العربية، وعاصر حربين عالميتين، ورأى أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية، وحكم الأجانب، وشاهد في المجتمع صنوفاً من التزلّف والتملّق، كما شاهد رجالاً من الفدائيين والشجعان المغاوير أهل النضال المقدّس. وحياة الرجل في هذا المعترك لم يكن فيها مكتفياً بدور المتفرج. بل هو كأديب شاعر له مسؤولية، سلاحه الكلمة، وميدانه الإلهاب والتنبيه، مجاله القول، وقد قال كلماته، وصاغ قوالب من قوله، ولم يترك الأدواء المتفشية، والمظاهر السياسيّة تمر بدون أن ينبّه ويسجّل، قد تكون بعض الكلمات نشرت في أفق محدود، أَو سرت بعض كلماته في منطقة ضيقة، ولكنه ـ بصورة ما ـ أدّى أمانة الكلمة وساهم ـ ولو بعض المساهمة ـ في كشف السيئات والإشارة إلى النواقص والشوائب، رغم ما زعمه فريق من شباب الأدباء أن الشاعر الشارف،

هروبي انعزالي، وقال آخرون: إن ضجته وهالته أكبر من حقيقته الأَدبية، واتهمه فريق ثالث بأنّه سار في ركب المداهنين عندما تسلّطت ظروفه. وتساءل قوم.. وماذا صنع؟ وماذا قال؟ وأين نضعه في صفوف الأدباء؟ وما هو سهمه؟ ولهؤلاء.. وأولئك نقول في رفق ولين: لا تهدموا صرحاً صنعته الكلمات في سبعين عاماً. لا تلوموا في حماس مفتعل. لقد ساهم الرجل ونطق ولم يسكت، وأشار، وأشاد، وما عساه أن يصنع، وميدانه الكلمة الشاعرة؟! لقد خاطب الشعب وهتف للناس، وأشاد في مقاطع عديدة بحب الوطن العربي، وماذا تطلب من شيخ كان يعيش في بلد ضرب عليه الاستعمار الطلياني سوراً غليظاً، وأهدر فيه الدم، وأزهق الأرواح، وغرز المشانق! حقاً، إن شعره لم يسر في الآفاق، ولم ينشر على نطاق واسع ولكنها الظروف القاسية، والعوامل التي كانت فوق إرادته، والسيف الذي كان فوق الرؤوس.

فما كان الذنب ذنبه!

وإن كانت بعض قصائده طويت من المعجبين.. وضنوا بها، فما كانت الجريرة جريرته.

* * *

ونحن بنو أرض العروبة

في فؤاد الشاعر شوق.. وشوق ملتهب.. وإيمان.. إيمان متزايد بحق الشعب العربي.. ولنستمع إليه في إحدى زفراته.. عندما برم الرجل بأساليب معوجّة.. مر بها الوطن العربي في تغيير الأشخاص دون المبادىء أو الأفراد دون الأحداث.. صورٌ وحالات بعثت الألم في نفس الشاعر..

إن لم يكن من أنفس القوم وازع   وإن زجروا بالقول لا ينفع الزجر
فلا يستقر الأمر إلاّ بعادل   قوي فلا حجز عليه ولا حجر
وأنكد ما يلقى الفتى سعي خالد   لإسقاط زيد ثم يعقبه عمرو
فيتلوه بكر ثم يأتي بعكسه   سواه ولم يعرف من الخَبر الخُبر

ويصف الشاعر حالات مر بها الشعب العربي في آونات مظلمات:

دعاةٌ لهم في جانب السعي ألسنٌ   حداد تحاكيها الأسنة والسُّمر
فتسكت عن حق وتنطق عن هوى   وتمسك عن شكر إذا وجب الشكر

وهنا روح من الزهاوي والرصافي، ونفس من مثل شعرهم العاطر الطيب الذي يحمل روحاً عربية في إطار من الأسلوب والتعبير الرصين.

ونحب أن نبدأ القصيدة من مطلعها لنطلع على ذخيرة من الروح العربي الأصيل.. ونرى مدى شوق الشاعر لبني عمومته في أرض العرب وتشوقه للوحدة:

ألم بنا شوق يذوب له الصخر ويقضي علينا البؤس لو فقد الصبر
وما شوقنا إلاّ لوحدة أمة يشاد على مر الزمان لها ذِكْرُ
ولم نر ما يدعو إلى البؤس والشقا سوى وطن فيه القطيعة والهجر
تهافتُ آراءٍ وأصداءُ فتنةٍ فلم يخل منها لو تتبعتها عصر
ولم يخل شعب من حديث مموّه فظاهره خير وباطنه شر

ثم يصف الشاعر بعض المظاهر أو الظواهر التي عانت منها الأمّة، وساسة ابتلي بهم المجتمع العربي في عهود الاستعمار والاستبداد، وفترات الركود.. ساسة من ذلك النوع.. فئة كانوا نقمة على مطالب الشعب.. صورهم الشاعر.. وحذر من أفاعيلهم:

تذاع أحاديث السياسة بينهم وأي حديث لا يذاع له سر
يريدون شد الأزر والخُلف بينهم ودون اتحادٍ لا يُشَدُّ لهم أزر
ورب قرين كاد يظهر شره جلياً فتخفيه الطلاقة والبشر
يلاقيك بالبشرى وفي النفس حاجة وما تحتها إلاّ الخديعة والمكر

صوَّر الشاعر حالة.. ويا لها من حالة كابدت منها شعوب الأمة العربية ويلات وهزّات..

ضجة جوفاء.. ومظاهر خداعة.. وسياسة منهارة في ركب الأهواء، والشرق المسكين يتخبط في دياجير الأنانية والنفاق والأهواء المغرضة. ويصور الشارف هذه الفترة المريرة العسيرة التي كابدت منها البلاد قائلاً في صراحة كاشفة:

إذا كان هذا أيها الصحب حالنا فلا غرو إن أودى بنا الويل والخسر

أنانية فينا، وحب رئاسة «فعولان بالألباب ما تفعل الخمر»
يعلمنا مشي الطواويس كبرنا وأقبح شيء في خلائقنا الكبر
ونحن كأغصان تميل مع الهوى كأنّ علينا لاتّباعِ الهوى نذر

فهو يتأثر في الوصف والصياغة والتلوين بقصيدة أبي فراس الحمداني، غير أنّه نقل الوصف من غزل وحماس إِلى شكوى وأنين.. وتوجع وتحذير.. وتصوير حالة كانت قبل تحرر واستقلال هذه المنطقة، قبل تخلّص البلاد من نير الاستعمار، وإن كانت ما زالت هناك شوائب ورواسب في بعض النفوس.

وفي فترة البلبلة.. والاضطراب السياسي.. كانت البلاد تتوجه نحو الشرق وها هو الشارف يقول:

ولولا تأسينا بمصر ونيلها وجامعها الأعلى لضاق بنا الصدر
إذا ما أفضنا في حديث ممتع فأول ما يغشى مسامعنا مصر
أبى الله إلا أن يبين أنها كنانته في أرضه ولها الفخر
يحسّ بآلام العروبة شعبها ويوجعها ألا يكون لها أمر
نحب من الأقطار كل شقيقة لمصر، ومن في مصر، يا حبذا القطر

وكيف كانت مصر!؟

وكيف حالها!

والإنجليز يسيطرون.. والاستعمار في أرضها والرجعية تضرب بيد من حديد.. والمعاهدة البريطانية شر وبال.

إن الشاعر يوضح تلك الحالة ويشير إِلى الأزمة المستفحلة بين مصر والإنجليز.

ويعيش الشاعر في فترات التطورات السياسيّة في تلك الآونة ويبكي أمر مصر، وأزمات وادي النيل.

فهو مواطن عربي يحس بآلام كل شبر في أرض العرب!

وكان من الخطب أنها حليفة شعب تحت سيطرته البحر..

إنها بريطانيا سيدة البحار، سابقاً.

الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، سابقاً.

وهذه «الحليفة» الماكرة في سياستها يشير إليها «الشّارف» بأنّها:

صديق إذا وافى بعهدِ صداقةٍ ... وكلٌ إلى عهد الصداقة مضطر
ونحن بنو أرض العروبة لم يزل ... «لنا الصدر دون العالمين أَو القبر»
فلا زال دين الله يربط بيننا ... روابط لا يقوى على فصمها الدهر
لنا لغة لا ينكر الناس فضلها ... تنافس في تلوينها النظم والنثر
لزاماً علينا ردّ ما كان فائتاً ... وليس لنا في ترك ما فاتنا عذر
وما كل شيء فات مثل زجاجة ... إذا انكسرت لا يستطاع لها جبر

إنه يغلّب جانب الأمل والتفاؤل.

غير أننا نلاحظ عبارته في: صديق إذا وافى إلخ..

يبدو أنه نظمها معتقداً أن هناك أملاً في بريطانيا، مع أن الأحداث أثبتت أنها معتدية.. ولكن لما ذاقه من ظلم إيطاليا حاول أن يغلب جانب التفاؤل في ناحية أخرى!

* * *

أنا العربي في وطني وأهلي

كان الشاعر ينادي في قومه بالجهاد أيام الحركات الوطنية والمقاومة.

ثم عندما اتسع مجال القول، وحانت الفرصة، قال فكان صريحاً.. وعبّر فكان صادقاً، وألهب فكان مخلصاً.

وقد كثرت قصائده ذات المسحة العربية، والوتر العربي في أيام الاحتلال البريطاني ـ عهد الإدارة الإنكليزية المؤقتة ـ وبمقدار ما سكت في عهد الطليان، نطق أو خرج من صمته ـ في هذا المجال ـ في عهد الإنجليز، هذه حقيقة واضحة، فقد شعر بأن الفرصة مواتية للمطالبة بالحرية.

وكان صاحب كتمان، ولكنه لم يستطع الكتمان الطويل ففاض وأجاد وهو يفتخر بأنه عربي أصلاً ونسباً. وإن كنا نرى ونؤمن بأن العروبة إحساس ومشاعر لا مجرد نسب وحسب.. ودم فقط.. أو قحطانية وعدنانية.

فقد يكون الإنسان عربياً.. الجد وجد الأجداد، ولكنه يسيء إلى مصالح العرب وقضاياهم.

وقد يكون قريب النّسب من الشعب العربي، ومع هذا فهو حريص على مطالبهم.. له سهم في الكفاح والنضال. فليس في مفهوم العروبة ومطلبها دم أزرق أو دم خاص إنما هي مشاعر وأهداف وحضارة وقِيم..

قد يكون هذا من الأمر الواضح، ولكن المشاعر ـ هنا ـ متأثرة بطريق

مباشر أَو غير مباشر بأسلوب المفاخرة والمباهاة لأنه في منطلقه أقرب ما يكون إِلى أسلوب الخطابة.

والشاعر قد يتخذ شعره أحياناً نغمة الخطابة وصبغتها.

إنما هو من الشعر الخطابي، وهذه أيضاً قضية أخرى تتفرّع من قضايا. أيهما أوقع يا ترى؟

شعر الهمس.. مثل أغرودات علي محمود طه، وأنشودات إيليا أبو ماضي وترنمات الأخطل الصغير، أم شعر الخطابة، مثل أصحاب العواطف الثائرة الغاضبة.. ومخاطبات الجماهير؟

لا نستطيع أن ندلي بجواب فيه كل الدقّة في التحديد بالمليمتر.

بل إن شعر الهمس قد يجدي وفنّه يؤثّر في الوصف الغزلي والحنان ووصف المشاعر المرهفة.

شعر قد نشم فيه زهراً.. ونسمع فيه نغماً.

ونلمح فيه رقصة، وقد يشع فيه كأس، وقد يتبلور فيه وجدانات وتترقرق فيه أغنيات.

همس عاشق.

أما مطالب الشعوب، ولا سيما في فترات التحمس وفترات القلق النفسي، فإن سوق الشعر الخطابي قد تكون أكثر رواجاً، وأكثر إنتاجاً، وألصق بفكر الجماهير.

الجماهير في أيام المطالبة بحقوقها تريد حناجر هتّافة أكثر منها همسات ولمسات شاعرة! تتجاوب الجماهير مع الشعر الخطابي.. دون الشعر الهامس أَو الشعر الرمزي السائر على مهل في ثوب حريري.

ونحن في موطن الدراسة والنقد أَو في ميزان التقدير والتقويم لا نستطيع

أن نجحد أَو نبخس شعر الهمس والرقة والديباجة المتأنقة أَو الجناح المرف أَو المحلق.

لا نبخس هذا.. فإن الذهب المنقوش له أيضاً سوقه وثمنه وله هواته وصناعه!

ولكن قد تكون النفوس الذهبية غير مجدية في بعض الأحايين، فالشاعر «أَحمد الشَّارف» في قصائده ـ هذه ـ كان يكثر من الخطابات، وهو فن يحتاج إِلى نوع من الانتفاضات والمميزات.

فالشاعر «رفيق المهداوي» كان مبدعاً في مخاطبته:

حرّك لعلّك توقظ النوّاما.

وذلك أن الفترة كانت تقتضي هذا التحريك فجاءت العبارة مطابقة وملائمة.

ها هو «أَحمد الشَّارف» في حفل من حفلات السياسة قبل إعلان استقلال ليبيا يقول:

أقول ولم أدع لسواي قولاً ولا لمعارض أبداً يدان

أنا العربي في وطني وأهلي إذا افتخر الورى نسبي كفاني

رجال في الرسوخ فأسد غاب إذا وثبوا بميدان الطعان

أنا العربي في وطني وأهلي.

شطرة لها وقع.. لا سيما أن البلاد كانت محكومة بالإدارة الإنجليزية.

فيها مطالبة بالاعتزاز والإيمان بالوطن.

ويلاحظ القارىء أَو المستمع عبارات ـ أسود.. غاب.. طعان.

عبارات ـ على ما يبدو ـ وهي عالقة من التصوّرات للميدان في العصر

القديم، تشبيهات تنزلق في أسلوب الشعراء، ولو في عصر الطيارة والذرة والصاروخ!

ما لك يا شاعر تكلمت!؟

أما سكت طويلاً؟

كيف خرجت من عزلتك ـ لقد زعموا ـ بعد سكوتك الطويل، أنّك قد طلّقت الشعر، وهجرت القول وكاد الناس أن ينسوا أَحمد الشّارف وشعره. .

ما الذي هزّك حتى تخرج للجماهير من جديد؟

إنه سؤال قد خطر على البال، بل سرت به ألسنة. . وتناقلته شفاه، وهو يدرك مثل هذه التساؤلات. . فيعد الجواب. . ويترك الحال ومقتضى الحال يعبّر وبيانه أفصح:

وكنت حليف كتمان ولكن لسان الحال أبلغ من بيان

ثم هو حنون عطوف على وطنه غيور على أهدافه، وقد تناقلت الأخبار وتطورات الأحداث لشعب عريق ذي مآثر ومؤثرات، فماذا هناك!؟

إليك صحائف الأخبار جاءت موشحة بآثار حسان

سيحفظها لك التاريخ حفظاً ويكتبها عليك المشرقان

ولما أن رآك بها وحيداً تمنّى أن يكون إليك ثاني

* * *

إنّه وطن وحيد. . أيقصد وحدة اليتيم؟ أم تراه يقصد وحدة التميز في القيمة!؟ حتى تمنّى الزمان أن يكون له صنواً.

أقرب الظن أَو أكيده أنه وحيد في القيمة، فالشاعر في موطن الحماس، والوطن غالٍ لديه، وهو متفانٍ فيه وفي حبه له.

والغالي يراه المفتنّ الواله وحيداً.

إنها عين الرضا. . وهل مثل عيون الشعراء رضا إن أرادوا؟

وهل مثل عيونهم سخطاً إن ثاروا وهاجوا!؟

هي نظرة من عين شاعر موله بوطنه، يراه وحيداً في القيمة.

ولكن ما الذي يدور في المسرح السياسي؟

حزازات ومناقشات تصل إلى حد العنف والتناحر.

هناك أدواء خطرة من ألوان السفاسف والمطامع والغدر والخوف.

أدواء نفسية خطرة على مستقبل الوطن الحبيب الوحيد.

ثم ينظر الشاعر بمنظار رجل الدين، ويرى في دنيا الناس خرقاً لأمور الشريعة. . وتعدياً على حدود الله، فيلبس مسوح الوعاظ، ولا عيب، ولا قفزة بعيدة، فهو صاحب عمامة وقفطان، وحامل لكتاب الله، وقاض من قضاة الشرع، فتسوؤه حالة الإهمال للشعائر الدينيّة. . ويمتعض فيلجأ لأسلوب الشعر الوعظي، الأسلوب الخطابي، بعد أن ينظر بمنظار السياسي، ويجس الأدواء النفسية في الكيان الاجتماعي. كل ذا محاولة الجس، ومحاولة الإثارة، في إطار الإحساس الوطني، وبدافع الإشفاق على الوطن الذي يراه وحيداً، لا تناقض في تصويره لوطنه فالوطن شيء عزيز، قد يتفانى فيه المرء ويناجيه، وفي لحظات وحالات، إذا اقتضى الأمر، قد يعاتبه ويسبّه ويحذره من عيوبه.

وهل هناك عزيز لا عيب فيه، ولا نقص به؟

إن البحث عن الكمال وتلافي النقص ودرئه قد يدفعك إلى إبانة النقص وإيضاح العيوب! وها هو الشّارف يصارحنا:

وممـا زاد فـي الـوطـن اسـتـيـاء وإجـحـافـاً وأبـعـد كـل دان

مـعـامـلـة نـفـت ثـقـة وأمـنـاً وأفـضـت لـلـمـذلـة والـهـوان

وأهواء وسفسفة وغدر وخوف بعد إعلان الأمان
وخرق للشريعة وانتهاك لحرمة كل ذي شرف مهان

قد تكون هذه المظاهر من آثار التيارات الأجنبية، حملتها رياح خارجة، وآثار استعمارية وفدت على الوطن العربي.

وهذا الوطن الليبي قد تلاعبت به أهواء.. وعبثت به رياح هوج من جراء السياسة الاستعمارية الأجنبية.

وماذا في مسرح السياسة! إنها لعبة الذئب والحمل.. والطمع في ابتلاع الشعوب:

سياسة أمة لعبت بأخرى مضت عبثاً وما بلغت أماني
وقد ملئت من الشحنا قلوب ومن لي أن أكون بها معان
إذا كان السبيل كما رأينا فحال اليوم والماضي سيان

ولكن.. لا يأس.. لا خوف.. الشعب يقظ والإحساس الوطني متزايد وثورة الحماس للقضية الوطنية، ومطالب الحرية كل يوم تزداد. بل إن الماضي الأسود من الاستعمار البغيض لن يعود للأرض العزيزة.. وشيمة العربي إخلاص وفداء وبذل للنفوس في سبيل الحرية، وخير من الحياة الموت إذا كان الإنسان مهاناً مضاماً!

ولما صرح التثريب فينا وزاد البعد وانقطع التدان
بذلنا في القضية كل غال وأرخصنا النفوس بلا توان
وما سفك الدماء لنا بخير ولا الشحنا بأمر مستهان
ولكن شيمة العربي تقضي بعزّ النفس أو قرع السنان
فخير من حياة المرء موت إذا ما عاش في وطن مهان

ومن مجموعة قصائد الشَّارف نقدم للقارىء قصيدة سهلة الإيقاع. . حلوة النغم، متسقة، تعد من القطع الأَدبية السهلة الحفظ، والرواية. . وبالتالي في القراءة والإنصات، فيها تصوير لحب الشاعر لوطنه. . واعتزازه بأصله وعروبته، وبها حنين إلى ما مر من شبابه وذكرياته.

ويبدو من خلال هذه القصيدة محبًا قد أدنفه الحب، وأتعبته تباريحه. حب بني قومه. . تقديس العروبة.

ومهجة الشاعر مضطربة يصورها كغليان الماء فوق اللهب.

وهذا تشبيه يعجبه، ولهج به، وردَّده في شعره أكثر من مرة.

إنه يعاني من الهوى ما يعاني ـ ولولا هوى بني قومه لما أصابه قلق واضطرام ـ وقلبه يصاحبه، وتلازمه هذه المعاني، من ضيق، وقلق ملازمة أشبه ما تكون بصحبة المرضى وأشباههم، إن صحبتهم تتعبه.

في قلبه معان وصور من الحنان الممزوج بالتعذيب والقلق.

ولا غاية للشاعر ولا طلب إِلاَّ الرضا.

وهل يطلب العشاق وأهل الهوى غير الرضا طلباً، غاية الغايات وأمنية الأماني.

ثم يترك الشاعر الحديث عن نفسه وأحواله ويحدِّثنا عن هؤلاء الذين كانوا سبباً في بعث لوعاته، وتحريك مشاعره.

ما صفاتهم، إنهم ذوو آثار لو أتيحت لها يوماً أن تسطر وتنقش لكتبت بماء الذهب.

وهذا تشبيه قديم، وعبارة مستعملة في أدب القدامى.

تكاد أن تكون كتشبيه الحبيب بالقمر، أَو الغزال.

آثار كتبت بماء الذهب.. لأنها منبثقة من مواهب وملكات فيها شرف النفس، وفضل الأَدب. ويغرق الشاعر في التشبيه ليقرب إِلى الأذهان صورة من هذه الملكات والمآثر:

جلست بالرفق في حجر العلا كجلوس الطفل في حجر الأب

ولكن أيقصد الشاعر بجلوس الطفل في حجر الأب بمعنى الأَدب والخشوع للأطفال المؤدبين المتعودين على احترام آبائهم.. أم مثل الأطفال الأشقياء العفاريت الذين يملأون البيت زعيقاً وقد يزأطون ويشدون شعر آبائهم.. أم يقصد جلوس الأطفال في حجر آبائهم كناية عن شدة اللصوق والحنان والملازمة؟. فاتنا أن نسأل الشاعر.. ولكن هل لا بد من تفهم الشعر.. بسؤال الشاعر نفسه!؟

هب أننا لم نره في حياته، أليس الشعر كأداة تعبير يوجد في مضمونه معناه!

ولعل الشاعر ـ هنا ـ يتحدَّث عن الأَدب بمعنى الخلق والتعوّد والجبلة والطباع وشرف النفس، فصوَّر أدب التواضع وأدب الوقار والاحترام، فإن هذه الحالة.. أَو الذكريات من أخلاق قومه التي بها يفتخر ويعتز.. وإليها ينتسب كانت من عوامل حبه واندفاعه واضطرابه.

تلك المآثر والآثار إن ذكرها وتصورها اليوم تثير لديه الأشجان وتحرّك في نفسه الذكريات.. إنها بواعث للوعات وحرقات!

تثير عبرة المنتحب الباكي الذي هزَّه الألم.

بل إنها حالة عجب ـ هذا الانتقال المفاجىء.

وإن كان حضرات الشعراء من هذه المدرسة عودونا على كثرة الانتقال المفاجىء حتى أن بعضهم يكاد أن يقفز! وبهذا يفقد ميزان التوسط في القضية الواحدة، أَو نجد الهوة أَو شيئاً يشبه الفراغ بين الأبيات المتقاربة.

ويعود بنا الشاعر متنقلاً متنوعاً في تنقلاته الفجائية إِلى مخاطبة الشباب.. ولكن من هم؟

إنه شباب لا يبعث شجناً، ولا يتسبّب في إسالة عبرة المنتحب، بل هو شباب صادق صدوق جريء.

يا شباباً كلما حفّ بهم   طلب جاؤوا بصدق الطلب

فحياهم في لهجة مؤثرة، وعاطفة جيّاشة، وصدق في الأداء.

وقد بلغت القصيدة في هذه الأَبيات ذروة عالية بالنسبة لأبيات سوالف، فالشاعر قد وخطه الشيب، وكلّله وجلّله، ولكن هل درى الشباب أن صاحب هذه الشيبة قد فعلت به تقارير الهوى الأفاعيل حتى بعد شيبه!

ماذا يطلب منه الهوى، أيريد السير مسرعاً، خبباً، بعد أن كاد يعجز عن السير المسرع.

لا غانيات، لا حب، إِلاَّ ما سيصحبه من أوراقه وكتبه.

أين حياته؟ قد غدت سوالف ذكريات من شبابه!

لي حياة ذهبت لذتها   وتوارت بتواري الحقب
وشباب فتك الدهر به   كنت في ريعانه ذا طرب

ولكن ماذا يعوض هذا الذاهب، هل كتبه وأدبه فقط؟

بل إنه يجامله بسبب أن هذا الشباب جزء من أمته وعضو فعّال في مجتمعه، فهو فرح بلقاء الشباب، مبتهج بنهضتهم والإصغاء لأمانيهم، ورغم هذا كله فالشاعر ـ هنا ـ ليس بالنادب على الأطلال والباكي على الديم، والمكتفي بلوعة وحرقة الماضي الذاهب.

بل له أمل يتقد، وحياته تنتعش ووحشته تذهب بماذا؟!.

غيـر أنـي بـلـقـاكـم لا أرى   وحـشـة الـبـائـس والـمـغـتـرب

أرأيت أنه ليس بائساً.. كلا ولا هو بالغريب في عصره.. رغم تقدّم العمر به.. وزحف الشيب في رأسه.

ويعود إلى تصوير اعتزازه بقومه، وافتخاره بعروبته، والتغنّي بمآثر الشعب العربي، مستنداً ـ كعادته ـ في اعتزازه وافتخاره، بكرم وأصل العرق العربي، ودمه النقي، وإحساسه الطاهر.

وهو يتأثّر بالشاعر «مهيار الديلمي»، غير أن مهيار اعتزّ بالفرس وافتخر بكسرى، واعتز بالدِّين الإسلامي والرَّسول محمّد صلوات الله وسلامه عليه.

وأَحمد الشَّارف يعتز اعتزازاً مزدوجاً بالإسلام والنبيّ العربي فعنده العروبة والإسلام معدنين للاعتزاز.

ولنقدم للقارىء القصيدة كاملة تكشف عن نفسها في غير بهرج ولا براقش.

عـرب الـحـي وحـي الـعـرب   مـظـهـر الـجـد ومـأوى الـحـسـب
أنـا مـن حـبـكـمـو فـي تـعـب   لـيـتـنـي أجـنـي ثـمـار الـتـعـب
هـذه الـمـهـجـة مـنـي اضـطـرمـت   كـاضـطـرام الـمـاء فـوق الـلـهـب

لا أرى لولا هواكم لا أرى   في معاناة الجوى من سبب
لي فؤاد لم يزل يصحبكم   صحبة المرضي والمنتخب
إن يكن لي في حياتي أرب   لم يكن إلاَّ رضاكم أربي
ليتها آثاركم إذ كتبت   كتبت يوماً بماء الذهب
ملكات لم تقع إِلاَّ على   شرف النفس وفضل الأَدب
جلست بالرفق في حجر العلا   كجلوس الطفل في حجر الأب
إن ذكرناها أطالت شجناً   وأثارت عبرة المنتحب

* * *

يا شباباً كلما حفّ بهم   طلب جاؤوا بصدق الطلب
هل علمتم من تقارير الهوى   بعد وخط الشيب ما يصنع بي
هل يريد السير مني خبباً   بعد ما أصبح دون الخبب
هل ترى لي حسناً أصحبه   غير ما أصحبه من كتبي
لي حياة ذهبت لذتها   وتوارت بتواري الحقب
وشباب فتك الدهر به   كنت في ريعانه ذا طرب
غير أني بلقاكم لا أرى   وحشة البائس والمغترب
همكم إن كان في نيل العلا   ليس في همكمو من عجب
أمة عادت إِلى معدنها   كرم الأصل وعرق الأَدب
إن يكن قوم بفضل فخروا   فلنا الفخر بذياك النبي

* * *

عروبة واعتزاز

في أكثر من موضع ومناسبة يفتخر الشاعر بأنه مواطن عربي.

ويعتز بالانتساب إلى العروبة.

وقد عاصر «أَحمد الشَّارف» في حياته الطويلة أحداثاً جساماً مرّت بها أمة العرب.. وهو كأديب معاصر وشاعر مواطن صوّر هذه الهزّات بتألّم، وتأثّر، وصاغ الألم قصيدة فيها نبرات وعبرات.

يلاحظ المتأمّل لقصائده في هذا الميدان أنّه قد يفتخر بالعرب على نمط شعراء الفخر.

نظم في حوادث سياسية.. تكلم عن النيل والفرات والخضراء والمغرب وأرض الحجاز وبلاد الشام.

وفي قصيدة تناثرت عبارات قحطان، وعدنان، وأرومة، وأصل، فهو من هذه الناحية يعد من الشعراء المفتخرين بالأرومة والعرق، ومن ناحية أخرى يرى العروبة إحساساً، ونبضاً في المشاعر ورسماً للأهداف، ووحدة في الاتجاه!

والاعتزاز بالجنس، والعرق، والدم شيء ما كان الشاعر يستطيع الابتعاد عنه. فهو من المتأثّرين ثقافياً وعاطفياً بشعراء الفخر والحماس وهذا الصنف من الشعراء يلاحظ الدارسون لهم أن الجنس والعرق في صرخات شعرهم وهتاف مجدهم عمادهم في الغالب ومرتكز إحساسهم.

جنس، أي أصل، وعرق، ودم، وأرومة.

وقد يلوم بعض من النقّاد المنهجيين أن الشاعر لم يهتم كثيراً أَو يضغط كثيراً على ناحية أهم. . لم يصور العروبة هدفاً، ومطلباً، وقضية. . لا مواطن للملام فهو في شعره، في عديد من المناسبات لم يترك الهدف العربي وأنشودة العرب وقضاياهم.

فنراه ونحس به في قصائده، يستصرخ من الظلم، ويهاجم الاستعمار ويحثّ على المطالبة بالحرية. . ويتحدّث عن حياة الشعب المناضل ويسجّل أحداثه. . يئن في موضع الأنين، ويحنّ في موضع الحنين. وقبل أن يصوِّر هذا نراه يلجأ إِلى بعث النخوة والاعتزاز.

وهل يمكن ـ بالأسلوب الشعري ـ الوصول للأهداف أَو رسم الأهداف وتوضيح الأنشودة، إِلاً بالحثّ وإلهاب العزيمة!

وهذه النبرة العاطفية سلاح هام في المعركة.

وهذا الوتر الحسَّاس الهزّاز، شيء ضروري في معازف المطالبة بالحق.

نبرة العاطفة، ونغمة الإلهاب.

الاعتزاز يولد الثقة بالنفس فيدفع هذا إِلى تحطيم القيود والثورة عليها عندما تقول. . كنا، وكانت أصولنا، معناها في ترجمة الحسّ ولغة الإحساس، لا يليق أن نترك الماضي الناصع، وأن نرضى بواقع ذلّ مرير أَو استعمار صفيق، أَو بؤس مميت.

هذا ما صنعه الشعراء عندما كانوا يفتخرون بالعروبة.

والضغط كان على جرس الأرومة والأصل يطرقون بابه. . ويلهجون في لهجة حارة بالنسب، والماضي الرائع والتاريخ المنير.

فترى وتسمع مثلاً «أَحمد الشَّارف» يستحث الجماهير العربية وينفخ في

هذا البوق، أَو هذا الناي. ينفخ في روح الشعب العربي هاتفاً، يدفعه صدق الإحساس وحرارة الحماس والإخلاص قائلاً:

لنا من بني قحطان أشرف ذمة يباهي بها يوم التفاخر قحطان
نقابل بالحسنى ولسنا بمعشر إذا نصحوا غشّوا وإن عاهدوا خانوا
ونحن الألى فيهم بغرة هاشم تردّد جبريل وأنزل قرآن
أجلّ بني الغبراء فضلاً ومنّة وأعظمهم شأناً إذا عظم الشان

وهو هنا يلمز الاستعمار، ويشير بطريق آخر إِلى خلق الغرب، إِلى المستعمر عندما يغش في نصحه، ويخون في عهده، ويقابل بين ماضي العرب المشرق، ويعتز بأخلاق العروبة الكريمة:

حيوا بني وطني من أمة العرب تمثلت فيهمو روح من الأَدب
دعاهمُ الوطن الغالي فما بخلوا وأبخل الناس من يُدعى ولم يجب

* * *

من روائع قصائده، وبدائع هتافه، وبلاغة أدائه.. تلك القصيدة التي صوّر فيها الشاعر حالة من حالات الشعب العربي في الآونة القلقة التي مرّ بها.

حيرة واضطراب، وبلبلة في الأفكار، واقتناص لآراء غريبة عن محيطه.

هكذا كان المجتمع.

مع أن البحث عن العلاج والدواء في القريب المتناول.

أَوَ نبيت على ظمأ ـ ونهيم عطاشى، حيارى، ونحن على منهل!

حيارى، ولدينا موقد النور ومبعث إشعاعه!؟

فالشاعر في هذه القصيدة يرى أن علاج المشاكل يجب أن يكون من الداخل لا من الخارج.

فلدينا المقومات، ونحن نمتلك ثروة من الإمكانيات المادية والروحية. فالشخصية العربية يجب أن تكون ذات طابع مميز أصيل، فلا داعي للحيرة، ولا موجب للقلق والشك ولأمثال هذه العوامل التي تهدم نفسية الأمة العربية وتزعزع روحها.

ويجول بنا الشاعر في صراحة، ويضع أصبعنا على مكان الأدواء والمزالق الخطرة، ويشير إِلى الأخطاء والمهالك.

الخلاف الذي قاست منه شعوب العرب الويل المرير على مختلف مراحل

التاريخ، تاريخ الاستعمار، وتاريخ غير الاستعمار. حتى غدا الخلاف فرصة ينتهزها الأجنبي الدخيل، وأصبح سلاحاً في يد العدو. ثم هناك ما هو أشد من الخلاف.. الجهل الذي يفتك بنا، الجهل في شتى صوره. حتى زعموا، وأطلقوا علينا في قاموسهم السياسي والاقتصادي هذا التعبير المشين: الشعوب المتأخّرة.

واتخذ الاستعمار الدخيل هذا الجهل وسيلة وذريعة، جعلوه دليلاً على انحطاط العرب وتأخّر بلدانهم.

فهم في نظر الاستعمار جهلاء، قُصّر، يحتاجون إلى وصاية، وحماية، وانتداب، ووضع اليد عليهم وامتلاك ثروات بلادهم.

ثم هناك بجانب الخلاف والجهل، ظاهرة الإهمال، عدم الإسراع إلى معالجة المشاكل، عدم التحسس لأدوائنا ودراسة الحقائق والوقائع.

هذا الإهمال يجمد الوعي، ثم بالتالي يبعث على التفريط فهو جناية مضاعفة وهذا يدفع إلى السكوت!

السكوت عن مطالب الإصلاح.. وحق الشعوب في التحرر والخلاص.

وكيف ترضى العروبة أن يكون شعبها مهملاً.. تافهاً.. ضائعاً في بيداء الجهالة والإهمال؟

كيف ترضى أن تصبح وتمسي في رحاب الاستعمار ضائعة!؟

أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

وإننا في حاجة ماسّة إلى رأي الشيوخ.. إلى الحنكة والتجربة والخبرة والدراسة، فإن قصر الشيوخ ولم يقم هؤلاء بهذا الدور.. ولم يتحرّكوا لدفع الأخطار ودرئها.. فإن الدور للشباب. الشباب بوثوبه وتحرّره!

ونحن شعب مسالم ـ ولكن إذا كان حقنا ضائعاً، وثروتنا منهوبة، مسلوبة، ومناطقنا محتلة، فأي سلام هذا؟

الشاعر يدعو للسَّلام، ولكن إذا كان هذا السلام ينأى عنا.. وليس في صالحنا لأنه استعمل لضياعنا.. فلتكن المطالبة بالحق، فالحرب، أَو الكفاح والجهاد!

هذه المعاني، وتلك الحقائق يشير إليها الشاعر في قصيدة ليسهم في تنمية الوعي، وتحريك الهمم، وتحفيز الشباب.

وهو يشير إِلى رسالة الكتاب الكريم، والسنّة الصحيحة التي بها كل خير وتدفع إِلى كل فضيلة.

عجب أن ننسى هذا.

بتنا على ظمأ وفينا المنهل ... وحي النبوة والكتاب المنزل
والداء منا والطبيب أمامنا ... يصف الدواء لنا، ونحن نعطل
والخلف أصبح من سلاح عدونا ... وبه يؤسّر من يشاء ويقتل
والجهل من أقوى أدلة خصمنا ... ماذا يكون جوابنا إذ نسأل
ماذا يكون جوابنا الكافي إذا ... أدلى بحجته على من يهمل
ونتيجة الإهمال ظاهرة لنا ... كالشمس واضحة لمن يتأمّل
مضت السنون ونحن نعلم ما مضى ... منا وما كنا به نتحمّل
فسكوتنا كسكوت من فقد الحجا ... وخمولنا كخمول من لا يعقل
تأبى العروبة أن يكون لشعبها ... وطن يقاس به اليتيم المهمل
إن لم يكن رأي الشيوخ بدافع ... عنا الردى فشبابنا المستقبل
إنا نميل إِلى السَّلام فمن يمل ... عنا، فنحن لكل حرب أميل

ثم يتجه الشاعر إلى مخاطبة العرب ويدعو إلى إحكام وتوثيق الروابط بينهم وتقوية هذه الأواصر التي سجّلها التاريخ ويشهد بعظمتها الزمان.

ومن يقوم بهذه المهمة؟!

على أي عاتق تلقى مسؤولية هذه الرسالة؟

إن الروابط بين أمة العرب سيقوم بتوثيقها أهل العلم، وهي رسالة أهل الأَدب والفن.

يساهم فيها الخطيب بحماسه، والشاعر بهتافه وأغانيه.

بل إن الفن ـ بمفهومه العام ـ له سهم فعّال في هذا المجال!

وذلك الميدان الإنشائي أو عوامل البناء والنهوض.. يرى الشاعر أن مسؤولية الوعي والإلهاب واليقظة القومية ـ بجانب الخطباء والكتّاب ـ يقوم بها ويسهم فيها أيضاً المصوّرون والممثّلون.. أي تشترك في معركة الوعي وتنمية المنتديات والصحافة والمسرح.

وهذه الالتفاتة في قصيدة ـ أَحمد الشّارف ـ تدلّنا على تقدير الشاعر الليبي لمهمة الفن، ورسالة أهل الفن.

فليس التصوير والتمثيل شيئاً إضافياً كمالياً، بل هو شيء هام في ميدان الوعي ومعركة التحرّر، معركة بثّ الوعي.

والدعوة إلى تقوية الروابط تتطلّب همماً عالية، وإرادة صلبة وعزيمة متقدة، وإيماناً إيجابياً لا سلبياً. ولا يكون غريباً أن تنبثق هذه الإرادة من أمة العرب، وتظهر فيهم دلائل العزم والإيمان، فقد كان لهم ماضٍ مجيد، وتاريخ حافل، وحضارة، وهمّة العرب في سابق مجدهم برهنت هذه الحيوية ودلّتهم على المكان اللائق بهم.

والشاعر في قصيدته هذه أشار إلى الأمراض الاجتماعية والهزّات

والانتكاسات التي تعرّض لها الشعب العربي من الخلاف، والجهل، والحيرة، والضياع، فهو لا يكتفي بسرد الأدواء، بل يبحث عن العلاج، والأسلحة التي تقاوم بها في المعركة.

إذاً هو في قصيدته ليس في موقف خطباء المنابر المندّدين في عصور التدهور، يأس، وسخط، وتشاؤم بل هو ـ هنا ـ شاعر بفكر ثاقب، وإحساس مركّز.

فيشير بجانب هذا إلى طريق الخلاص.. الوسائل المعنوية، التعبئة العامة، شحذ الهمم، التربية القومية.

وكم هو رائع في الإشادة بالدور الذي يقوم به «الشعور» والشوق والصبر.. كل هذه وسائل تذلّل كل صعب، وتهدم كل سور وتزيل كل عقبة، وتحقّق كل هدف، وتحيي كل شعب!

هناك أيضاً الإرادة القوية وصدق العزيمة وتهيئة النفس لأهدافها.

وهكذا يستعرض الشاعر «أَحمد الشَّارف» هذه الحقائق في صورة قيّمة، مما يدل على أنّه من أدباء الواقعية، لا أدباء البهرج والتحليق الخيالي.

إليك مما رسم الشاعر هذه الصورة الوضّاءة:

يا أيها العرب الكرام ومن لهم   شرف العروبة والمقام الأكمل
إن الروابط بينكم سيرى لها   أثراً يسجله الزمان المقبل
أثر مدى الأيام ينشر ذكره   ويذاع في كل البلاد وينقل
يقف الخطيب به ويهتف شاعر   ويقوم فيه مصور وممثل
وسوابق الهمم الكبار تريكمو   أين المقام لكم وأين المنزل
همم تسير بكم لرفع المستوى   وإِلى الأمام خطاكمو تتنقل

والشوق ينمو والشعور يحثكم والصبر يعظم، والصعاب تذلّل

وإرادة قويت وصدق عزيمة تتعلّقان بمن يقول ويفعل

والنفس إن نهضت بما في وسعها برئت من التقصير فيما يحصل

وبعد أن يستعرض الشاعر هذه المعاني بحماس وصراحة، نراه يعود مرة أخرى إلى ذكر الاتحاد والدعوة له، لأن الاتحاد هو أساس لكل نهضة وعليه المعول.

والعاطفة الدينية لها أثر في الشاعر وشعره، فهو يشير إلى الإسلام وأثره في النفوس وتهذيب الطبائع، ويمتدح آثار الدين الإسلامي ونور النبوة، ويحارب الإلحاد والزيغ والزندقة وعوامل الانحراف التي تحاول فئة أن تبثّها في صفوف الأمة، والتي أغراهم الخيال وسوّلت لهم نفوسهم أنّها بضاعة نافعة، حتى غفلوا عن الحقيقة وواقع الأمّة.

والشاعر يدعو إلى النظام ويحذّر من جهل البصيرة، ثم تراه في آخر القصيدة متفائلاً.. آملاً.. فقد لاحت بوارق نهضة.. وظهرت بشائر تقدّم.. هناك رجاء وتفاؤل.

والشاعر يتوق إلى اليوم الذي يصبح فيه الفرد مطمئناً في مجتمع كريم فاضل.

هل بعد هذا، بعد أن نرى مثل هذه المعاني تصوّر، بعد أن يقدّم لها الشاعر مثل هذه النماذج من القصائد الحية يزعم البعض أن الشاعر هروبي، لم يشارك في معركة الشعب.. وفي البحث عن قضايا الشعب؟

وإذا أراد القوم حمل سلاحهم فالاتحاد هو السّلاح الأول

والاتحاد أساس كل مهمة وعليه في كل الأمور يعوّل

وسعادة الإسلام في الدِّين الذي للخلق بلَّغه النبي المرسل
آياته في الخلق واسعة المدى وبنوره نور الهدى يتهلل
حدثت عناصر أمة تبغي به بدلاً ودين اللّه لا يتبدّل
وسعوا إلى ترويج صحة ما ادعوا بخيالهم وعن الحقيقة غُفِلوا
والناس إن فقدوا نظام حياتهم غلب الفساد وأظلم المستقبل
غطى على نور البصيرة جهلهم أو فرصة سنحت لهم فتململوا
واليوم قد لاحت بوارق نهضة ولنا الرجاء بأنها لا تفشل
يمسي ويصبح كل فرد مفلح كل الفلاح وبالنجاح يكلَّل

وهذه قصيدة تقارب الثلاثين بيتاً فيها وصف لحالة وطنه واعتزازه به، ووصف ما يلاقيه من مضايقات، وعرج على حديث الوطن العربي، وحذّر من الوشاية بالأفراد والجماعات.

وهو يرى أن الآفات الاجتماعية تضر بكيان الوطن والتكوين الاجتماعي ويحذّر من الشقاق وآفاته التي أهلكت إمبراطوريات وضيعت خاقان الأتراك.

ويخاطب أمة الحرمين، أمة العرب، يستحثّها على النهضة والحمية. وشأن الشاعر في مثل مواقفه هذه يحذّر من الانزلاق والابتعاد عن قِيَم الدِّين ومُثُله.

وما الذي أضر بأفريقيا والمغرب وأضرّ شعوب هذه القارة.. إنه الاستعمار.

إنّه وطني واع، وشاعر صادق الشعور، يرى أن الجهل والإهمال آفة الآفات في تأخّر الشعوب.

لا بدّ من نهضة.. بالدِّين.. والمُثُل. والحذر من سياسة الاستعمار المبنية على التفريق.

والحوادث التي عانت منها بلاد العرب يجب أن تكون ناقوساً ينبه، والإغراق في الشهوات دافع إِلى فقد الشعور.. فحذار.

إن المرء يذهب ولا يترك من ورائه أثراً يبقى إِلاَّ ما يسجله التاريخ من حسنات:

وطني هو الوطن العزيز أحبه ويحبني لولا حديث وشاته
لم أنج يوماً من عقارب أرضه أَو من زنابره ومن حيّاته
ولطالما اضطربت سياسة أُمة بوشاية الواشي ومختلقاته
يلقي الوشاية من خزانة صدره فكأن ما يلقيه من نفثاته
لم يتخذ نسج الكلام ووشيه إِلاّ على منوال مبتغياته
ومن البليّة أن يكون لبثّه ولنشره أثر لمجتمعاته
ليس المصاب بآفة من جنبه مثل المصاب بآفة من ذاته
ورداءة الأخلاق مزرعة الردى وبها يضل المرء عن حاجاته
وإذا نظرت إِلى الشقاق فلم يكن إِلاّ بسعي دهاته ودعاته
وقضية الأتراك في خاقانها تصف الزمان بهول منقلباته
قد أوقدوا نار الوغى فتأججت في مجد أسرته ومجد سراته
يا أمة الحرمين هل من نهضة وحمية تحمي الحمى وحماته
قلتم كما قالوا زمانُ تمدُّنِ والقول منصرف إِلى غاياته
والدين دين الحق ليس لأهله إِلاّ التدبّر في شؤون حياته
أجهلتمو وأظنكم لم تجهلوا ماذا جنى الإسلام من ثمراته
ومن الذي بالرغم أصبح باسطاً يده الأثيمة فوق ممتلكاته
ومن الذي في مصر أصبح لاعباً لعب الكميّ بسيفه وقناته
ومن الذي انتجع العراق ليستقي من ماء دجلته وماء فراته
ومن الذي أودى بأفريقية والمغرب الأقصى بمضطهداته
الجهل أصبح من أدلة خصمكم والترك والإهمال من حجاته

الله يعلم أنكم لن تنجحوا بسوى أوامره ومنهياته
والله يعلم أنكم لن تنهضوا لتدارك المطلوب قبل فواته
حتى تليد بالحوادث جوكم وغدا الشقاق يدور في حلقاته
وانتابكم خطر المفرق بينكم ورسائل التفريق من نزعاته
ومن الحوادث ما يكون منبهاً مَن حَقُّهُ التنبيه من غفلاته
وإذا الفتى فقد الشعور فحظه ونصيبه الإغراق في شهواته
عرب الجزيرة قد تضاءل مجدكم وتنفس الصعداء من نكباته
سيمر جيل إثر جيل بعدكم ويكون من حفاظه ورواته
والمرء ليس بتاركٍ أثراً سوى ما سجّل التاريخ من حسناته.

* * *

هذه قصيدة من طوال ما نظم حوت أربعين بيتاً. . فاضت بالمشاعر والأحاسيس العربية. . فيها حديث غرام. . ولطيف شوق. . وفرط هيام.

جعلت تحية لأرض الحرمين. . مهبط الوحي. . ومنبع العروبة. . تحية للأشاوس.

ثم يستمر الشاعر في جولته ذات الأشواق العربية منعرجاً ومنعطفاً على ذلك المقام. . حيث أنوار الهداية.

ثم إنّها رحلة طائرية. . أَو رحلة القطار. . من يعِرني جناحه لعلي إِلى من قد هويت أطير!

فالشاعر يطير طيرانَ شوق ويخترق الفلاة إِلى وادي النيل، إِلى مصر ثم إِلى بلاد الشام، على جناح شوقه العربي، من غير بساط ريح أَو تذكرة طائرة يحلق في سماء البلاد العربية. . في تصوره هذا وقد نظم قصيدة قبل أن ينظم المبدع الفنان «محمود بيرم» التونسي رائعته «بساط الريح». التي تغنى بها المطرب فريد الأطرش.

وإذا شاهد النيل وبردى، هل يترك الفرات وبلاد العراق، وسلامه يبثه إِلى دار السَّلام؟.

وشأن شعراء الوله والتحنان لو سألوا الصَّبا. . لكان لديه الجواب. . لأن ريح الصَّبا تعرف حديث العشاق، وتدرك علّة وأسقام أهل الشوق.

يبدو أن أسلوب الغزل أثّر في شعراء الصوفية وفلاسفة الوجدانيات.

وها هو الشعر الوطني يتأثر أيضاً بأسلوب الغزل!

فهل يوافق نقاد الشعر على استعمال أسلوب الصَّبا، وعبارات «العلة» و«الأسقام»، والوجد، والعاذل، وظبية الحاجر.. في أسلوب الحماس وبلورة الإحساس الوطني.

ما أظنهم يوافقون على إقحام هذه الأساليب في الوطنيّات.

ولكن هكذا نجد قصيدة من طراز الوطنيات والاعتزاز بالعروبة والشوق يدمجها أَو يستعمل فيها الشاعر مثل هذه الأساليب.

كان هذا نتيجة طيبة لأدب يكثر من دراسة الغزل ومعلقات الغزل، حتى المدائح النبوية بدأها القدامى بالأسلوب الغزلي.

ظاهرة لم يستطع الشاعر أن يتخلّص منها بسهولة..

فهو كلف محب مغرم.

بأي شيء، أيها الشاعر الولهان! لا بظبية حاجر، لا بظبية رام.. بل كل هذا الشغف والغرام بمعاشر العرب!

ولماذا هذا الإعجاب أَو هذا الغرام، إن مبعثه القوة، الفروسية. والفروسية قد تكون موطن إعجاب وتقدير لدى الغادات فتكون حبّاً.. ولدى الشباب فتكون نهجاً وتقليداً، ولدى الشعراء فتكون إلهاباً وحماساً، ولو بأسلوب الشوق الواله.

إنه يعجب، أَو يذوب صبابة بالعرب لأنهم طبعوا على روح الفروسية، وتعوّدوا يوم اللقاء والوغى الكرّ والإقدام.

لهم حسنات، طباع كريمة، ولكن إذا كان هذا العدو المعتدي لا تفيد معه مكارم الأخلاق، وطغى جهل الأعداء، أَو قلّ كما يقصد الشاعر من قصيدته،

إذا طغت عنجهية المستعمر المستبد، فلا حسنات، ولا موضع لها هنا.. بل رجع هؤلاء الأشاوس إلى الآثام.

ويقصد بالآثام ما يعرفه أهل الميادين.

ويرى أن قوة العرب قد تكون هادئة مستكينة كالنَّار حتى إذا هبت بها رياح الشمال زادت في الاضطرام والالتهاب.

وما زالت في ذهن الشاعر صورة للفارس العربي طويل النجاد.. الشهم.. القرم.

لا يغمد سيفه حتى يعود مع الذوائب دامي.

وقد يجحفه التشبيه لتزاحم الصور لديه، وتعجله في التقاط الصورة. تلمس هذا عندما يشبه «قعقعة» الأسنة لدى الفارس العربي.. «بنغمات عود أَو نشيد غرام».

وكلمة قعقعة، أغلب الظن أنّها لا تليق بالأسلوب الشاعري، ولكن الشاعر رضي بها.. لأن زحمة التلوين لديه خيلت له أن ميدان الكر والغزو والسيف تلائمه «القعقعة».

وما أظنها إلاَّ ثقيلة على الأذن هاتان القافان!

لا تعجب كثيراً فقد سبق قبل هذه الأبيات أن زج بالتشبيه الغزلي في موطن الإلهاب والاعتزاز بالوطن:

ما وجد نازحة أضر بها الفراق   وكئيبة فقدت ذوي الأرحام

تبكي، ماذا، لا دموعاً! بل تنشر هذه الوالهة الباكية لؤلؤاً من نرجس ينساب في الورد انسياب الغمام! قديمة، أيها الشاعر تشبيهاتك، ذكرت طلاب البلاغة بالبيت الذي أهلكه «السكاكي» من كثرة الاستعمال والترداد: أمطرت لؤلؤاً من نرجس، وعضت على العناب بالبرد.

هذه الترجمة.. هذه المعاناة والمغالاة في التشبيه يريد أن يصل بها إلى أن الوجد الذي «أناخ» بمهجته، وقضى على صبره وصير نومه أكثر ألماً من فراق هذه الباكية ولوعتها!

كان يستطيع أن يصوّر حالته بأقل من هذا التكلّف أَو العناء في التشبيه، ولكنه أثقل القصيدة بهذا عفو الخاطر وانسابت عن طريق التشفف البلاغي! ورسوب التشبيهات والاستعارات المتوارثة في ذاكرته ومخيلته ثم طفت على سطح لسانه..

وهذه الطباع البطولية، أَو الغرائز الدفاعية، فطرت عليها هذه الأقوام ليبقى العيش غير مضام!

حكمة الطبيعة، وغرائز الذات والدفاع عن المقومات.

وهذه الغرائز أودعت من الطبيعة! فما فضلهم في هذا وأنت في موطن الاعتزاز وإظهار المواهب والمباهاة بها.. لكن مهلاً.. شحذت الأسنة والقنا لدفع الإجرام وصد الاعتداء. وهناك صفات الصبر عندما تشعر النفس بواجب حقّها فتقدم، ويرى أن كمال النفس في الصفات البطولية لا لكبر الأجسام وثقلها، وطيش الأحلام وخفتها لا خير فيه للوطن ثقل الجسوم وخفة الأحلام، كما عبَّر الشَّارف هنا أَو كما عبَّر الشاعر القديم هناك «جسم البغال وأحلام العصافير».

إنما الخير للوطن والخير في المواطنين بالمعرفة مع القوة.

الأسنة إذاً ثقفت، وتنورت بالمعارف عناصر، هنا يفيض الخير، وتعم المواهب وتثمر، أما الإهمال والتقاعس عن الطموح للعلا فمهلكة ويؤدي إلى عدم التنبه للأخطار، وحوادث الأيام.

وأفتك سلاح يضر بالوطن الجهل، أفتك من الطعان ورمي السهام.

وبعد أن يستعرض الشاعر هذه المعاني ويستحث بهذا الأسلوب الخطابي،

ينادي قومه ومعشره متفائلاً، تساءل اللهفان العجلان هل من نهضة.. هل من حمية؟

يبدأ بيته بالنداء ويختمه بالنداء، دليلاً على شدة تلهفه أَو شعوره بالخطر المحدق بقومه.

فهناك دسائس تسري في المجتمع وجد فيها العدو المتربص كل سلاحه فلماذا السكوت وعلام الجمود إزاء الخطر الزاحف؟

أهي غفلة في العقول أم منام؟ والقوم المستعمرون غير نيام ولا غفل.

أم أن فضل الدين ونور اليقين سربلته وساوس الأوهام؟

مع أن الدِّين يحض على الدفاع وقد فرض «الرباط» والمحافظة على البلدان وحماية الثغور لحفظ الأوطان.

فكيف يرضى المواطن الحر أن تكون شيمته التقاعس والإهمال؟

ويؤكّد الشاعر في قصيده أن الخطر في التفرّق وإذا بقوا متفرّقين بغير قيادة حازمة فهذا هو الشقاء بعينه. وبهذا يستريح الأعداء. ويكرّر الشاعر التنبيه على خطر الشقاق والتفرّق في بلاد العرب قائلاً:

عدم اتفاق اثنين أنفع للعدا   من ألف قنبلة وألف حسام

وقد لا يلمس بعض الناس الخطر المحدق بالمجتمع العربي وآثار الشقاق السياسي.. ولكن هذه نظرة ضيقة والدين والوطن في خطر. وليست هذه سعادة عندما تهان الحياة وتداس الأوطان.

ويشتد تألم الشاعر وتبلغ ثورته حدّها عندما يستعرض ما يعانيه قومه من ذل وخذلان.. ورقة جانب وهوان عيش.. وانتهاك للمقام. كل هذا يقصد به الاستعمار في كل بلاد العرب.

هل يرضى بهذا الشأن كريم، ومواطن حر عزيز؟

وهذا شأن شعراء هذه المدرسة يخاطب صاحبه على أسلوب التجريد:

يا صاحبيّ ترفقا وقفا بنا نبكي الديار كما بكى ابن خزام
من لم يكن لمصيبة يبكي دماً فليبكه لمصيبة الإسلام

ولكن هل يفيد البكاء شيئاً سواء كان بالدم أَو غير الدم؟

هل البكاء علاج يشفي، ووسيلة تنقذ؟

إن استعراض الأمراض والحالات التي تعرض لها الشعب قد يفيد من ناحية الاطلاع على الحقيقة ودراسة الواقع المر.

وإن الدعوة إِلى التسلّح الخلقي والعلمي والاعتزاز بالوطن والبحث عن مصادر القوة.. كل هذا من وسائل التربية الوطنية المفيدة.

والشاعر قد أوضح شيئاً من هذا في أكثر من موضع من قصيدته، ولم يكن سلبياً ولا مجرد صارخ..

في الواقع إن قصيدته هذه من أنواع الشعر المعبّر والصرخات الواعية:

من مبلغ عني حديث غرامي ولطيف أشواقي وفرط هيامي
يلقي على الحرمين خير تحية ويبثها لأشاوس الأقوام
ويمر منعرجاً ومنعطفاً على ذاك المقام وفوق كل مقام
ويعود بالأشواق يخترق الفلا لبلاد مصر أَو بلاد الشام
ويحث منها للعراق نزوعه ويبث في دار السَّلام سلامي
لو أنهم سألوا الصَّبا لأجابهم فهو الخبير بعلّتي وسقامي

ودليل وجدي رد شبهة عاذلي فيهم وأسقط شبهة اللوام
ما وجد نازحة أضر بها النوى وكئيبة فقدت ذوي الأرحام
تبكي فتنثر لؤلؤاً من نرجس ينساب في الورد انسياب غمام
بأضر من وجد أناخ بمهجتي وقضى على صبري وطيب منامي
كلفي، ولكن لا بظبية حاجر شغفي، ولكن لا بظبية رام
بمعاشر العرب الذين تعوّدوا يوم الوغى بالكر والإقدام
وإذا طغى جهل العدو ولم تفد حسناتهم رجعوا إلى الآثام
كالنار خامدة وإن لعبت بها ريح الشمال تزيد حر ضرام
من كل قرم ليس يغمد سيفه حتى يعود مع الذوائب دامي
وكأن قعقعة الأسنة عنده نغمات عود أو نشيد غرام
ما أودعت تلك العزائم عندهم إلا ليبقى العيش غير مضام
ما ثُقِّفَت تلك الأسنة والقنا إلاَّ لدفع مظنة الإجرام
والنفس إن شعرت بواجب حقها صبرت على الأقوام صبر كرام
لا خير في وطن يرى برجاله ثقل الجسوم وخفة الأحلام
وإذا تقاعدت النفوس عن العلا لم تنتبه لحوادث الأيام
والجهل أقتل للفتى من طعنة بمهند أو رمية بسهام
وإذا تنور بالمعارف عنصر فاضت عليه مواهب الإنعام
يا معشر الأقوام هل من نهضة وحمية، يا معشر الأقوام
أجهلتم أن الدسائس فيكمُ بلغت بها الأعداء كل مرام
طرقت عقولكمُ طوارق غفلة أم نمتم والقوم غير نيام

أم فضل دينكمُ ونور يقينكم غطت عليه وساوس الأوهام
تالله ما كتب الرباط عليكم إلاّ لحفظ روابط الأحكام
إنا لنرضى بالتقاعد شيمة لو كان أمر تنازع وخصام
لكنه خطب تدق وراءه قنن الجبال وشمَّخ الآكام
ولئن تفرق جمعكم أيدي سبا وبقيتمو هملاً بغير إمام
فلقد شقيتم واستراح عدوكم من كل مقدام وكل همام
وإذا سرى داء الشقاق أضركم وشفا عدوّكمو من الأسقام
عدم اتفاق اثنين أنفع للعدا من ألف قنبلة وألف حسام
إن تسلموا يوماً فربّ سلامة رجعت عواقبها إلى الآلام
أمِنَ الشهامة أن ينغص دينكم أن تقنعوا بتنعم الأجسام
أمِنَ السعادة أن تهان حياتكم وتداس تحت مواطىء الأقدام
ذل وخذلان ورقة جانب وهوان عيش وانتهاك مقام
يا صاحبيّ ترفقا وقفا بنا نبكي الديار كما بكى ابن خزام
من لم يكن لمصابه يبكي دماً فليبكه لمصيبة الإسلام

* * *

رضينا بحتف النفوس رضينا

هذه القصيدة من أشهر قصائد أحمد الشّارف، ولقد نظمها أيام الجهاد والمعارك. وقد ساهم الشاعر بكثير من قصائده في تلك الحقبة:

رضينا بحتف النفوس رضينا ... ولم نرض أن يُعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش إلاّ عزيزاً ... ولا نتقي الشر بل يتقينا
فما الحر إلاّ الذي مات حراً ... ولم يرض بالعيش إلاّ أمينا
وما العز إلاّ لمن كان يفدي ... ذماماً ويفني عليه الثمينا
وما الخزي والعار إلاّ لشخصٍ ... إلى وطن العز أضحى مهينا
ونحن فروع زكت من أصول ... فنحيي مآثرنا ما حيينا
لتاريخ عنصرنا في الورى ... حديث على صفحات السنينا
وفي جانب العز كأس المنايا ... وجدنا بها لذة الشاربينا
إذا قامت الحرب كنا رجالاً ... إلى الحرب أرسخ من طور سينا
ترانا عليها نشاوى كأنا ... شربنا بها خمرة الأندرينا
لنا وثباتٌ بها وثباتٌ ... فضحنا بها ثورة الثائرينا
ولا عجب في الوغى إن أتينا ... بشيمة آبائنا الأولينا
إذا لم يُعِنَّا على الخطب رأي ... جعلنا البسالة فرضاً معينا

سيوف قبضنا عليها أكفاً وفيها ترانا من المسرفينا
ونتلف أموالنا في المعالي ولسنا عليها من الآسفينا
ونشرب كأس العلا وهي صرف ولا نشرب الكأس ماء مهينا
وما أبطأت غارة الله منا إشاعةُ بعضٍ من المبطلينا
أتمتد فينا مطامع قوم لقد ملأوا الأرض إفكاً مبينا
وجاءت صحائفهم كاذبات تزيد الورى كل يوم طنينا
وقالوا وما غرنا قولهم أبى أن يكون التوحش فينا
أيا من يجرّون أسطولهم إلينا بآلافهم والمئينا
فما ضرنا أن حللتم شطوطاً إذا شط ما كنتمو قاصدينا
فكم في طرابلس الغرب ليث يصون البلاد ويحمي العرينا
وما زاد صرخ المدافع إلاَّ زئيراً لأشبالها الضائرينا

* * *

لا زلت يا وطني العزيز أخاك

شاعرنا يهتف بحب وطنه، ويشيد بمآثره.

يهواه ـ وهوى الأوطان أسمى الهوى وأنقاه!

يستحلي هواه.. شاعر دنف يهواه.. يبحث عن أسباب رضاه.

فلولا الوطن ما قام جهاد.. ولا شعلت حرب، ولا حمل قنا أو زمجر مدفع! ولكن مال هناك فئة في الوطن الليبي مرضت قلوبها، وضعفت نفوسها تدَّعي الوطنية لفظاً لا معنى.

ادّعاء أجوف، لا دليل عليه ولا برهان.. بل إن محبة الوطن لا تكون صادقة، وبالدليل ناطقة إلاَّ إذا عاديت من عادى الوطن، وكرهت ونفرت ممن يتألّب على مطالب شعبك.

وهذه فئة تمد يدها لدولة أجنبية، وتركع لجهة أجنبية، نوع من ـ المتطليين ـ ضعاف النفوس، يمالؤون الأجنبي، فهل ادعاؤهم للوطنية صدق!؟ أم مسايرة للتيار الشعبي، ومراوغة للرأي العام؟

يحز الشاعر في نفسه هذا المظهر، وتلك المظاهر من التصرّفات من هاتيك الشرذمة، ثم يكشف حقيقتها ويصرح ويوضح بأن الإيمان بالوطن لا يكون صادقاً إلاَّ..

ومحب شعبك لا يشاد بحبه   حتى يكون عدو من عاداك

بالقول قد عرف الإخاء ولم نجد   أثراً يؤيد صدق من آخاك

بهذا يكشف عن فئة نكب بها الوطن الليبي في فترة من فترات القلق والانتقال، عندما كانت الجهات الاستعمارية تحتضن وتغدق على شرذمة من محترفي السياسة:

لا زلت يا وطني العزيز أخاكَ   أهوى هواك وأستميل رضاكَ
لولاك ما حمي الوطيس بساحة الـ   ـهيجا، ولا حمل القنا لولاك
ومحب شعبك لا يشاد بحبه   حتى يكون عدو من عاداك
بالقول قد عرف الإخاء ولم نجد   أثراً يؤيد صدق من آخاك

ولكن هناك شباب لديه حيوية وانطلاق فيتجه الشاعر إِلى الشباب عاقداً العزم عليه، ملهباً لعزائمه، مباركاً لخطواته.

ثم يتجه إِلى العروبة التي تغنّى بها في أكثر من مناسبة، ويأنف أن يكون للعروبة يد مغلولة، أَو نفس مهدمة محطمة أَو يكون في محيطها يد عابثة تقوض صرح الدّين ـ وتعبث بالقِيَم والمقومات، أَو أن يتآمر في المجتمع العربي ومحيطه السياسي ناصبو شراك اللاعبون بالأفخاخ الذين ذاقت منهم العروبة ويلات قد تكون أكثر من ويلات الاستعمار الأجنبي الغابر.

تخطر هذه الخواطر في ذهن الشاعر، وتجيش في صدره تلك المعاني فينطلق في صراحة.. محفزاً.. منبهاً.. آملاً:

وشبابك الوثّاب أول زاحف   يوم الكريهة كي يكون فداكَ
فله الشهادة إن يمت شرفاً وإن   كسب الحياة فلا يريد سواك
أبت العروبة أن يكون لها يدٌ   مغلولة لا تستطيع حراك

وأبت وقوعك في يد هدامة ... للذين قد نصبت إليه شراكا

وفريق ذياك الشباب يجدّ في ... طلب التقدم في سبيل علاك

ولديك أسباب الرقيّ تهيأت ... كي يستتب الأمر تحت علاك

نفضت غبار الجهل عنك دراسة ... والجهل أسرع ما يكون هلاكا

بمناهل التعليم تظفر بالمنى ... وتصيب من خطط العلا مرماك

لم تلق إلاّ كاتباً ومثقفاً ... وموظفاً ومحامياً لحماك

فإذا جمعت من العلوم كفاية ... فلك الضمان بأن تشد قواك

العلم بعد الإخلاص، لأن الشعب المثقف الواعي يجد في العلم وقاية وصيانة لأهدافه، وهناك صحة الشعب.. صحة العقيدة، وصحة للأهداف، وتبنى هذه الصحة على الوفاق والداء القتال هو الخلاف ـ ودعائم الإصلاح لا يقيمها إلاّ الحب والإخاء.

ثم يتجه الشاعر مرة أخرى إلى علم العروبة.. وهو إنسان عربي جميل في عروبته.. أراد أن يتمثَّل ذلك العلم الخفّاق.. الرفراف.. مغرماً.. صبّاً.. ينتظر لقاء علم البلاد العربية.. وقد التقيا في رحاب الحرية. وهو يكرّر ـ هنا ـ معانيه لأنها تلح في خاطره.

وعماد صحتك الوفاق وداؤك الـ ... ـفتاك خُلْفٌ من هنا وهناك

ودعائم الإصلاح ليس يقيمها ... غير الإخاء وفي يديه يداك

علم العروبة لم يزل بك مغرماً ... وتود أن تلقاه أَو يلقاك

ومن السعادة أن يراك وليس في ... غير المودة والإخاء يراك

لا خير إلاّ في اتحاد صفوفه ... فإذا هي اتحدت بلغت مناك

* * *

هتاف في سبيل المجد

في سبيل المجد في رفع الهمم ... قم بأمر السيف لا أمر القلم
غادر اللذات إن رمت العلا ... واصحب الخطب إن الخطب ألم
لا يغرنّك طعم سائغ ... فمن الأدواء قد يسري الألم
لو كفى الشرقي ما دون العنا ... لرأينا الحق في ذات السلم
فإذا أبصرت يوماً خدمة ... في سبيل المجد فاشكر من خدم
خدمة كل مهمّ دونها ... ومن الواجب تقديم الأهم
كالتفاني في مقام العلما ... كانتصار الحق كالنفع الأعم
إيك يا شرقي شرقاً شمسه ... قد توارت وامزج الدمع بدم
قد تفرقنا به أيدي سبا ... وتركنا المجد في حكم العدم
حيث لا أمر يلي أمراً ولا ... قدم يمشي على إثر قدم
كيف لا نبكي على عهد مضى ... في ازدياد العلم في نشر الحكم
أين ذاك العز أين المنتدى ... أين ذاك الفجر أين المزدحم
يعرف الغربي أنا معشر ... لم نكن نستبدل المدح بذم
نحن لا نجهل قوماً ظلموا ... حرمة الشرق ولم يرعوا الذمم
لم تفد أحلامنا إلاّ أذى ... لم تعد أسماعنا إلاّ صمم

سنقيم السيف عنا بدلاً رب سيف ناب عن ألف حكم
هذه الشبان في خطتها تبذل المجهود في حث الهمم
وإذا ما السيف أدّى حقه رجع الأمر إلى حكم القلم

* * *

أثــارت الشــوق[1]

إثــارة الــشــوق أرواح تــنــاجــيــنــا ... في مسرح الجد قد أمست تغنينا
فــأعــجــبــت كــل شــرقــي أصــاخ لــهــا ... ومتعة السمع في صوت المغنينا
تــقــول بــالــجــد والأقــوال أقــربــهــا ... إلى الحقيقة أقوال المجدينا
إنــا لــنــهــوى ومــا نــهــوى ســوى بــطــل ... يحمي البلاد ويحمي العرض والدينا
إذا دعــوه إِلــى الــجُــلــى أجــابــهــمُ ... إن الإجابة من طبع المحبينا
ورب مــشــتــبــه لــم نــدر مــوقــفــه ... أكان من حزبنا أم من أعادينا
يــجــود بــالــقــول فــيــمــا نــحــن نــطــلــبــه ... فالقول يضحكنا والفعل يبكينا
ليس الصديق الذي أضحت صداقته ... في النائبات يوالي من يعادينا
مضت عصور بأقطار العروبة لم ... تعرف على من بغى عطفاً ولا لينا
وعصبة من ذوي الأصوات قد فرضت ... فرضاً ولكنه فرض ينافينا
تــريــد تــمــكــيــن بــيــت مــن أقــاربــهــا ... وفي الحقيقة إرهاق البعيدينا
كــانــت عــلــى نــســق الإســلام صــبــغــتــه ... فأدخلوا فيه تغييراً وتلوينا
إن صح أن فلسطيناً قد انقسمت ... فكل قطر لنا أضحى فلسطينا

---

(1) نظمها تحية للزعيم المجاهد بشير السعداوي عند قدومه لوطنه مع هيئة التحرير عام 1948. . في حفل سوق الجمعة وأثارت القصيدة لغطاً وتأويلات في بعض الأوساط.

وهـذه لـيـبـيـا لـم نـرضـهـا وطـنـاً ما لـم يـكـن حـكـمـهـا يـجـري بـأيـديـنـا
وكـيـف نـمـلـك أرضـاً لا نـسـود بـهـا وأن نـكـون لـهـم فـيـهـا مـسـاجـيـنـا
تـأبـى الـعـروبـة أن يـنـتـابـهـا خـور وأن تـكـون مـن الـقـوم الأذلـيـنـا
نـحـن الأشـاوس فـي بـدو وفـي حـضـر وكـل أرض لـنـا كـانـت مـيـاديـنـا
نـحـيـا بـعـز كـمـا كـنـا وإن فُـقـدت حـيـاتـنـا فـحـيـاة الـذكـر تـكـفـيـنـا
إن كـان لـلـمـوت يـوم لا يـؤخـره فـمـا الـقـعـود عـن الإقـدام يـنـجـيـنـا
لا بـد مـن أحـد الأمـريـن يـصـحـبـنـا عـز نـلاقـيـه أو مـوت يـلاقـيـنـا
وحـمـلـة الـقـوم لا تـثـنـي عـزائـمـنـا عـن الـكـفـاح ولـو كـانـوا كـثـيـريـنـا
قـد يـخـذل الله أقـوامـاً وإن كـثـروا ويـمـنـح الله نـصـراً لـلأقـلـيـنـا
إذا اتـحـدنـا عـلـى صـدق الإخـاء وتـو حـيـد الـجـهـود فـقـد نـلـنـا أمـانـيـنـا

* * *

أمّــة.. ومجـد

حيـوا بـنـي وطـنـي مـن أمـة الـعـرب ... تـمـثـلـت فـيـهـمـو روح مـن الأَدب
دعاهـمو الـوطـن الـغـالـي فـمـا بـخـلـوا ... وأبـخـل الـنـاس مـن يُـدعى ولـم يـجب
واستخرجوا أدوات البحث بينهمو ... واستنهضوا الهمم العلياء عن كثب
يحمون بالسيف ما قالوا وما كتبوا ... وآية السيف تحمي آية الكتب
بـوادر الـيـأس قـد زالـت بـبـيـعـتـهـم ... كـمـا يـزول ظـلام الـلـيـل بـالـشـهـب
والـشـرق يـهـتـف بـالـذكـرى لـجـامـعـة ... في مصر، في أمة الإسلام، في العرب
طـريـقـة الـشـعـر فـيـهـم غـيـر دارسـة ... لـهـم (رفـيـق) بـهـا خـالٍ مـن الـريـب
مـا أن رأوا لـبـنـي صـحـرائـهـا وجـلاً ... يـوم الـكـفـاح ولا ذلاً لـمـغـتـرب
لـيـوث غـاب إذا مـا ضـويـقـوا وثـبـوا ... وأي لـيـث لـدفـع الـضـيـق لـم يـثـب
لـهـم نـفـوس إذا حـركـتـهـا اضـطـرمـت ... بعد السكون اضطرام الماء في اللهب
لا غـرو أن يـدعـي الـلـيـبـي أن لـه ... مـا لـلـعـروبـة مـن مـجـد ومـن حـسـب
لـديـه مـن لـغـة الـقـرآن مـعـجـزة ... تـلـوح كـالـدر والـيـاقـوت والـذهـب
تـخـالـه فـي ارتـيـاح مـن تـجـلّـده ... بـالـرغـم عـمـا بـه مـن شـدة الـتـعـب
عـزم لـديـه وإيـمـان وتـضـحـيـة ... يـوم الـلـقـاء بـلا خـوف ولا رهـب
والـجـبـن عـار ومـن أجـلـى مـظـاهـره ... حـب الـتـزلـف والـتـمـويـه والـكـذب

ومن تمشت على الأوهام خطته لا غرو إن أخطأ المرمى ولم يصب
وطالب المجد لم ينجح له طلب إلاّ على الصدق والإخلاص في الطلب
ونهضة الشعب أمر لا ينفذه إلاّ التعاضد من أبنائه النجب
وقوة الصدق في أعمالنا سبب للنصر والشيء يقوى قوة السبب

* * *

أَلَمَّ بنا شوق يذوب له الصخر ... ويقضي علينا البؤس لو فقد الصبر
وما شوقنا إلاَّ لوحدة أمة ... يشاد على مر الزمان لها ذكر
ولم نر ما يدعو إلى البؤس والشقا ... سوى وطن فيه القطيعة والهجر
تهافت آراء وأصداء فتنة ... فلم يخل منها لو تتبعتها عصر
ولم يخل شعب من حديث مموّه ... فظاهره خير وباطنه شر
لنا أمل في المصلحين وكلما ... تداعوا إلى الإصلاح يضطرب الأمر
إذا لم يكن من أنفس القوم وازع ... وإن زجروا بالقول لا ينفع الزجر
فلا يستقر الأمر إلاَّ بعادل ... قوي فلا حجز عليه ولا حجر
وأنكد ما يلقى الفتى سعيُ خالد ... لإسقاط زيد ثم يعقبه عمرو
فيتلوه بكر ثم يأتي بعكسه ... سواه فلم يعرف من الخَبر الخُبر
دعاة لهم في جانب السعي ألسن ... حداد تحاكيها الأسنة والسمر
فتسكت عن حق وتنطق عن هوى ... وتمسك عن شكر إذا وجب الشكر
إذا سمعوا من جانب الحي ضجة ... فما همهم إلاَّ الإذاعة والنشر
تذاع أحاديث السياسة بينهم ... وأي حديث لا يُذاع له سر
يريدون شد الأزر والخُلف بينهم ... ودون اتحاد لا يشد لهم أزر

ورب قرين كاد يظهر شره	جلياً فتخفيه الطلاقة والبِشر
يلاقيك بالبشرى وفي النفس حاجة	وما تحتها إلاَّ الخديعة والمكر
إذا كان هذا أيها الصحب حالنا	ولا غرو إن أودَى بنا الويل والخسر
أنانية فينا وحب رئاسة	(فعولان بالألباب ما تفعل الخمر)
يعلمنا مشي الطواويس كبرنا	وأقبح شيء من خلائقنا الكبر
ونحن كأغصان نميل مع الهوى	كأن علينا لاتباع الهوى نذر
ولولا تأسّينا بمصرٍ ونيلها	وجامعها الأعلى لضاق بنا الصدر
إذا ما أفضنا في حديث ممتع	فأول ما يغشى مسامعنا مصر
أبى اللّه إلاَّ أن يُبيّن أنها	كنانته في أرضه ولها الفخر
يحس بآلام العروبة شعبها	ويوجعها أن لا يكون لها أمر
نحب من الأقطار كل شقيقة	لمصر ومن في مصر يا حبذا القطر
وكان من الخطب الملائم أنها	حليفة شعب تحت سطوته البحر
صديق إذا أوفى بعهد صداقة	وكلٌ إلى عهد الصداقة مضطر
ونحن بنو تلك العروبة لم يزل	(لنا الصدر دون العالمين أَو القبر)
فلا زال دين الله يربط بيننا	روابط لا يقوى على فصمها الدهر
لنا لغة لا ينكر الناس فضلها	تنافَسَ في تدوينها النظم والنثر
لزاماً علينا رد ما كان فائتاً	وليس لنا في ترك ما فاتنا عذر
وما كل شيء فات مثل زجاجة	إذا انكسرت لا يستطاع لها جبر

* * *

يا بلاداً

يا بلاداً أكرم بها من بلاد قد تحلت بحلية التوحيد
لبست حلة البهاء ووشتـ ـها ذيول السحاب وشي البرود
وتباهت بمظهر عبقري جامع بين طارف وتليد
ودعانا الهوى بأن نتمشى في ربوع الحمى بصوت النشيد
ليس بالبدع أن تدان بحق في سبيل العلا بقلب ودود
وطن الفضل والسماحة والإقدا م والمجد من قديم العهود
ينشأ الطفل فيه نشأة شبل من كناس الظبا وخيس الأسود
في حديث القديم كنا فصرنا بعده في حديث عصر جديد
صانك الله يا طرابلس الغر ب ولا زلت من تراث الجدود
وخذوا خطة الثقافة فيها إن سر النجاح في التوحيد
واهتياج الغرام والشوق يأتي من هبوب الصبا ونغمة عود

* * *

هيئة التحرير[1] تزور زليطن

ظهر اتحادهمو بأحسن مظهر والناس بين مهلل ومبشّر
وتبصروا حقاً تمثل فيهمو والحق لا يخفى على المتبصر
وأحق أبناء العروبة بالثنا من قام بالعمل الجليل المثمر
تبغي بوحدتها وباستقلالها حرية البدوي والمتحضر
وبهيئة التحرير والتقرير ما جمعت براعة كاتب ومحرر
وجلائل الأعمال ينشر ذكرها أهل الصحافة أو رجال المنبر
دعيت إلى «يزلطين» لتنال من شرف الزيارة بالمقام الأكبر
دعيت لتشريف ومما زادها شرفاً حمى عبد السّلام الأسمر
الفائض المدد العلي مقامه وابن الفواتير الكرام الحضر
ولئن أقيم الحفل فيه وفاتني شرف الحضور ولم يكن بمقدر
فالقلب متصل بروح منه في شبح الخيال حضرت أم لم أحضر

* * *

(1) تحية لهيئة التحرير التي كان يرأسها الزعيم المجاهد بشير السعداوي عندما زار زليطن عام 1948 إفرنجي أيام جولاته الوطنية.

العدل وحق الشعب

وقبل استقلال ليبيا نظم هذه القصيدة مصوراً ماساة الديكتاتورية الاستعمارية ومصوّراً بشاعة ظلم الاستعمار والحروب وضياع ثروات الشعوب في سباق التسلح والدمار من الدول الكبرى وينادي بحق ليبيا في الحرية والعدالة.

أينما كنت يا ابنة الحي غنّي   في مساء ورجّعي في صباح
وارفعي صوتك الشجي على قيثـ   ـارة الفن بين روح وراح
واملئي السمع من حوادث عصر   ركب الجيش فيه متن الرياح
بلغ الأمر فيه مبلغ جد   والأماني بالجد لا بالمزاح
يوم صاح الزمان صيحة غضبان   يرى الحلم فيه غير مباح
يوم قام النفوذ يكتسح الأرض   ليشفي الغليل بالاكتساح
وذوات البخار شرقاً وغرباً   في صراخ من هولها وصياح
وغدت فيه حاملات المنايا   في غدو وتارة في رواح
لم تكن للبقاء جاءت ولكن   لفناء الأرواح والأشباح
لم تدع في الجيوش غير أسير   أو جريح أو مثخن بجراح
وإذا فوجىء الخلي بإنذا   ر تلاشى في ساعة الأفراح

قد أهينت خزائن المال والإنـ ـناج في نفقات ذاك الكفاح
أدوات الفلاح قلّت وقلّ النفـ ـع من تاجر ومن فلّاح
وغدا كل صاحب وخليل واجم القلب زائد الأتراح
كل جو وكل بر وبحر لا نرى فيه غير شاكي السلاح
فانتهى الأمر بين نصر وخذلا ن وضعف القوى وكسر الجناح
كيف ينجو من المصائب شعب أمره تحت حاكم سفاح
لم يكن يحسن السياسة في أمر على خسر أم على الأرباح
هكذا كل من نراه جموحاً ينتهي أمره بردّ الجماح
إن سر النجاح في قوة الجيـ ـش وفي المال كان سر النجاح
ودوام النجاح أن يتمادى الـ ـعدل في ظل مجده الفياح
إنما ينزل النكال بقوم قد أخلوا بخطة الإصلاح
هذه ليبيا تؤمل حقاً يتجلى بنوره الوضاح
ومن العدل أن تنال مصيراً يجعل الشعب في مراقي الفلاح

* * *

لنا من بني قحطان أشرف ذمة

ألا كل من يرضى لك الضيم شيمة ... فلم يرضه في القوم أنك إنسان
وإن عظيم النفس أكبر همه ... كفاح وإقدام وصدق وإيمان
لعمرك ما بعد المقام على الأذى ... يلذ نعيم أو يطيب جنان
وإنّا لنهوى حجرة الذئب مسكناً ... إذا لم يكن للنفس ذل وخذلان
لئن كتم الغِر المكابر مجدنا ... فلا الحال كتَّام ولا الدهر وسنان
إذا عزَّ في الدنيا على الحر مطلب ... فليس له إلاَّ الأسنة إمكان
لنا من بني قحطان أشرف ذمة ... يباهي بها يوم التفاخر قحطان
نقابل بالحسنى ولسنا بمعشر ... إذا نصحوا غشوا وإن عاهدوا خانوا
ونحن الألى فينا بغرة هاشم ... تردد جبريل وأنزل قرآن
أجلّ بني الغبراء فضلاً ومنة ... وأعظمهم شأناً إذا عظم الشان
ولا تعجبوا والفرع يتبع أصله ... إذا نحن كنا في المعالي كما كانوا
فليس لنا إلاَّ الكهوف مصانع ... وليس لنا إلاَّ السباسب أكنان
وإن أنكر الأقوام إيجاب حقّنا ... فليس لنا إلاَّ الأسنة برهان
يقولون في دنياك لا زلت رابحاً ... وربح الفتى في ما سوى الدين خسران
وفي غير إحياء المكارم والعلى ... تدين لمخلوق وفوقك ديَّان

إذا رمت عز النفس لا تعص أمره   فأعظم أسباب المذلة عصيان
ولو لم يكن في سابق العلم حكمة   لما زاغ شيطان ولا جار سلطان

* * *

حياة على الضيم بئس الحياة

لقد آن للعزم أن يصدقا   وحملته اليوم لن تكذبا
وأسيافنا أخذت موثقا   بأن يبلغ السيل منها الزبا

* * *

رعى الله جيشاً غدا قائماً   بدق الطبول وخفق البنود
فجرد من عزمه صارما   ليعرف مركزه في الوجود
سيبقى الزمان له خادما   كما كان يخدم تلك الجدود
قد اخترقت خيله مأزقا   حذاراً على المجد أن يذهبا
وحتم على السيف أن يسبقا   إذا لم يجد في العلا مطلبا

* * *

ولا يعجب القوم من عنصر   غدت منه نار الوغى تستعر
كذا المجد يقضي على معشر   حياتهمو آذنت بالخطر
جزاء لمن كان في «سيفر»[1]   وما جاء في ذلك المؤتمر

(1) سيفر: إشارة إلى معاهدة الصلح التي فرضت على تركيا ومزقتها ولكن رُفضت معاهدة «سيفر» آنذاك.

بحيث اليراع غدا مطلقا فيكتب ما شاء أن يكتبا
ولسنا على الضيم نرضى البقا ولا ننصر الدِّين والمذهبا

* * *

ولما تعذر فصل القضا وزاد اللجاج وطال الخصام
أتى السيف بالرغم لا بالرضا لحسم القضية بين الأنام
فإن الحسام إذا ما قضى ينزه عن شبهة الاتهام
فلا غرو أن جد يوم اللقا وسالت نفوس بحد الظبا
فما الشرق أوجب أن تهرقا ولكنما الغرب قد أوجبا

* * *

حياة على الضيم بئس الحياة ونعم الممات إذا لم نفز
لقد قام فينا (كمال)[1] الصفات بأوفر حظ وأكمل عز
فتى أدرك الأمر قبل الفوات ومهما بدت فرصة ينتهز
حريص على الشرف المنتقى بإدراك ما كان مستصعبا
وقد أوشك الضيم أن يحدقا ولكن أباه بكل الإبا

* * *

(1) أشار إلى مدح مصطفى كمال عندما كان يؤيده العالم الإسلامي والعرب وكان يطلق عليه «الغازي» قبل أن يتنكر للإسلام والعرب قبل أن يظهر على حقيقته كما هو معلوم من أتاتورك.

إذا عزّ في الدهر نيل المنى تداعت إليه النفوس الكبار
وترك الونى واقتحام العنى تجرهما حاجة الاضطرار
لئن أسرف الغرب فيما جنى فللشرق حكم بدون اختيار
فأسيافنا سلم الارتقا إذا لم تجد غيرها مركبا
ولا خير في الغرب إن أبرقا فإنا نرى برقه خلبا

* * *

تكاد «الأناضول» قبل النفير تساق إِلى الدرك الأسفل
وخاف الكمالي سوء المصير فأنجده كل مستبسل
ليدرِ الأنام وكل خبير بأنا على المبدأ الأول
فكل يهيم بوادي النقا وبطحاء مكة أَو يثربا
ودين نصبنا له بيرقا لأَحمد خير الورى منصبا

* * *

ولما رأوا أنهم أمة تجلّ عن المنهج السافل
أبوا أن تفوتهمو فرصة فلم يتركوها إِلى قابل
وقد صدقت منهمو حملة فجاءت بكل فتى باسل
بجيش يعب إِلى الملتقى حكى اليم تحت هبوب الصبا
به جمع الدهر ما فرقا وقد منع المجد أن يذهبا

* * *

بـنـي الـروم مـن طـيـش أحـلامـكـم أسـأتـم بـحـفـظ نـظـام الـبـلاد
وطـئـتـم رمـاداً بـأقـدامـكـم ولـم تـعـلـمـوا الـنـار تـحـت الـرمـاد
ومـا جـاء مـن نـحـو أقـلامـكـم نـرى دونـه الـيـوم خـرط الـقـتـاد
فـكـونـوا كـمـا شـئـتـم فـي الـشـقـا فـلـن تـبـلـغـوا غـيـره مـأربـا
سـيـجـمـعـنـا الـمـنـهـج الـمـرتـقـى ويـفـتـرق الـغـرب أيـدي سـبـا

* * *

ضعتم وضعنا

ضعتم وضعنا كما ضاعت قوافينا بها سعينا وقد خابت مساعينا
همتم بواديكُمُ في كل ناحية بدون جدوى كما همنا بوادينا
وكم تناولت الأسماع من حكم ضاعت وإن لم تضع نظماً وتلحينا
كالزينفون فلم يوجد له أثر وإن وجدنا له في الوضع تلوينا
وهل يشوق الذي غابت مداركه نوح الحمام وأصوات المغنينا
فلم يكن عندنا ما ليس عندكمُ ولم يكن فيكمُ ما لم يكن فينا
حقيقة قد سرى طيف الخيال بها رؤيا لقد جيء فيها كابن سيرينا
فما لنا غير أحلام تساورنا يوماً فيوماً فما نلنا أمانينا
فصابروا واصبروا فيما يهمكمُ فالصبر من حسن أخلاق المصابينا
إن كان من لا يساوي نصف خردلة كما تقولون قد أضحى أفندينا
فرُبّ خردلة تمتد قيمتها من الثمان إِلى نحو الثمانينا
قد يرفع الله قوماً بعد وضعهمُ وقد يرى العكس والتاريخ ينبينا
فكم شياطين قد صاروا ذوي نسك وكم ذوي نسك صاروا شياطينا
وسوقة مالت الأيام نحوهمُ صاروا ملوكاً وقد كانوا مساكينا
وكم ترى القوس في أيديهمُ وقعت ولم يكونوا لتلك القوس بارينا
وكم يد نالت التقبيل من فئة وهم على قطعها كانوا مصرّينا

وهكذا كل من تشتد وطأته ... فكل من تحته كانوا مطيعينا
فما الزمان بآتٍ في تطوره ... بكل ما كان يرضيكم ويرضينا
وهكذا الدهر دوماً في تلونه ... والدهر ما زال كالحرباء تلوينا
فتارة بذوي الألقاب يضحكنا ... وتارة بذوي الألقاب يبكينا
وأقرب الناس نفعاً من لهم رتب ... في حب أنفسهم ليسوا مغالينا
آهاً وآهاً لأيام إذا ذكرت ... يوماً ذكرنا بها الغر الميامينا
بقوة العزم والإيمان قد ربحوا ... ملكاً فما خسروا دنيا ولا دينا
لولا جهاد مضى منهم وتضحية ... في الحق لم يجدوا في الأرض تمكينا
واليوم توجد أوضاع لنا حدثت ... بعيدة الشكل عن أوضاع ماضينا
في كل مملكة من نفسها شغب ... (وكل قطر لنا أضحى فلسطينا)
نشكو ونصرخ من ظلم ألمّ بنا ... والظلم لم يأت إلاّ من مساوينا
فما لنا من عدو غير أنفسنا ... صارت بأيدي سوانا لا بأيدينا
لا خيَّب الله حسن الظن في ملأ ... لصالح الشعب لا زالوا مجدّينا
لم يقطعوا السير في تحقيق وحدتهم ... وأمنهم من دخول الأجنبيينا
لولا كفاح مضى منهم لما صبحوا ... للأغلبية حكم المستقلينا
للشعب حق وحق الشعب يضمنه ... عدل الولاة وصدق المستشارينا
ونخبة من شباب العصر صادقة ... تعطي لمستقبل الأيام تحسينا
فالحكم ما كان من أهليه منتظماً ... بالقسط إن وضعوا فيه الموازينا
وأشبه الناس بالأموات من نشأوا ... في عصرهم تحت ضغط المستبدينا
إن الأعزاء من ماتوا بعزّهم ... وما سواهم من القوم الأذلينا

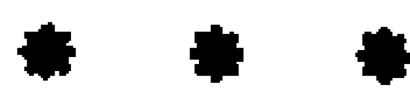
نقلت هذه القصيدة من جريدة «الترقي» حرفياً.
وقد جاء في تعليق صاحب الجريدة قوله «جاءتنا هذه القصيدة بل الدرّة الفريدة من ناظمها الفاضل صاحب الإمضاء فنتحف بها أدباءنا..» اهـ

ويلاحظ هنا أن الشاعر يشير بكلمة (أعيد) إلى أنه سبق أن صدر في الدولة العثمانية دستور عام - 1876 أيام مدحت باشا وألغي من طرف السلطان.. ثم صدر دستور عام 1908 - كما أشار الشاعر بكلمة - (أعيد لنا) -

أعيد لنا الدستور والعود أَحمد ... فمن حقّه يثنى عليه ويحمد
شفا علة منا وكنا على شفا ... ونار الأسى كانت بنا تتوقد
ولاحت شموس الحق بعد خفائها ... وضاء لنا في حندس اللّيل فرقد
ومانحه «عبد الحميد» لأمة ... يحق له الذكر الجميل المخلد
وهذا الذي قد كان يبغيه أولاً ... ولكن له في عالم السر موعد
سمت فئة الأحرار تنظم شمله ... فأصبح في سمط المعالي ينضد
وقامت على التدريج فيه ودبرت ... عواقبه والرأي رأي مسدد

ونـادت بـأصـوات تـجـر قـوافـيـاً بـأحـسـن دور عـهـده مـتـجـدد
ولـولا أمـيـر الـمـؤمـنـيـن أجـابـهـا عـلـى ثـقـة مـن حـيـث لا يـتـردد
لقامت على ساق الكفاح رجالنا صفوفاً بمحراب المنية تسجد
ولكن إلى الداعي فدتهم إجابة لحقن دماء عندنا يتأكد
إجابة مضطرين عادوا صلاحها لملك له فوق السماكين مقعد
وكل مقام يوجب الحمد والثنا يضاف إلى «عبد الحميد» ويسند
وما أعلنت بالوزر إلاّ وزارة إذا لم تكن للحق والعدل ترشد
وأي حياة للمكارم والعلا إذا لم يكن فيها معين ومنجد
ولا عيش دون الفخر والمجد والتقى إذا لم تكن فالموت أعلى وأمجد
إذا المال تأباه العقول فبعده مقالٌ وإلاّ فالحسام المهند
هو السعي في مجد ولو بتنكد ألا في سبيل الله طاب التنكد
وما منح الدستور إلاّ لملة ودين بأغلال الفساد مقيد
ترقّى إلى عرش الخلافة أمره فأضحى بقانون الأساس يعضد
وقد تم جمع الاحتفال بمجلس تماماً له فوق الكواكب مشهد
نجاح وأفراح وفضل ومنة وعز وإقبال ومجد وسؤدد
لدى ملك يستنزل الصخر عزمه وفي ذاته جمع العلا وهو مفرد
فهذي رجال الاتحاد وهذه رجال الترقي بالعلا تتقلد
فمن ريع الدستور أرخت فخرها أعيد لنا الدستور والعود أَحمد

1326هـ ـ 1908 إفرنجي



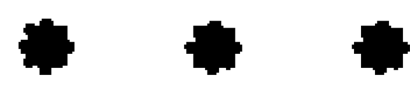
ومن ابيات الشاعر التي اشاد فيها بعهد الدستور والحرية حوالي عام 1910 افرنجي في العهد العثماني ونشرت بجريدة «الترقي» في ذكرى عيد الدستور 1329هـ:

لم أزل أمدح «مشروطية» مع أني لم أنل منها نصيبا
ذكرتني حالتي ما قبلها فغدا قلبي من الذكرى كئيبا
واختصاص النفع لا ينفعني من ثناء يملأ الآفاق طيبا
مادح الدستور في مذهبه لم يزل مجتهداً فيه مصيبا
كيف لا أطرب في أيامه وكريم النفس ما زال طروبا

* * *

المغرب

يقال الفضيلة مفقودة وما قيل لم يَكُ بالأصوب
فكم مغربي تحلى بها أتانا من البلد الطيب
وقد علم الناس من حاله بأن ذوي الفضل في المغرب
وكم في بني الغرب من فاضل حريص على الدين والمذهب
وفي كل يوم نرى الشمس في سوى جانب الغرب لم تغرب
كرام مدى الدهر أخلاقهم تدور على صحة المشرب
وإن المكارم قد أصبحت لغير بني الغرب لم تنسب
إذا قلت أنهمُ قد عنوا بطائفة الحق لم أكذب



غــزل وأشــواق

غـرام الستيـْن

شاب الشاعر.. وكلل الشيب رأسه وما زالت عاطفته متقدة، ولم يشب قلبه.

بلغ الستِّين وما زال يهيم في وادي الشعراء.. يهزه الغرام، وتبعث فيه رؤى الجمال نشوة، فيرسل الشعر في الغزل، وتصوير أفانين الجمال والشكوى من ربات الدلال.

وكل فتنة تهون إلاّ فتنة العشّاق ـ وفي هذه السن عندما بلغ مشارف العمر وقد فارق شباب السن ـ ولكنه لم يودع شباب الروح وحيوية القلب المتقد وشبوب العاطفة الملتهبة.

ها هو ينظم قطعة غزلية في شيخوخته.

أرأيت عارضاً للحسن يعرض عن عاشقه؟

لمن يشكو الشاعر الذي صنع الجمال بقلبه الأفاعيل؟ من أجدر بالاستماع للشكوى من الخبير بأساليب التجني؟

وما أكثر أنواع التجني وألوانه عند صاحبات الدلال وربّات الجمال. . من شيمة الجمال الغرور ومن طبع الغرور الإعراض.

هذه نظرة ساحرة فتانة. . وجيد فيه لفتة ظبي. . وقديماً كان الظبي في التشبيه كالقمر عند إخواننا الأدباء يلجأ إليه الشعراء حتى في المدن التي لم تر الظبي إلاّ مقيداً. . أو لماماً. .

ظبي. . حلو التثني. . حلو التمني.

وعلي محمود طه يقول عن الجيد: حلو اللفتات. . فجاءت شطرته في قصيدة أروع في الإيقاع الفني من «حلو التثني».

والشارف يقول:

يا بصيراً بأفانين الهوى وخبيراً بأساليب التجني

تائهاً بالحسن إذ يعرضه وهو إذ يعرضه يعرض عني

راعني بالسحر في نظرته وأراني لفتة الظبي الأغنّ

راقني إذ زفّ فيه غزلي كأسيل الخد أو حلو التثني

كم تراني راضياً مبتسماً خوف أن يقلب لي ظهر المجن
إن أحاوله أحاول عبثاً أو تأنيت فلا يجدي التأني
أنكد الناس محبٌ لم يكن مالكاً من أمره غير التمني
كل حب مُنِيَ القلب به لم يكن مظهره مظهر أمن
كم رأينا فتنة هانت سوى فتنة العشاق في أنس وجن

تظهر في هذا حيرة الشاعر وتردده.. ماذا يصنع؟ إنه خائف متوجس من نفار صاحبته. وما أسرع نفار الظبي.

وإن حاول صاحب القلب الحائر، ما تجدي المحاولة مع غرور أهل الجمال وغرور الجمال؟

هل يتأنى؟ ما جدوى التأني.. وهو يرضى بالمحبوب ـ على أية حالة ـ مخافة ماذا؟

إنه يرضى ويبتسم مخافة أن يقلب له ظهر المجن.

وليكتف بالتمني.. وهل غنيمة التمني مربحة؟. بل هي دافعة إلى زيادة الحيرة والخوف والقلق ومحب لا يملك غير التمني هل يكون سعيداً..؟

إن حظه في هذه الجولة نظرات.. وتمنيات.. فالمحبوب نافر، غزال شارد، وحرقة فؤاده تؤججه ولياليه الطوال تؤرقه.

* * *

والشيخ الشاعر ما زال طرباً للغناء هائماً بالأصوات الحسنة.. والوجوه الحسنة. أما فتاته ـ ملهمته ـ فاتنته فهي (فتاة الحي).. حذار.. لا تبح باسمها.. لك أن تلجأ إلى ما شئت من كنايات.. وأسماء مستعارة.

ولكن.. احذر أن تذكر اسم الفتاة.. نحن في بلاد محجبة.. والشاعر

الولهان شيخ.. لا يليق حسب العرف في المجتمع المغلق.

تقاليد العرف.. أفي هذا العمر.. ويذكر اسم الحبيب!؟.

حب.. صبابة.. لا بأس، ليس في طبعه وأصله حرمة أو جريمة. ألم يعرف سادتنا المتصوفة والأئمة وأكابر الزهّاد.. عرفوا الحب.. لهجوا بالحب.. هل في الحب حرج.

غنى.. وأطرب.. ومد الكأس.. لكن.. صه لا تهتف باسم الحبيب:

عاطني يا سعد كاسات المنى   وبما شئت من الأدوار غنّ
وفتاة الحي لا تهتف بها   وبما رمت من الأسماء كنّ
كم سؤال كان مطروحاً لها   لم تجبني عنه حتى أتعبتني
فتمثلت ببيت شائع   وهو من عهد مضى قام بذهني
«قد طرقت الباب حتى كلّ متني   ثم لما كلّ متني كلمتني»

إنه بيت من الشواهد النحوية من بضاعة أصحاب «القواعد».. وليس به مسحة من بلاغة ولكنه طرق ذهن الشاعر وساح على لسانه فضمنه قصيدته وإن كان البيت بلا مضمون ولا معنى شاعري..

«طرقت الباب حتى كلّ متني   فلما كلّ متني.. كلمتني»

ورغم هذا الدق المتواصل، وكلال الساعد والمتن، أعرضت عنه الفتاة.. فتاة الحي.. ترى لماذا الإعراض؟

لم يرقها الحب مني وأنا   صاحب الستين أيضاً لم يرقني

أبعد الدق على الباب وإتعاب اليدين.. أم قبله؟

عجيب هذا الرجوع. . أَو هذا الانتكاس والتراجع. . يبدو أنه يريد التدارك ومحاولة تلافي الأمر بعد أن واجهته صاحبته بالإعراض.

لم يكن لي في غرامي عبث فادح يبلغ بي مبلغ حزني

ولكن مهما أعرضت، أَو حتى لو لم يرق هذا الحب للشاعر، إنه من ألوان ـ القضاء ـ لا حيلة له في نياط القلب وميله وخفقانه. .

وإذا الأمر منوط بالقضا لا أبالي فاتني أو لم يفتني

إذاً، ما هو المكسب والمغنم. . شاعر يهيم بالجمال والشعر.

أنظم الشعر ولا أقصد من غزلي شيئاً سوى خدمة فنّي
وخليّ البال مني ساخر وأنا الساخر بالساخر مني
رب نسج من خيال الشعرا لم يقم إلاَّ على أصدق ظن

خدمة الفن. . تلبية الإحساس الشعري من أسمى مراحل الرسالة الفنية.

لقد كسب الشعر وإن خسر العاشق.

لقد أرضى آلهة الشعر. . وإن أغضبته فتاة الحي. أَو سخر الناس من عشقه. .

لقد جازى الساخرين بالسخرية. . وأرضى بالحب عاطفة مرهفة وإحساساً مؤرقاً.

وبدافع من رقة قلبه وشعوره أخذ الشاعر يدعو في آخر قصيدته للعشّاق ويتوجّه لربه آملاً أن يُسبغ عطفه على سائر العشاق. . جميعهم في الأرض. . من جن وإنس.

وهل هناك أرق قلباً وأصدق دعاء من محب عاشق ولا سيما إن كان من قلب شاعر رقيق الإحساس، رغم الستين عاماً التي قطعها آنذاك على درب الحياة، يرفع الشاعر يديه في لهفة وإيمان عميق.

يـا إلـه الأرض يـا رب الـسـمـا جـد بـمـا تـسـديـه مـن فـضـلٍ ومـنّ
وانـظـر الـلّـهـمّ بـالـعـطـف عـلـى سـائـر الـعـشـاق مـن إنـس وجـن
كـل شـيء أنـت حـقـاً كـل شـيء لـيس يغني عنك شيء ليس يغني

في أبيات من القصيدة السالفة أشار إلى أنه ينظم ويصوّر مفاتن الغزل إرضاء لمذهبه الشعري.. أي بدافع من الإلحاح الفني.

وهذا عين الصدق.. وأكرم به من صدق.. وإرضاء العاطفة أو الميل الأدبي درجة يسمو إليها الفنّان الشاعر إسمعه يؤكد:

أنـظـم الـشـعـر ولا أقـصـد مـن غـزلـي شـيـئـاً سـوى خـدمـة فـنّـي

وهاك البيت الذي أراد أن يكني فيه ويستر اسم المحبوب وحذّرنا من أن نسميه:

وفـتـاة الـحـي لا تـهـتـف بـهـا وبـمـا رمـت الأسـمـاء كَـنّ

ولكن ما بال الشاعر هنا يؤكد شيئاً وينقض شيئاً.. يثبت أمراً ثم يرجع عن هذا الأمر.

إنه على ما يظهر في هذه القصيدة يريد تأكيد العاطفة الشعرية، وتلبية رغبة الموهبة الفنية التي تلح عليه وتدفعه إلى التعبير والتصوير.

فهو يريد صادقاً تلبية ذلك الميل.

أما التصريح فلا. أما الكناية، وما رمت من الأسماء، فلا بأس.. يفتح الباب لنا ويسمح أن نرومَ ما نشاء من الأسماء.

ولعل ما نروم من الأسماء.. أيضاً ما زال دائراً في الكناية. وعدم الإفصاح بالاسم الحقيقي في دنيا المجتمع المغلق.. والنسوة المحجبات.

وقبل أن يطول بنا التساؤل تقدم هذه القطعة من شعره الغزلي لنرى موطن التساؤل.. ولا ضير من المقارنة مع القصيدة الماضية وهي من إطار ونغم واحد.

* * *

ولي روح تطير بلا جناح

عـذولـي قـد أطـلـت إلـيـك عـنـي   ودع مـا تـشـتـهـي الـعـذال مـنـي

ولا تـكـثـر عـلـي ولا تـمـاري   فـإن صـبـابـتـي أدبـي وفـنـي

هنا يخاطب العذول ـ وما أكثر مخاطبة الشاعر لهذا الصنف من الناس ـ ويؤكد أن صبابته من أجل الأدب والفن.. ثم هو يترك مخاطبة العذول ويتجه إلى «النديم».

وأين نحن من عصر «الندامى» أو الندماء..

ويطرب للألحان ـ وقد كان الشيخ الشاعر طروباً يهتز للألحان.. ويميز بين توقيعاتها وأنغامها الفنية ـ ذواقة البصر.. ذواقة الأذن.. وهي منافذ تجلّي شاعريته.

وسلاف الراح قد صورها شعراً ـ وإن كنا نستطيع أن نؤكد أن الشيخ ما ثمل إلاً بكأس الحب ـ وما عاقر بنت الحان إلاً على طريقة الأسلوب الشعري أي في حانة أبولو.. في دنيا الشعراء.

أدر لـي يـا نـديـم سـلاف راحٍ   وزمـزمـهـا بـألـحـان وغـن

كأس ووتر.

ألحان وحان.

ثم ماذا؟ ذكر الحبيب، والحديث عنه.. حتى تكتمل نشوة الشاعر الولهان

وتهتز المشاعر.. ويطمئن الوجدان الملتهب.

وهنا.. إذا ما شرب وطرب.. وأفصح النديم.. فلا بأس من أن يصرح ويزاح الستار.. يصرح بعد التلويح ويبين بعد همهمة.. قد يسقط القناع.. وينكشف ستر.. فليترك التكني.. ليفصح:

ونادمني على ذكر الأغاني وصرح بالحبيب ولا تكنِّ

أوه.. أنسيت يا شاعر؟

كنت قبل خطوات، لا قبل أبيات ولحظات تخشى التصريح ولا تريده وتكتفي بالكناية والرمز.

والآن.. هل تغير الموقف؟ ماذا دهاك؟ أم لكل حالة لبوسها.

ولكنه الشراب.. ونقر الوتر.. وأحاديث عن الحبيب. ونشوة الحب.. أمور تدفع إلى الإفصاح.. ليتك ذكرت اسم الحبيب.

ولكنك حافظت.. وتلافيت حتى في ساعة النشوة الفنية.. واكتفيت بمخاطبة عامة.. وتدلل في جانب الحبيب.. وتحنان رقراق:

وقل يا ذا الحبيب عساك ترضى ولا ترضي صدودك والتجني
تمنيت المعيشة فيك تفنى وما طلب المعيشة بالتمني
وطيب معيشتي في طيب شرب وصحة راحتي في راح دنِّي

ثم يعود الشاعر إلى مخاطبة أحبته في هذه القطعة التي قصد بها ـ التلميح ـ عرب الحي.

وقد أشاد بقصيدة (عرب الحي).. وكرر كلمة (الحي) في عديد من مقاطعه أترى هذا «الحي» في مدينة طرابلس.. أم هو «حي» في بلدته «زليطن» عند أبناء عمومته من قبيلة (العمايم) كما يبدو من بعض أناشيده.

أم «حي» في البادية.. عندما كانت ظروف المعيشة تحتم عليه التنقل في جوف البادية وأطرافها.

قد يكون هذا.. أَو ذاك.. لا يهم في كثير أَو قليل.

لا يهمنا هنا ـ إِلاَّ الصورة الشعرية ما دامت الذكريات الذاتية واعترافات الأدباء في الشرق شيء لا نصل إِليه.

تظهر هنا ألوان من التغزّل والشوق اللاهب:

أحبة خاطري وعريب حيي　　أراكم في المحبة نصب عيني
ولي روح تطير بلا جناح　　قد اتصلت بكم في كل حين

تطير بلا جناح.

لا جناح عليك يا شاعراً في الحب.. بل لك جناح محلّق في سماء الهوى.

تطير بلا جناح.. مطلع رائع في قصيدة ذات سبك وربط.

ولكنه يقابل بين الغزلان والآساد، كيف!

عهدت إليكمُ ظبيات قاع　　فدون وصالها أسد العرين

أبعد هذه المخاطر والمخاوف ترضى بمتاعب الحب؟. مسكين يا شاعر، هل نراه ييأس؟، إنه فنان يلجأ إِلى الأنغام والألحان.. وسواء كانت الظبيات سهلات الوصال.. أم زأرت الآساد.

ترنّم بالمحاسن يا معنّى　　بألحان على طبع «الحسين»
وذات السجع تلحن في غناها　　ومعربة عن الشوق الكمين

الشاعر يعرف الطبوع والألحان والتقاسيم، والفن الغنائي في ليبيا في طرابلس له عشاق وهواة، وتسري الألحان الأندلسية والموشحات في قصائد وأناشيد مجالس المتصوفة في بلدته.

ألحان ذات طبوع و«سلالم» موسيقية، معروفة منها طبع «الحسين».

إذن هو يريد من صاحبه المغني الذي برحه الشوق أن يترنّم ويتنغم بالمحاسن واللطائف، ولينشد، وينشد اللحن على طبع «الحسين». أترى أن الشيخ أكثر ما يكون طرباً لهذا اللحن والطبع بالذات.. أم أن قافية النون تحكمت في شكل اللحن وضبطه.

أغلب الظن، أو آكد الظن، أن نون القافية تحكمت في ضبط الإيقاع وإن كان هو فنان له حاسة موسيقية تطرب لنغمة «الحسين» ولغيره من الطبوع الموسيقية.

ثم إن الطيور تسجع.. لماذا؟

«معربة عن الشوق الكمين» والشاعر أكثر من مرة يشير إلى هذا المعنى.. وهو ـ بلا شك ـ معنى مطروق وتختلف ألوان وأصباغ الصورة بحسب ريشة الشاعر.

ويعود إلى حديث العذال ويتحداهم ويتصدّى لهم في غضبة ذات نبرة حادة جهيرة.

وقل للعاذلين فلا تماروا إليكم دينكم وإليّ ديني

حاول الشاعر أن يكون قوياً في المقطع الأول وكأنه يشمر عن ساعديه للصراع.. ثم كان أن شابه الاستسلام ـ لكم حالكم ولي حالي ـ أو أراد أن يضمن الآية الكريمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. ولكن لا أظن وقع هذا التضمين هنا له قوة السبك والربط وهو تضمين ليس مكانه هنا.. ولكن الشاعر لجأ إليه

لأنه على ما يبدو أقرب إلى الوزن من شطرة يتصيدها أو عبارة جديدة يصوغها.

ولا يكتفي الشاعر بمحاولة تضمين معنى الآية في موضعه هذا بل يشير في بيت آخر إلى حديث نبوي:

ومن لم يجعل الأشواق طبعاً فلا يصبو لزاهية الجبين
وأنت لما خلقت لها مُهَيَّا كما ورد الحديث بدون مين

أي حديث!؟

إنه حديث الرّسول صلاة الله وسلامه عليه: «**كل ميسّر لما خُلق له**». ويشير الشّارف إلى أنّه لو لم يكن من طبعك وتهيؤك للإحساس بالجمال وتذوقه، والإحساس بالفن.. ولوافح الفن.. ولواعج الهوى.. لذويه.

فإذا كنت غير مفطور على التذوّق ولك «قابلية» للشوق والصبابة فلن تظهر بواعث الشعور ولا يصبك «حمى» الحب والصبابة.

بالتالي.. بمعنى أقرب ـ لن تصبو إلى زاهية الجبين.

نظرة.. إحساس.. طبائع.. قبسات يصورها أهل الهوى.

«وحامل الهوى تعب» كما عبّر النواسي!

إذا كان هذا ليس في حسّك ولا هو من طباعك، فدع ما ليس في طبعك إن كنت غليظ القلب.. لا تصبو لربات الجبين الزاهي.

ويحلّق الشاعر في سماوات الفلسفة الكونية.. الصوفية.. ويشرق.. ويغرب.. ويهيم ويكاد أن يصاب بشطحات أهل الشطح:

وذو الأسفار لا يجتاز بحراً على غير المدرع والسفين

تـرى كـل الـعـوالـم فـيـك تـطـوى وكـان الأمـر بـيـن الـقـبـضـتـيـن

هذا الإنسان بفكره، بجوهر نفسه ما معدنه.. كيف..؟؟

عجباً وأي عجب.. لا تتحيّر.. إن ذاك من جوهر الحقيقة.. هذا هو الإنسان الذي أشار إليه أبو العلاء قائلاً:

والـذي حـارت الـبـريـة فـيـه حـيـوان مـسـتـحـدث من جـمـاد

وأشار إلى حقيقة الإنسان الشّارف قائلاً:

وجـوهـر قـلـبـك الـشـفـاف عـلـوي وأنـت خـلـقـت مـن مـاء وطـيـن

عجب وأي عجب!

هل تدرج.. أم تطير بلا جناح.. من وادي الغزل.. الغزل ورياضه، إلى آفاق الفلسفة ومعترك الوجود الإنساني.

تـجـدد بـالـوصـال قـديـم عـهـد إلـى غـيـر الـمـكـونـة بـعـيـن

وبعد هذه الطوفة. والجولان في أودية صعاب يعود الشاعر في خفة الفراشة إلى نار الحب.. ورحاب الغزل.. ويخاطب مدير الكأس ـ ساقي الكأس ـ ولكنه ساقٍ ليس في حانة، بل في مجلس أحباب وصفوة خلاّن فيصف الساقي، وخمرة الكأس، وحياة الهائمين بالحب والهائمين بصنوف الجمال والدلال ـ ولولا أنه ينظر بعينيه جمال المحبوب لفدى المحبوب بعينيه.. إنه شهيد الحب والجمال، فإن مات من أجل الحب فهو شهيد يضاف إلى شهداء بدر وحنين، هل يطمئن العشاق يساقون في موكب الشهداء.

وما يضر الشعراء وأهل العشق إن شطحوا وبالغوا.

والمبالغة نوع من ضروب البلاغة.. والهيام من أسمى ألوان الشعر..

ثم إن الشاعر في هذا المجال يشير من طرف خفي إلى حديث الرَّسول: «من حبَّ فعف فكتم فمات فهو شهيد» على ذلك لا ضير أن يكون قتيل الحب وشهيد فتكات العيون شهيداً:

مدير الكأس أسفر عن محيا ... شهدنا فيه تلك الجنتين
شهدنا البدر تبزغ في يديه ... شموسٌ في كؤوس من لجين
لدى حان يحنّ إليه قلب ... توقع بالتقلب كل حين
نعيش به، وإن متنا أُضفنا ... إلى شهداء بدر أَو حنين
ولولا نظرة الأحباب يوماً ... لهان علي فيه ذهاب عيني
فما لي عنهم خلف إذا ما ... حجاب حال بينهمُ وبيني
فلو أحد يقوم بذاك عني ... لجاز البعد بينهمُ وبيني
ولكني الفقير ولا حميل ... يقوم إلى الغريم بحمل ديني
على أن الصبابة في تقضي ... بأن لقا الأحبة فرض عين
وإني إن رددت إلى سواهم ... قضيت على الفؤاد بردتين
لقد عبقت مجالسهم بذكر ... يطيب شذاه بين الخافقين

وتظهر تعابير الفقهاء ـ والمصطلحات الشرعية ـ في أمثال عبارة (فرض عين) و(ردتين)، فرض عين لا بد أن يقوم به ولا يمكن أن يقوم بواجبات الحب غيره، ردتين، وقد تلمس في هذا نوعاً من التكلّف في الأسلوب ولكن ما عسى أن تطلب، يستطيع أن يسهل الأسلوب الفقهي ويدمجه في قصيدة غزلية. ونحن لا نريد أن نجحفه فنكلفه ما لا يستطيع أن يتخلى عن أثر ثقافته ومؤثرات تلك المصطلحات.

نظرة فحب

يا شاعراً كيف عرفت الحب، وما بدايته عندك؟

أما كنت شيخاً ينكر الهوى، وينأى عن تباريح العشاق؟

أما نهيت وحذرت من خطر الحب وشراكه؟

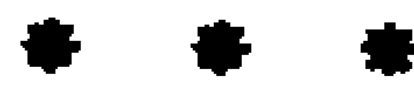
ماذا اعتراك؟

سؤال يجيبنا عنه الشاعر في أبيات أربعة مصوّراً وقوعه في شراك الحب من نظرة فتكت به لواحظ، وأردت به طلعة محبوب:

ما كنت أعرف لا الغرام ولا الهوى ... حتى نظرت إلى محياها البهي
ولكم نهيت سواي عن خطر الهوى ... لما هويت عذرت من لم ينتهِ
ولكم لقيت من الحوادث ما كفى ... وقد انتهت وصبابتي لم تنتهِ
وكرهت كل العاذلين لأنهم ... يدعونني لقبول ما لا أشتهي

لما هويت عذرت. أتذكر قولة القدامى: ذوقوا ثم لوموا؟!

وهذه النظرة التي ألهمته وألهبته فراح يصوّرها الشاعر هي نظرة إلى صاحبة الجمال الشاردة كالغزال، الخائفة من الرقباء والعذّال ولا سيما في بلد محافظ وفي المجتمع الليبي الذي كان يحرّم على الفتاة الخروج ويضرب الحجاب الصقيل بشكل مبالغ فيه.



وحب الشاعر من نوع الحب العفيف الشريف لم يَشِبْهُ دنس ولم تخالطه شوائب المعصية.

هكذا يقر ويدلي باعترافاته - وإن كنا لسنا في مجال المحاسبة - ونحن هنا لا يهمنا إِلاَّ الدراسة والشعر، ولا نكتب في سجل الحسنات والسيئات.

ولكنه يعترف بأنه عاشق من طراز قد لا يصدقه الناس.

حب من ذلك النوع النادر الذي يخاف صاحبه اللقاء وإن كان يتمناه. ويظل الشاعر أرقاً بين حيرتين.. ويتأرجح بين حالتين فهو عذاب مكرر في البعد والقرب.

وقد ذاق نفر من الشعراء من هذا اللون صنوف العذاب.

وسيد شعراء الحب العذري قيس، وأيضاً جميل بثينة، كانوا كما تدعي روايات الأَدب القديم، يحبون ويتحرّقون، ويكتفون برضى الحبيب، واللقاء على صعيد الوفاء.

وقد ينكر البعض - أَو الكثير - لا سيما في العصر الحديث ما يسمى الحب العذري كل الإنكار ويرون أشعاره وأقاصيصه ضرباً من الخيال أَو لوناً من ألوان المحال. ولكن مهما أنكر بعض أَو كثير من هؤلاء الناس فما زال في الوجود - حب عذري - يتمثّل في الهوى الصادق، والحب الشريف، حب من أجل الحب وتقديس الجمال، وهل لا بد أن نقطف ثمار الجمال، حتى نقول أحببنا.

الهوى العذري، منسوب إِلى بني عذرة وقالوا إنها قبيلة من قبائل العرب اشتهرت بالحب من غير دنس، ولا خطر الشهوة وأتون المعصية. وإذا علموا حباً وقع بين فتى وآنسة حرموهما من الاتصال.

وقد لهج بالحب العذري كثير من الشعراء في شتى العصور أيام ازدهار

الأَدب العربي وحتى في عصور انكماشه وتجمده، ولو على طريقة تقليد الشعر ومحاكاة موضوعاته.

ويطول بنا الاستشهاد والاستعراض.

وحتى الإمام «البوصيري» يشير في بردته إلى الحب العذري ويفرد له بيتاً فريداً:

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرة   مني إليك ولو انصفت لم تلم

وها هو «أَحمد الشَّارف» يشير إِلى العذال ويوضح عذره:

أما آن للعذال أن يقبلوا عذري   وقد علموا يا صاح أن الهوى عذري

فكم من فتى يهتز من خمرة الهوى   ولا بد للسكران من نشوة السكر

هوى الشاعر عذري، وحبه عفيف طاهر، فهل في هذا ضير أَو موطن عتاب وملام.. إنه يعترف بتقديسه لآيات الجمال ويهتز له، ويصوغ في حرارة شوقه اللافح، وغرامه المتزايد.

لقد ذاق طعم الحب.

أَو شعر به فاهتز وانتشى ثم صوّر وعبّر فكسب الأَدب من تعبيره وأناشيده صوراً حية نابضة مليئة بالحيوية والإحساس الصادق، وهو بعد الاهتزاز والنشوة يحن، ويشتاق، ثم ينتقل إِلى طور اللوم، والأنين وعندما يشاهد «القمري» يغرد، يرى في تغريده صورة من الحنان والحب، فغناء الطير ما هو إِلاَّ تذكير وهياج للحب القديم. ويخاطب الشاعر محبوبه مصوراً حالة القلب من غيابه:

يغيب سواد العين إن غبتم عنا   وتضحي قلوب العاشقين لكم رهنا

حقيق علينا أن نحنّ لقربكم وكم عاشق من فرط أشواقه حنّا
وما غرد «القمري» إلاّ تذكراً لعهد قديم كان فيه كما كنا

* * *

وفاء.. ولقاء

ويصف الشاعر بهجة اللقاء.. وبهاء الوفاء.. هي غادة بمسجف ذات عطف، وصاحبة قدّ أهيف، لحاظها فعلت بالشاعر الولهان فعل الحسام المرهف، يا للشاعر المرهف.

بماذا يشبه فرحة اللقاء.. والوفاء؟

هل يضاهي هذا روضة رقصت بها أعطاف مهفهف، أَو طير يسجع.. وما أكثر الطيور السواجع في حدائق الشاعر.

والحيا يبكي بدمع موكف، دمع ومطر، لا تنس أننا في بلد صحراوي يفرح بالمطر ويستبشر به ويراه فألاً حسناً.. والعرب في الصحراء يرقصون ويفرحون بالغيث.

المطر، ولا سيما في بلد يعاني مّن شدائد القحط ما يعاني فلا ينسى الشاعر فرحة المطر، والدمع الموكف يشبه فرحة اللقاء بـ «الحيا يبكي بدمع موكف».

حتى كأن الطير والحيا قد منيا بالحب ولواعجه الخطرة الملتهبة، وزهر فعل النسيم به فاهتز وأرسل شذاه وفوحه وهذا الجو الغناء، والطرب، والزهر، والطيور، والغيث، كلها أجواء مفرحة، باعثة على الأمل والحيوية والنشاط.

أشياء عطرة، عبقة، تبعث على الطيب مثل «مختوم الرحيق القرقف» وإن

كانت هاتان القافان كهزة السيارة في مطب حجري «قرقف» واحذر أن تبدل أحد الحرفين بالآخر.

وماذا تريد من شاعر يجيد اللغة.. ويحفظ الكثير من شواردها؟ أتعرف «القرقف» ما هو، رحيق قرقف؟ المهم. أو حصيلة هذا.. إن الجو والإطار الذي رسمه وزخرفه الشاعر كله لا شيء بالنسبة إلى لقاء الخل الوفي.

إنها بشرى، حملها البشير فعادت مثل قميص يوسف، وارتد بقميص يوسف بصر الرجل الذي هزّه الحنان وألهبه الشوق وأثرت فيه لواعج الحزن، ارتد نور البصيرة بلقاء الحبيب.

ولعل الشاعر «أَحمد الشَّارف» قرأ شيئاً من الأَدب الفارسي المترجم، فهو أدب غني بمثل هذا التراث وكثيراً ما يعرج أدب الفرس على قصة يوسف. وقد أثرت في الشعر الفارسي ولا سيما في الأَدب الصوفي منه.

وأثرت هذه القصص النبوية في أدب الفرس أكثر من الأَدب العربي.

ولنعد إلى قصيدتنا:

ما غادة بمسجف ... عطفت بقد أهيف
ولحاظها فعلت بنا ... فعل الحسام المرهف
أَو روضة رقصت بها ... أعطاف كل مهفهف
والطير يسجع والحيا ... يبكي بدمع موكف
حتى كأن كلاهما ... منيا بحب متلف
والزهر إذ هبّ النسـ ... ـيم برقة وتلطف
أهدى لنا طيباً كمخـ ... ـتوم الرحيق القرقف
أبهى وأبهج من ملا ... قاة إِلى الخل الوفي

جـاء الـبـشـيـر بـهـا فـعـا   دت كـالـقـمـيـص الـيـوسـفـي
وارتـــد نـــور بـصـيـرتـي   مـا كـنـت أحـسـبـهـا تـفـي

ويلاحظ فعل «ما» وصلتها أبهى وأفصح. . حالت بين الصلة والموصول آماد، أبيات حتى تكاد أن تنقطع أنفاس القارىء أو ينسى بالتالي الربط البعيد، ولكن شغله الروض والزهر فانساب مع المنظر الجميل يوشي ويزخرف، حتى أكمل الجملة وربطها أخيراً.

* * *

بلغْ سلامي

صورة.. وحالة

في قصيدة الشاعر تناثرت عبارات مثل: صب، بين، عذال.

ويخاطب على أسلوب التجريد، أَو مخاطبة الأصحاب، ثم ينادي السائر المسافر ليلاً ليبلّغ رسالته، ويحكي قصته، لأن صاحبه بعيد، والزَّمن غدّار جبار يفرّق بين قلب وقلب..

يا سائراً شاقني إذ جد مسراه   بلِّغ سلامي لمن لا زلت أهواه
بلِّغ عن الصب ما يلقاه من شجن   وصف له يوم جد البين شكواه
بلِّغ عن الصب أشجاناً تساوره   ليلاً ولم تكتحل بالنوم عيناه
كأنما الليل موكول بعهدته   حيث الكواكب يرعاها وترعاه
الضعف أقعده والذنب قيّده   والهجر هدَّه والشوق أظماه
وعاذلي جد في عذلي مكابرة   من حيث يعلم أن الحق يأباه
يا مجلساً كان لي عهد برؤيته   تطاول العهد حتى كدت أنساه
ويا حبيباً مضى عني فما بقيت   إلاَّ صبابة مشتاق للقياه
عهد به كان حبل الود متصلاً   لا الحبل يبلى ولا التغيير يغشاه
ولم يكن ليَ من آثار غيبته   إلاَّ تواصل أحزان بذكراه

ما أن جرى ذكره يوماً على خلدي إلاّ طفقت أقول الله، الله
يحار فكريَ في معنى إشارته ولو بلغت من العرفان أقصاه
بالسر قد خص أقواماً فكان على خلاف ما يبتغي العذال أجراه
صم عن الشر بكم في مجالسهم إلاّ إذا نطقت بالخير أفواه
سبحان من أظهر السر الخفيّ ولم يعلم بأسرار أهل الحق إلاّ هو

قد تكون هذه الأبيات نظمت في مناسبة خاصة، أَو وجهت إِلى أحد أصدقائه. قد تكون من الشعر الذي يوضع من نوع «الإخوانيات» أَو «المراسلات» كما تشير كراسة شعره.

ولكن في ميزان الاعتبار الفنّي والقياس الشعري تهمنا جوانب في القصيدة، جوانب الصورة العاطفية. تلك المقاطع التي يصدق فيها الإحساس وتبدو فيها خلجات تعبّر عن مشاغل قلب شاعر.

فهي قصيدة في إطارها وأسلوبها تنم عن حب دفين، وشوق كمين، لا يستطيع الشاعر إخفاءه، أَو لا يقدر على نكرانه.

ولعله وجد في المناسبة التي أرسل فيها قصيدته فرصة متاحة لتدفق عاطفته، وسبيلاً إِلى مسرب الغزل.. والتعبير عن دوافع بعيدة الغور في نفسه.

لا شك أنّها ذوب العاطفة المتبلورة.

ولا يمكن أن تكون هذه المعاني الشاعرية والتحنان مجرد «سرد» أَو تأتي هذه «الخواطر» في نسق القصيدة هكذا عفو خاطر ـ أَو مجرد نظم ـ أَو تحية في رسالة من رسائل الإخوانيات.

إنها ذات ألوان من بحر الواقع، وما أروع توزيع الشاعر للأدوار في مسرحية الحب.

كـأنـمـا الـلـيـل مـوكـول بـعـهـدتـه حـيـث الـكـواكـب يـرعـاهـا ونـرعـاه

يرعى الكواكب، وما هو أول شاعر يرعى الكواكب ويناجيها.

وطالما حدَّثنا الشعراء عن رعاية الكواكب، وعد النجوم، ومسامرة قناديل السماء.

والشاعر «محمود غنيم» بالطبع لم يقرأ هذه القصيدة وقد طرق هذا التعبير في قصيدته الهجرية: «ما لي أرى النجم أرعاه ويرعاني».

وقد كانت قصيدة الشَّارف أسبق في الترتيب الزمني.

ثم يوزع «أَحمد الشَّارف» الأدوار أَو على طريقة ما يسميه علماء البلاغة ـ التوزيع ـ لف ونشر:

الضعف أقعده: لقد كان أوان ذاك ضعف من الحب لا ضعفاً من تقدم السن فقد صاغ هذه القصيدة عندما كان شاباً.

والذنب قيده: أي ذنب!؟ وما أكثر ذنوب العشّاق ولو في مسرح التصوّر والخيال.. لعله ذنب الهجران وذنب الزَّمان.

والهجر هدَّده: وما أصعب وأمرّ تهديد الأحباء. إعلان الحرب.. حرب أخطر من صواريخ هذا الزَّمان.

والشوق أظماه: ظمآن.. لا يرويه إِلاَّ لقاء ووصال.

* * *

ما هو الحب؟

الحب.. ذلك الإكسير العجيب، هذا الساحر الجبار، الخفي المتسرب، والقوي المسيطر. هذا الحب الذي هز عروشاً، وسخر بتيجان وغزا الأكواخ والقصور، وأجن قيس ليلى، وهزم عنترة. وهزء من أنف «كليوباتره» وأرغم كبرياء «زليخا» والذي حار فيه الشعراء من عهد هبوط حواء. هذا هو الحب أتعرّفه لنا يا شاعراً في كلمات قصار.

إن أخطر الأشياء يصعب تعريفها كما يصعب تعريف البديهيّات وهل هناك أخطر من الحب؟

فيه مطولات، آلاف الشعراء على شتى العصور والأزمان واللغات. قالوا عن الحب، ووصفوا الحب.

وأحمد الشَّارف هنا يحاول أن يصف الحب، أن يعرّف لنا ما هو الحب.

هل يندرج تحت تعريف وتقنين، هل يخضع للتقويم!؟

فلنر كيف يصوّر معناه أو محاولة تحديده، وتحديد الحب وتعريفه ليس بالشيء السهل:

هو الحب حتى يضرم الشوق في الحشا ... ويترك من يهواه يفعل ما يشا

تغيب عن اللاحي غوامض سرّه ... وإن بحث اللاحي عليه وفتشا

أموت فيحييني سماع حديثه ... رعى الله من أحيا الفؤاد وأنعشا

لساني على ذكر الهوى متعود   وقلبي على دين المحبة قد نشا
أقدم للندمان عند جلوسهم   بساطاً بأسرار المعاني مزركشا

* * *

لقد حاول أن يصف أعراضه وظواهره.

ضرام في الأحشاء يجعل العاشق مسلوب الإرادة ويترك المحبوب يفعل ما يشاء بالعاذل واللاحي، هؤلاء المخدوعون لا يدركون غوامض سرّه مهما صنعوا، ومهما حاولوا أن يفتشوا..

بهذا التعريف الموجز البسيط يحاول أن يحدد ويعرف لنا الحب، فهل أصاب؟ عند المحبين الجواب وعند المجربين فصل الخطاب، وقد يكون شاعرنا من هؤلاء.

* * *

ليـل وحـظ

ونادى المحب ـ يا ليل ـ وطرب المغني وترقرقت حناجر ـ يا ليل ـ وهتف سمار. . ولكن ليل المحبين فيه شكوى من الليل ويردد آهاته. . ويكرر في آهات. . يا ليل يا عين، وحتى الشاعر ـ الحصري ـ يسأل الليل:

يا ليل الصب متى غده؟

وأبو فراس يحكي حاله مع الليل: إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى.

وقبلهم قال شاعر المعلقات «ألا أيها الليل الطويل».

أما «أَحمد الشَّارف» في قطعته هذه فعنده حظ. لقد نال من المحبوب أَوطاراً. . بل هذا المحظوظ غداً يقابل بما عنده وعند الليل. . هو في ليل سعيد بالوصال. . ولديه من أحبائه أقمار. . وتذكار. . وسمار وأدوار ونوار حتى كاد أن ينسيه كل هذا. أوكاراً وأوطاناً. . فرح نشوان يكاد يرقص جذلانَ وفي هذه القصيدة لا يشكو ولا يئن بل يبتسم في نشوة البهجة والحبور. . وينادي الشاعر الليل ليقص عليه بأن هناك روضة بحليّها وحبيبها تنسي الوطن والوكر.

يـا لـيـل عـنـدك لـي حـظ ومـقـدار　　إذ فـيـك تـقـضـى مـن الأحـبـاب أوطـار

إن كـان يـا لـيـل في أفـق الـسـمـا قـمـر　　فـقـد تـبـدت لـنـا فـي الأرض أقـمـار

يـبـكـي الـنـهـار إذا جـن الـظـلام لـهـم　　واسـتـبـشـرت بـقـيـام الـلـيـل أسـحـار

ولـلـمـسـامـع مـن أفـواهـهـم درر ولـلـقـوافـي ولـلـكـاسـات أدوار
بـسـاط قـربـهـم أضـحـى يـزبـرجـه مـن الـسـلافـة أسـرار وأنـوار
فـي روضـة ذات أنـوار يـدبـجـهـا فـكـر وذكـر عـلـى شـوق وتـذكـار
إذا حـلـلـت بـهـا يـومـاً وهـمـت بـهـا فـلا تـهـمـك أوطـان وأوكـار

* * *

على حب المليحة قد تعوّد

شيخ يتغزّل.. وهو صب متيّم.

لقد عجبت الفتاة ودهشت وما درت من قبل أنه قد «أحب القس سلامة».. وشاعرنا يهيم بالجمال.. ويشطح في أودية الغرام ويطربه صوت «معبد» وما سمع «معبد» ولكن سمع عنه.

أما صوت «عبد الوهاب» و«أم كلثوم» فقد سمع منهما الأنغام وطرب لها.

تعجبت الحسناء، وما أكثر عَجب الحسناوات وعُجبهن.

إنه في جبة وقفطان، ولكن الحسّ الفنّي منه يقظان وله ظمأ إلى الحب فهو عطشان، ولو على سبيل فتاة الحي.

أتراه أخو نسك يقول:

تعجبت المليحة إذ رأتني ... على الشوق المبرح صرت «أحمد»
وأوهمها شعار العلم أني ... أخو نسك بمحراب تهجد

هذان البيتان يعطيان فكرة عن الشاعر وقصّته في معارك الجمال.. ونود أن نعود إلى أول القصيدة فلا نريد أن نفلت منها بيتاً فهي قطعة تشهد بدقّة الحس، حسّ الشاعر وهيمانه بالجمال وتقديره لربّات الدلال ـ ولو كره المتزمّتون ـ ولو رمونا بالويل والثبور.

ويبدأ الشاعر متسائلاً:

أتطمع أن يكون إليك منجد عذول متهم وهواك منجذ
فلا والله ما شرب الحميا ولا عشق المليحة غير أمجذ
عذولي - قد أطلت - إليك عني فلا تكثر عليّ ولا تندد
ودع عنك الملامة إنّ قلبي على حب المليحة قد تعوّد
أنا الصب المتيم في هواها إذا هب الصّبا يوماً تنهذ
أهيم بكل سحر بابلي وأشطح في الغرام بصوت «معبذ»
تعجبت المليحة إذا رأتني على الشوق المبرح صرت «أَحمذ»
وأوهمها شعار العلم أني أخو نسك بمحراب تهجذ
ولم تعجب لألحاظ حكتها سيوف وهي في الأحشاء تغمذ
وتفترس الغضنفر وهي ظبي فواعجبا إِلى ظبي تأسد

* * *

كؤوس اصطباح واغتباق

في مجال الحب يحلو الشراب لدى الشعراء

وهذا كأس «الطلا» يقدمه الشاعر ويحتسيه من كف ساقيه

إنه شعر

ما فائدة الكأس!؟

لعلها تزيل البرحاء، أَو تخفف شيئاً من الآلام، لعلّها تجود بالوصال واللقاء، عسى أن يكون من ورائها شفاء قلب من ألم فراق ممض.

خذي كأس الطلا من كف ساقِ   على برحاء وجدك بالتلاقي
فربّما يحس من احتساها   شفاء القلب من ألم الفراق
نديمي نادم الندماء واشرب   كؤوسك في اَصطباح واَغتباق
وحاذر أن تكون مع الندامى   على عهد المحبة غير باق
وإن آنست يوماً فيه نقضاً   فشد عليه حبلاً من وثاق

* * *

وجه وبرقع وشباك

ومليحة طلعت بوجه أروع ... فسرى النسيم بعرفها المتضوع
نظرت إليّ وقد وقفت أمامها ... نظر الغني إلى الفقير المدقع
وقفت قليلاً في «الشرافة» واختفت ... تحت المطارف خشية المتطلع
خوف المباغت لا تطيل حديثها ... كي لا يعيه وبغيتي ألا يعي
لم تبرح الرقباء عنها ليتها ... كانت وكنا في الفضاء الأوسع
الشمس يخفيها السحاب ووجهها ... لم تخفه إلاّ سحابة برقع
غير الأريكة ما لها من متكا ... غير الحظيرة ما لها من موضع
طلبت سبيلاً لا أريد سلوكه ... فمشيت فيها مشية المتسكع
لعبت أناملها على قيثارة ... وشدت إليّ بصوتها المترجع
قالت لقد أزف الرحيل فروّعت ... مني الفؤاد وكان غير مروّع
فسألتها كيف الوصال فأنشدت ... قولَ المعري عندما وقفت معي
فعلمت أن الوصل أصبح دونه ... خرط القتاد وهول يوم المفزع

* * *

صبُّ جفاه حبيبه

من قصائد الشاعر التي سرت في مجالس الأدباء وحفظها رواة شعره، هذه القطعة التي حوت خمسة عشر بيتاً، وتعد من القصائد «المركزة» التي جادت بها قريحته في شبابه، وصوّر فيها لوعة الحب، والقلب الحائر في مسرح الجمال، وفتكات العيون، وأشار إلى عذاب صاحب الحب بالهجران، وفند العذال واللوام.

فاللواحظ سيف فتّاك، والحبيب يقتل والله يثيبه. وهو بدر لا كالبدور، وغصن، إلى ما شاكل هذا من تشبيهات، لولا صياغة القصيدة وبنائها الفنّي لكانت مكررة مجترة أمثال هذه التشبيهات:

فحسن الحبيب كحسن يوسف، وهو في أشجانه وصبره كيعقوب.

ويسمعه صاحبه فيصدقه الحديث. وإذا مررت «بالعمائم» فقل لهم إن الذي أضنى السقيم طبيبه. ولا داعي أن تنهضوا أو تتعصبوا لابن قبيلتكم فإن جيوش الهوى وقوة الغرام لا يمكن التعرّض لها وصدّها.

فإذا سطا الحب ورمى «كوبيد» بسهامه فلا فائدة ترجى من الاستغاثة بالأقرباء وأهل الحمية. إنما الشاعر يكتفي بإخبار قبيلته بأمر الحب بدون أمل في إنقاذه وإسعافه.

ومن الملاحظ أن «العمائم» في القصيدة تشير إلى قبيلة في بلدته، ويبدو أن الشاعر كان يرمز إلى فتاة هناك حالت التقاليد دون الإفصاح عنها. في مجتمع غلّفته دنيا الحجاب:

صبٌّ تعذّب إذ جفاه حبيبه والصب يعذب في الهوى تعذيبه
أهوى الهوى فهواي جاء مركباً ما جاز عند عواذلي تركيبه
كيف الملام على صبابة عاشق يرضي بها معشوقه مطلوبه
ملك تحكّم لا مردّ لحكمه أبداً ولم تكتب عليه ذنوبه
إن جاء يسألني مذاقة علقم فأبين شهوة أكله وأجيبه
أَو همّ يقتلني بسيف لحاظه فدعوه يقتل والإلهُ يثيبه
أيعارض المظلوم في تشبيهه بمحاسن القمرين وهي عيوبه
إن قيل «مثل البدر» فهي مقالة من حاسد بالمنكرات يعيبه
أَو قال مادحه «كغصن ينثني للناس» فهو عدوه ورقيبه
فالعين من شوقي له تبكي دماً والقلب فيه زفيره ولهيبه
فكأنّه في كل حسن يوسف وكأنني في شجوتي يعقوبه
يا صاح فاسمعني ولست بكاذب وأخو الصداقة لم يجز تكذيبه
قل «للعمائم» إن مررت بحيّهم أن الذي أضنى السقيم طبيبه
لا تنهضوا لبنيكم، لا تجزعوا جيش الهوى لا يستطاع حروبه
فإذا سطا ورمى السهام على امرىء لم يغن عنه حبيبه وقريبه

* * *

معارضة الحصري: صبّ قد بان تهتّكه

المعارضات فن جال في أرجائه الشعراء. وقد عرف الشعر العربي معارضات لقصائد البحتري والبوصيري، وأشهر الشعراء الذين «عارضوا» شوقي، فقد عارض «ابن زيدون» في نونيته، والبحتري في سينيته والبوصيري في بردته والحصري في هائيته.

وها هو «أَحمد الشَّارف» يعارض قصيدة «الحصري»:

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

وهي أروع تحفة شعرية خلدت الشاعر القيرواني الضرير.

وقد ظلت قصيدة «الحصري» مطمع الأدباء الشعراء في فن «المعارضات». شعراء من كل عصر ومصر. ولكن ظلّت قصيدة الحصري تقف في القمّة لم تطاولها قصيدة على كثرة المعارضين والمقلّدين.

وها هو الشاعر الشَّارف يحذو حذوها، ويمسك بمغزله لينسج مثلها، فينظم ـ شأن المعارضات ـ من البحر والقافية والروي كما هو شرط فن المعارضات ـ وعبارة ـ يدكدكه ـ كيف تمر على الأذن؟!

صب قد بان تهتكه   وبطيب الشوق تمسكه

وله جلد لو مرّ على   جبل في الأرض يدكدكه

فإذا ما هم على جلد   ضاقت في الأرض مسالكه

ويود لمهجته رمياً بسهام اللحظ فيهلكه
ويؤرقه طيف أضحى قمر في الحسن يشاركه
ويخاصمه في القلب إلى أن صح إليه تملكه
فإذا ما رمت أصالحه لم يسع القلب تداركه
طاف المشتاق بكعبته وبذاك يتم تنسّكه
وإذا ما فارق من يهوى تنسد عليه مسالكه

* * *

صبٌ وزفرات

صبٌّ إذا هب النسيم تصاعدت زفراته وتحادرت عبراتُه

تعذيبه في قطع من يهدا به وحياته في وصله ومماتُه

هيهات أن يخفى الهوى في عاشق نزلت على جثمانه آياتُه

ومن العجائب أن شخصاً يدعي حباً وما ظهرت عليه سماتُه

يصبو المحب إِلى حديث غرامه ويود لو تصف الحبيب رواتُه

والشوق يسكن في الفؤاد وكلما هب النسيم تحركت سكناتُه

فالعاشقون رجال ميدان الهوى نصبت على هاماتهم راياتُه

* * *

عمر بن الفارض سلطان العاشقين. . الشاعر الصوفي. تأثّر به «الشّارف» وأُعجب به وكان ديوانه وأنغامه من المطالعات المحبّبة إليه. ونجد الأديب الليبي ينظم على نمط «يائيته» شيئاً من الشعر وإن كانت قافية حرف الياء من أصعب القوافي لدى الشعراء. وأبيات صاحبنا في الحب وشؤونه، يوضح أن اللوم على العشّاق لا يجدي شيئاً وأن قلب المحب يستدعي الرفق لأن قلب المحب تكويه نار الشوق كياً. وهذا الشوق هو إلى ذكر الأحبة. وهو شوق «مؤبد» ولست أدري كيف تزحلقت هذه العبارة إلى شعره. وهو أيضاً شوق «سرمدي» ما دام حياً.

وهو حب أَو شوق لا يستطيع تبديله كأنه «وقف»، وهذه أيضاً من زحلقة عبارات الفقهاء.

ويخاطب مبعث شوقه الذي أضحى لحسن حديثه يلوي عنقه لياً.

وهل تطول رقبة الشاعر من كثرة «ليّ» العنق أم غدا «زرافة» لا يضره التواء العنق ومدّه. مبالغة في تطاول العنق والإنصات. وحتى كأس العذاب وجده مستساغاً عذباً. مبالغة تضاف لمبالغات. أَو متى خلا شعر هؤلاء من أساليب المبالغات؟

ثم هو يفوه «بلفظة» قد لا يدرك معناها ومرماها الكثير. ولكنها من الحب وفي سبيله. والله يعلم لأي شيء كانت هذه اللفظة، هل هي من الرمزيات أم

من الأَدب المحجّب، أم من كنايات العاشقين وشعر الذي يدع القارىء يفكّر متسائلاً: لأي!

ومن الجدير بالإشارة والإشادة هنا أن الفنان والموسيقي المبدع الليبي الملحن «يوسف العالم» لحن هذه القطعة وغناها بصوته وحدثني أنه بصدد اختيار قصائد أخرى من الديوان لتلحينها وغنائها. . .

* * *

يـــا لائـمـي والـلـــوم لا يـجـدي عـلـى الـعـشّـاق شـيْ
رفـقـاً بـقـلـب لـم يـزل يـطـوي كـتـاب الـصـبـر طـيْ
رفـقـــاً بـقـلـــب مـدنـف يـكـوى بـنـار الـشـوق كـيْ
شـوقـاً إلـى ذكـر الـحـبـيـب فـلـيـتــه شـوقـــاً إلـيْ
شـوقـــاً إلـــيّ مـؤيـــد ومـسـرمـد مـا دمـت حـيْ
لـم أسـع فـي تـبـديـلـه فـكـأنّـه وقـــف عـلـــيْ
يـا مـن لـحـســن حـديـثـه ألـوي عـنـان الـسـمـع لـيْ
وسـقـيـــت كـأس عـذابـــه فـوجـدتـــه عـذبـــاً لـديْ
وبـه سـقـيـت مـن الـهـوى كـأس الـعـنـا ورويـت ريْ
كـم فُـهـت عـنـك بـلـفـظـة والـلّـه يـعـلـمـهـا لأيْ!

* * *

هل تعرف قصيدة «ديسان»[1]؟

ما أظنك تعرفها وكيف لا وهي لم تنشر، ولم يتعرف إليها جيل الأدباء في ليبيا، ولكنها قصيدة مشهورة كما يقولون ـ سارت بذكرها الركبان ـ نظمها أحد شعراء ليبيا القدامى ـ الأديب الفطيسي من أدباء زليطن ونهج على منوالها متأدّبون، عارضوها، وشطروها. . منهم الشاعر المبدع بادي.

وأيضاً لحنت وأطرب بها المطربون في طرابلس.

ما لنا ولقصيدة «ديسان» هل نكتب على أسلوب «المستطرف» أم «مخلاة» صاحب الكشكول! ألوان وعطارة، وخليط بضاعة مزجاة. . لا. . إنما نكتب هذا ونشير إليه لأن هناك داعٍ لهذا ولأن أحمد الشَّارف كان من أدباء ذلك الجيل الماضي الذي عاصر الشعراء والأدباء الذين كانوا يعجبون بقصيدة «ديسان» وها هو يشير إليها في قصيدته هذه ويحن إلى تلك المواطن. . حنين شعراء الجاهلية إلى الأطلال والمرابع يصورها شعراً فتهزه. . ولو أتيح لك أن

(1) قصيدة «ديسان» للشاعر ـ محمد الفطيسي ـ من زليطن كانت له قصة حب صاغها في قطعة فنية:

انظر يميناً فذاك الطود ديسان — وانظر شمالاً فهل في الربع خلان

هذه منازل من تهوى فأين همو — لم يبق ممن هويت اليوم إنسان

وقد شطرها الشاعر «بادي» وقد قمت بنشر القصيدة والتشطير في صحيفة الأسبوع الثقافي بعنوان الشيخ والحب ـ ع. المصراتي.

ترى هذه المرابع والأطلال لما هزتك. . وهنا إبداع تهاويل الشعراء.

عندما كنت في الحجاز سألت عن مواطن ومرابع ذكرها شعراء الجاهلية وأبدعوا في تصويرها، فعندما دلوني عليها ووقفت أمامها ما رأيت فيها شيئاً سوى كثبانٍ وآكام.

ولكن الشعراء المصورين كانت لديهم ذكريات ومعان وصور هزّتهم وأوحت إليهم بالغناء والإنشاد والحداء، فالشاعر يرى من الأماكن والأطلال ما لا يراه الإنسان العادي من الذين يمرون مر الكرام أَو الذين لا تربطهم بالمكان ذكريات، وهذا المكان «ديسان» موجود في المنطقة الشرقية بطرابلس.

ولكن من يجد المعاني التي حرّكت شعراء تلك الفترة، نحو هذا الجبل. ثم هل بعد بنا المجال وشططنا عن الشوط!؟

ومرة أخرى. هل تذكر قصيدة «ديسان»؟

ثم هل تذكر حمامة للشاعر العربي الفارس. الفارس الأسير «أبي فراس»؟

ما أبعد الزمان، ما أبعد المكان!

هل بدأ القلم يهرف، وللأقلام ـ أحياناً ـ تحاريف. .

كلا فالقلم في يدنا لم يصبه تجديف. .

ما زلنا إزاء القصيدة للشاعر «أَحمد الشَّارف» التي جمع فيها بين «ديسان» و«حمامة أبي فراس».

ومسرح الذكريات أَو اقتناص الذكريات وتصويرها لدى الشاعر يجمع بين الأزقة والوديان والأحياء والشطوط وإن تباعد الزمان والمكان.

فالشاعر في حالة من حالات الذكرى. .

ها هو يمر بـ«ديسان» الواقع في الطريق إِلى بلدته. تذكَّر فيه أحبته وتذكّر

أناشيد الشعراء فيه، وخلانه الذين رددوا القصيد، فهزّته أشواق الذكريات، وما أرق قلوب الشعراء.

ها هي أخيراً الأبيات بها إشارة لديسان.

فـؤادي زائـــد الأشـجـــان   ودمـعـي بـعـدكـــم هـتَّـانْ
كـأنـي مـــن سـهـادي لـم   أبـث إلاً عـلـى الـسـعـدانْ
فـوالـهـفـي عـلـى عـهـد   مـضـى فـي غـابـر الأزمـانْ
بـذات الـشـيـح ذات الـطـلـح   ذات الـرمـل والـكـثـبـانْ
أراهـا الـيـــوم قـد أخـوت   وكـانـت مـرتـــع الـغـزلانْ
ولـولا جـيـــرة كـانـــوا   بـذاك الـحـي فـي ديـســانْ
لـمـا عـانـيـــت أشـواقـي   ولا طـابـت لـيَ الأشـجـانْ
وذات الأيـك قـد سـجـعـت   وقـد قـامـت عـلـى الأغـصـانْ
فـقـلـت لـهـا تـعـالـي ولـتـبـ   ـكـي مـعـي عـلـى الأحـزان
فـقـد نـاداك مـن يـبـكـي   أسـيـر مـن بـنـي حـمـدان

* * *

ما أعذب الوصل

ومن ألوان شعره الأبيات ذات النظم والإيقاع السهل من ضروب ألوان «الموشحات». ونكتفي هنا بهذه القطعة فهو قد نظم من هذا عديداً:

يا صاح صح مزمزما   وشنف السمع بما
يقرض بعض الندما   يا ركب سر نحو الحمى
مستعذباً مُرَّ العنا

مستعذب التعذيب ما   دمت محباً مغرما
وبالعنا متسما   فما يلذ غير ما
يلسع فيه من جنى

ما أعذب الوصل وما   أحلى الزلال عندما
تشربه على ظما   وهل وصال دونما
يفنى إليه من دنا

يا ركب سر وسارع   إلى حماه المانع

واذكر بقلب خاشع وشنفن مسامعي
بذكره دون الكنى

يا ركب سر واطو الفلا شوقاً إلى تلك الحلا
واعكف على كأس الطلا ولتسقني راحاً على
تذكار عيش جمعنا

وزحزح الوهم وخذ في الحب ما طاب ولذ
إذ لست في العشق نبذ واخلع حجاب الكون إذ
في نزعه يدنو الجنى

وغض طرف الجفن عن حواجب الظبي الأغن
واعشق بذلّ واستكن واحذر أُسود البيد إن
وافيت أهل فرقنا

واصدع بشوق متلف مع النديم المتحف
وابكِ بدمع موكف وانزل بروض حل في
أرجائه موت الفنا

واسمح بما أوتيت من غوامض الفكر الحسن
وانف عن القلب الحزن وقل أنا نزيل من
لولاه ما عانٍ عنا

لـولاه لـم يـعـطـف عـلـى جـرعــاء دار ثـمــلا
ولـم يـقـف مـبـتـهــلاً بـكـعـبــة الـشــوق ولا
بـهـا يـطــوف مـعـلـنــا

بـهـا يـطـوف حـافـيـا لـعـهـدهـا مـوفـيـا
ومـن سـواهـا صـافـيـا مـلـبـيـاً وداعـيـا
لـحـجـهـا مـدنـدنـا

* * *

هيام وفتنة

يا مزرياً بحياتي ومستخفاً بحالي
وتاركي في هيامي من فتنة وجمالِ
لا زال حبك ملهى ومسرحاً لخيالي
كم بت أندب حظي من هجرك المتوالي
لولاك ما رشقتني سهام قيل وقالِ
ونلاي من فرط وجد ومن دعاة الضلالِ
درست فيك خلالاً وما درست خلالي
علمت أنك سالٍ ولست عنكَ بسالِ
ما رمت منك وصالاً إلاَّ كرهت وصالي
إن ملت نحو يمين تميل نحو شمالِ
كم بات قلبي شجياً وبات قلبك خالِ
أكان ذا منك صداً أم كان محض دلالِ
قل لي بحقك ماذا رأيت من سوء حالي
أدار فيك وإني لم أدر كيف مآلي
لقد بدا عنك صبري يدور حول خيالي

لو كنت أملك أمري ... لزمت ما قد بدا لي
وصاحب قال دعني ... أقول غير مبالِ
إليك مني دليلاً ... يرد كل احتمالِ
لا تطمعن بحظ ... من هيبة وجلالِ
فكل ما فيك عيب ... ما دام جيبك خالِ
لو كنت قارون قوم ... لكنت مولى الموالي
وهكذا كل يوم ... تبدي صروف الليالي
فكن مع الدهر سمحاً ... والاكَ أم لم يوالِ
وللضرورات حكم ... ينفي صفات الكمالِ

* * *

كأس الحديث وليلى

أحاديث عن ليلى بها الليل يقصر ... يهيم بها قلب المحب ويسكر
إذا مازج الأفكار ترياق ذكرها ... تروق وتصفو وهي لا تتكدر
وقد جمع الساقي عليها أحبّة ... وجمع سوى الأحباب جمع مكسر
يدير لهم كأس الحديث مكرراً ... وأحلى حديث العاشقين المكرر
وليس يدير الكأس إلاّ مهفهف ... بهيّ المحيا ناعس الطرف أحور
فقلت لمن يعطيه كأساً مزمزماً ... ومن نفحات الشوق أضحى يعطر
تنعم بما ترضى من المجد والعلا ... فيومك مسعود وليلك مقمر
تعارض قلبي في الغرام وعاذلي ... فلا عاذلي ينبو ولا القلب يصبر
فللعين من تذكار ليلى صبابة ... وللقلب من نار الغرام تسعر
ولا غرو في عين عليها قريحةً ... ولا غرو في قلب لها يتفطر

* * *

هل من سبيل إلى وصل!

تشابه الدمع من عيني والمطر ... وواكف الدمع لا يقضى له وطر

وهل تؤمل عين من أحبتها ... سوى البكاء إذا ما فاتها النظر

وهل سبيل إلى وصل أؤمله ... فيستلذ لي التأميل والفكر

وهل لتجديد عهد الوصل من خبر ... ولو بتسويف ما يأتي به الخبر

والمطل يحسن من ليلى إذا وعدث ... بزورة وظلام الليل معتكر

وليعشق الناس ما تختار أنفسهم ... من زينة الكون قلوا فيه أو كثروا

فما دعاني إلى وجدي وتيمني ... إلاّ القوام وإلاّ الطرف والحور

أقول للنفس جدي السير لا عرج ... واستنظمي الدر لا عي ولا حصر

لا تحسبي الحب دون الموت منزلة ... أهل المحبة أموات وما قبروا

أنا الذي عند ليلى عز مطلبه ... وقلبه بمزيد الشوق منفطر

وفي سبيل العلا أضحت مطالبه ... نحو الأحبة لا يجري بها القدر

وبالتقلّب قد أمسى على خطر ... وفي مهاوي الردى يهوي به الخطر

متى أمدّ حبال الوصل عارضني ... في الحي كل عزيز النفس مقتدر

وطالما كانت الأيام تمنحني ... ساعات وصل ولكن حقه القصر

ممتعاً بليال كلها غرر ... وهل تعود ليال بعدها أُخر

بالشفع والوتر كانت من أحبتنا طاب الشراب وطاب الكأس والوتر
أحبة ذكرهم قوت ومجلسهم نشر الثناء على أرجائه عطر
ما خلتهم سئموا وداً ولا نكثوا عهداً ولا سامهم كبر ولا بطر
قوم فما استكثروا يوماً لأنفسهم فضلاً ولا فاتهم عفو إذا قدروا
مضى الشباب وأبقى من أطايبه ما قد يكون لنا ذكرى ومدّكر
ما زال حبهمُ في القلب مدخراً والحب أنفس ما يبقى ويدّخر

* * *

أعلام الهوى

إليكم معشر العشاق أعلام الهوى تنشر
وشمس الفضل قد لاحت وروض الوصل قد أزهر
وأنوار المنى والأمن قد لاحت لمن أبصر
فمن يحظى بلقياكم غدا بالأنس مستبشر
ومن ترضونه عبداً تحلّى بالهنا الأوفر
سرت أنفاسكم مسرى نسيم فاح بالعبهر[1]
فما في الدهر أخبار كأخبار لكم تؤثر
فما أحلى حديثاً من حلا أوصافكم يذكر
فطوبى للذي وفى لكم عهداً وما قصر
غدا في نهضة منكم وعن ساق الهوى شمّر
وتبّاً للذي جافى ونعساً للذي أنكر

(1) العبهر: النرجس.

في سبيل الحـب

عندما تخلى الملك «إدوارد» عن عرش بريطانيا من أجل حبه امرأة هي السيدة «سمبسون» وكانت تناهز الأربعين من عمرها.. وتزوجت مرتين قبله وآثر الحب على الحكم والعرش، نظم الشارف هذه القصيدة بعنوان «في سبيل الحب» ونشرت في 1938 إفرنجي.

في سبيل الحب في حب الوفاء ... أبدل العزّ بذلّ الضعفاء
هل ترى في الحب من يعذره ... غير جمع من كرام الأدباء
إن من يعذل أرباب الهوى ... عذله من هذيان السخفاء
ترك الملك جزافاً ورأى ... أنه حل محل السعداء
في سبيل الحب لم ينظر إلى ... قيمة الكفؤ وفضل النظراء
وحياة الصب في بغيته ... فوق تحت الأرض أو فوق السماء
والهوى وطأته أرسخ من ... وطأة الملك وكبر الكبراء
أعلن الوصل بمرأى ورضا ... في أمان من عيون الرقباء
لم يدع للقوم في حادثة ... من جواب، غير قول القدماء
قضي الأمر وما تحت القضا ... عميت عنه عقول الحكماء
إن للحب شؤوناً لم يحم ... حولها غير خيال الشعراء

مـــا أثـار الـحـب إلاَّ غـنـج   أو دلال مـن ذوات الـخـيـلاء
لـيـس بـالـصـالـح لـلـمـلـك ولا   يـألـف الـمـلـك شـديـد الـبـرحـاء

* * *

غصن مميّد

أزل ظلمة البلوى وكل التنكد بشمس تجلت فوق غصن مميد
وكرّر حديث الشوق جهراً ولا تمل لرأي عذول أو كلام مفند
وأنشد حديثاً قيل في زمن الصّبا بتحريك أوتار ونغمة «معبد»
فلا عبرة تشفي الفؤاد من الجوى ولا غلة تشفى بدمع مبدد
ولا فئة العذال يقبل عذلهم ولا هم على حوض الغرام بورّد
ولا حال مردوف بكل ملمّة كحالة مشغوف من الحب مكمد
ولا وقع لحظ فوق خدٍّ موردٍ بأهون من وقع الحسام المهند
يلوم عذولي في هواي كأنما يلوم رميماً تحت صخر مجلمد
لقد زهدتني في السلو وكرّهت إليّ شراب العذل في كل مورد
عقائد حب بالوضوح تبرهنت فما أنا ذو جهل ولا بمقلد
أيا ملزمي صداً ولا صد مجرم ومعتدلاً قد لا يجور ويعتد
أخذت فؤادي تحت حكمك موثقاً وخليت دمعي مطلقاً لم يقيد
وبدلت «مغناطيس» أنسي بوحشتي وجفناً غموضاً لي بجفن مسهد
أبيت ولي جفن يسح وليس لي على قطع إرسال المدامع من يد

* * *

عذاب في جحيم الهوى

علامَ التخلي عنهمُ والتجنبُ ... ولم يك إلاّ حبهم لك مذهبُ

وحتّام لا تنفك تنفك عنهم ... فهل لسواهم لذة العيش تنسب

وفيم التسلي عن منازل حبهم ... وكم لك في تلك المنازل مطلب

هم الحيّ إذ بانوا أصيلاً كأنما ... بروحيَ أظفار المنية تنشب

وقد أعربوا أسماء بالرفع جهرة ... ولا غرو في أسماء بالرفع تعرب

إلى مدحهم تحتاج كل بديعة ... وفي ذكرهم لف ونشر مرتب

إذا قابلوا شَرقاً تبهج مشرق ... وإن واجهوا غرباً تبهج مغرب

لئن عذبوني في جحيم هواهمُ ... فتعذيبهم في منهج الحب يعذب

وإن أتلفوا عقلي فما أنا قائل ... بتضمينهم إتلاف شيء يغيبُ

فلو علم اللاحي جهنم حبهم ... لأصبح منها خائفاً يترقبُ

أحبة قلبي ما لقلبي سواكمُ ... ولم أره عن حبكم يتقلبُ

لبعدكمُ ضاقت عليّ مذاهبي ... فلم أدر من أي المسالك أذهب

أبى الذل إلاّ أن يكون لعاشق ... أما عندكم شيء من العزّ يطلب

* * *

ذلّ الهــوى

دع الـدهـر يـفـعـل مـا يـشـاء فـإنـمـا نعيمي وبؤسي في حياتي قد استوى
شديد القوى مثلي على كل حادث ولـكـن عـلـى الـتـفـريـق لـيـس لـه قـوى
نـسـيـم الـصـبـا أخبـر فـأنـت رسـولـهـم وكـل رسـول لـيـس يـنـطـق عـن هـوى
فـلـم يـكـفـنـي إلاّ حـديـث رويـتـه وأنـت لـدى الـعـشـاق أحـسـن مـن روى
أحـبـة قـلـبـي مـا لـقـلـبـي سـواكـمُ وهل بعد ما يهواكمُ يطلب السوى
ألا ليت شعري كيف تسكن بعدكم جـوانـح مـشـتـاق أضـرّ بـه الـجـوى
فـلا تـعـذلـوني إن طـلـبـت وصـالـكـم بـذل فـإن الـذل ألـيـق بـالـهـوى

الهوى العذري

أما آن للعذال أن يقبلوا عذري ... وقد علموا يا صاح أن الهوى عذري
فكم من فتى يهتز من خمرة الهوى ... ولا بد للسكران من نشوة السكر
وكل الذي يهوى هواي فإنه ... «أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري»
إذا مر في ذكر الحجاز هويته ... لعل اسم من أهواه يدرج في الذكر
فلولاه ما اهتز الفؤاد لعاشق ... كما اهتزت الأكوان في المهمه القفر
وكم من فتى يهوى ويحظى بقربه ... ويرفل في ثوب المهابة والفخر
تذلل حتى نال بالذل عزة ... وبات له طيّ المحبة في النشر
إذا ما غراب البين حل بساحة ... يبيت من الأشواق في لهب الجمر
شغول بمن يهواه في كل ساعة ... فتمتلىء الدنيا خراباً ولا يدري
فذاك امرؤ إن لم تكن شبهه فما ... يراك ذوو الأفهام إلاّ على خسر
وإن لم يكن في منهج الحب سالكاً ... مع القوم فليبكِ على ضيعة العمر
ومن كان في دعوى المحبة صادقاً ... يبوح بمن يهواه في السر والجهر

* * *

لطيف الشوق

عليكم سلام يملأ الجو نشره لتنشره أيدي النسيم عليكمُ
ولا زال محياكم يزبرجه الحيا كما لم يزل يحمي النزيل حماكمُ
وأضحى لطيف الشوق من رفقائه ليحظى بأمن في المسير إليكمُ
لئن غاب عنكم يا أحبة قالبي وحق الهوى ما غاب قلبيَ عنكمُ
وأصبحت لما خفت من طول بعدكم أعلّل نفسي بالتقرب منكمُ

* * *

الطرف الساهر

يقول الدجى ما بال طرفك ساهر تطالع نجمي والأنام هواجع
فقلت له إن رمت نومي فلا تطل فليس إلى نومي سوى الطول دافع
ظبيات قاع والفؤاد كناسها ولكن لها بالرقمتين مراتع
أيا طلعة بالشرق هل لك عودة إلى عين صب قرّحتها المدامع
ليال مضت أرجو من الله عودها وما زال منها بارق الوعد لامع
وكم روضة بالجزع بات سحابها يجود علينا والبروق لوامع
منازلهم قلبي وهم في ديارهم وكيف وصولي والديار شواسع
أقول ـ وتحت القول ـ لو كنت عارفاً كنوز ولكن دونهن موانع
أحب حديث اللائمين لأنه حديث إلى ذكر الأحبة جامع
وعشقي إلى سب العذول أبحته وإن لم يكن للسب فيه مواقع
ولا إثم في خمر الصبابة والجوى على أنه للناس فيه منافع
ولا أنكر الصبر الجميل وفضله ولا العمر إن أفنيته فيه ضائع
ولكن مليك الصبر أفسد ملكه فصرت لسلطان الغرام أبايع

* * *

الكواكب تشهد

الله يعلم والكواكب تشهد أني بذكر جمالهم أتهجّدُ
ولقد شهدت جمالكم بين الورى نوراً يضيء كما يضيء الفرقد
وأنا الذي سكن الفؤاد بذكره ومقامه بين الوشاة مهدد
ما كنت أعلم أن صبري نافد حتى علمت صبابتي لا تنفد
لقضيتي ما بين معترك الهوى خبر يقوم له الأديب ويقعد
فإذا جهلتم رقتي وصبابتي فسلوا النسيم فإنه لا يجحد
ما دمت حياً فالحياة سعيدة فإذا قتلت فإنني مستشهد

بـدر وناسـك

ولـمـا جـلـت بـدر الـمـحـيـا لـنـاسـكٍ　　وقـد قـشـعـت عـنـه سـحـابـة بـرقـع
وهـمّ بـهـا واسـتـرسـل الـطـرف نـحـوهـا　　وقـد وقـعـت فـي نـفـسـه أي مـوقـع
وأصـبـح مـن فـقـه الـنـهـى غـيـر آسـف　　وفـارق ذاك الـنـسـك غـيـر مـودع
تـولـت ومـا رامـت وصـالاً وإنـمـا　　تـكـذب دعـواه الـتـي كـان يـدعـي

* * *

ملاقاة أحباب

ملاقاة أحبابي تجدد إيماني وتنفي على كرّ (الجديدان) أحزاني
فما جاد لي دهري بمثل وصالهم يطيّب أحياني وإن مت أحياني
فللّه ما أزكى وأطيب ساعة حوت من لقاهم كل روح وريحانِ
ولله ما أحلى وأعلى تعرضاً إلى نفحة منهم تعطر أرداني
فلم أدر ما قد لاح في نظم شملهم قلائد در أم قلائد جماني
فناهيك من شمل منوط بهمة تأمل تجدها فوق منزل كيواني

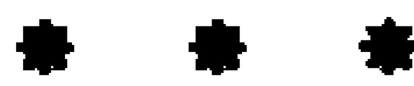
* * *

بدور السعد

تجلت بدور السعد وانتظم الشمل وجدّت بنا الأفراح واتصل الحبلُ
تزايدت الأفراح ثم تضاعفت بأخرى كذاك الطل يعقبه وبلُ
وما زادت الأفراح إلاّ بوصلهم وفي حضرة العشّاق يستعذب الوصل
ألا هكذا شأن الأحبة هكذا عليهم سحاب الجود والفضل ينهلُ
همو أهل ودي في الحمى وعشيرتي كذا المرء تحميه العشيرة والأهل
ولي منهم في جانب الفضل أربع إذا حصلت فالقصد يحصل لي كلْ
وصال ولا قطع، وودٌ ولا جفا وجود ولا بخل، وعز ولا ذلْ

.. تهيج بلابلي

بلابل مغناكم تهيج بلابلي ورؤية مغناكم لها سحر بابلِ
تمنيت أن لا يوم إلاّ بوصلكم ولا سيف إلاّ من هواكمُ قاتلي
أيا لائمين الصب كيف بذلتمُ وأعطيتمُ نصحاً بغير مقابل
إذا جال طرفي في رياض وصالكم جنى ثمراً يحلو لكل مواصل
جفوني من ذكراكم في مدامع تعوم ومن حولي تحوم عواذلي
وأنهي إليكم أن من عاج نحوكم ولاحت له أعلام تلك المنازل
أُجازيه بالشكر الذي هو أهله إذا قام لي يوماً بحمل الرسائل
وكم لاح لي برق من البعد فيكمُ ولا غرو في برق من البعد لاح لي



هو المنى

مناي الفتى في حب ليلى هي المنى ... وكل هناء في سوى حبها عنا
فلا تلوين سمعاً إلى غير ذكرها ... وكل حديث في سوى ذكرها خنا
وشنف بألحان الغناء مسامعي ... فما لمحبِ عن غنائك من غنى
وأرسل على ذكر الحبيب مدامعي ... وكرر حديثاً مرسلاً ومعنعنا
وروّح براحات المكارم مهجتي ... على حين ما روض المحاسن يجتنى
وصاحب فناءً ذي بقاء وإنما ... فناء الفتى في الحب يا صاح بالفنا
ولا تعقب التحقيق فيه بظنة ... لتسلم في عقباك من وصمة العنا

شـوق وحنيـن

يـغـيـب سـوادُ الـعـيـن إن غـبـتـمُ عـنـا ... وتضحي قلوب العاشقين لكم رهنا
حـقـيـق عـلـيـنـا أن نـحـنَّ لـقـربـكـم ... وكـم عـاشـق مـن فـرط أشـواقـه حـنَّـا
ومـا غـرد الـقـمـري إلاَّ تـذكـراً ... لـعـهـد قـديـم كـان فـيـه كـمـا كـنـا
نـظـمـتـم لـنـا شـمـلاً وبِـنّـا وبـنـتـمُ ... ولـم نـدر منكـم سالف البيـن أم منّا
تـمـر عـلـيـنـا غـفـلـة عـن ودادكـم ... ولـكـن إذا جـنّ الـظـلام تـنـبـهـنـا
وما زال هـذا الـدهـر يـنـسـي عـهـودكـم ... ولـكـن إذا هـب الـنـسـيـم تـذكـرنـا
ونـبـخـل بـالأرواح إن سـكـن الـهـوى ... ولـكـن إذا جـد الـغـرام بـهـا جـدنـا
وكـل عـذول قـد نـأى عـن شـرابـنـا ... فـيـا لـيـتـه ذاق الـشـراب كـمـا ذقـنـا

* * *

إلى بديع الحسن

غدا بك جفن واكف الدمع ساجمة   لذكر حبيب كنت قبل تلازمة
حبيب له قلب المتيم واجد   ولكنما الطرف المسهد عادمة
وما ضره لو جاد يوماً بوصله   أحادثه في مجلس وأكالمة
حبيبي لأنت المفرد العلم الذي   حوى من بديع الحسن ما الله عالمة
محبك في أسر الكآبة والجوى   فبالله يا روحي متى أنت راحمة؟؟
أنسه بوعد وامطلنه فحسب من   له منك وعد فيه مطل تلازمه
أثمت إذا ما لمت يوماً على الهوى   حليف الجوى فليتق الله لائمة

طـرب الحسـود

طـرب الـحـسـود تَـشـفـيـاً لـهـلاك مـن يـهـواكـا
وأراه مـن حـسـد يـثـو ر عـلـيّ حـيـن أراكـا
ولـقـد عـلـمـت بـأن قـبـر بـك لـن يـجـر هـلاكـا
مـن سـره أن لا أعـيـ ـش كـفـاه أن ألـقـاكـا

* * *

زينب والرباب

حث الكؤوس بذكر زينب والربابْ فالدهر أنجز وعده والعيش طابْ
والسعد أحياناً بطيب غنائه والأرض تحيا عند منهلِّ السحابْ
واذكر أحبة خاطري فبذكرهم يصفو المدام إلى النديم ويستطابْ
ولتعرضَ مني بالتهتك فيهمُ وتهتك السكران أمر لا يعابْ
إن قلت غيرهم الصواب فإنني أستغفر الله العظيم من الصوابْ
يا أيها الصب المتيم فيهمُ حتى غدا مستعذباً كل العذابْ
مهلاً فإن أخاك في هذا الهوى لم يتصف إلاّ بوجد واكتئاب
فكن المقارب منهم أَو لا تكن فعلى كلا الحالين ليس الوجد غابْ
واشهد على بعد شموساً أشرقتْ والشمس تشرق في ابتعاد واقترابْ

* * *

شنف مسامعي

شنف على ذكر الحبيب مسامعي | واصدع بما دلّت عليه مدامعي
سعَرت أشواقي على تذكارهم | وهجرت بالليل الطويل مضاجعي
يا لائمين على الصبابة رمتمو | بعداً لما دلت عليه مطامعي
خلوا منازعة المحب فإنه | يبدي المحبة بالدليل القاطع
لو كان من أغراكمُ عرف الهوى | لأتى أحبتنا بقلب خاشع
ولأمّهم فرحاً بهم مستبشراً | بتأدب وتَذلّل وتواضع
لكنه لما تلاشى فهمه | ورأى شرابي كالسراب اللامع
هزته عاصفة الهوى عن ذي الهوى | وتجرّع الأهوى بسمّ ناقع
والله يهدي من يشاء لأمره | ما بين متبوع عليه وتابع

* * *

تلهب الشوق

يا من إلى القلب ترويح بذكرهمُ | كالطرف يغشاه نوم بعدما سهرا
ومن إذا هبّ عرف من شمائلهم | تلهب الشوق في الأحشاء واستعرا
أخذتُم شهرة في الفضل باقية | وسيرة فاقت الأمثال والسيرا
إن مرّ نفح الصبا يوماً بصبكم | أضرى وأضرم في أحشائه شررا
وأطلع الدمع عني بعد حبسته | والمزن غب احتباس يهطل المطرا
وحام حوليَ عذالي فما وجدوا | من فرط حبكمو سمعاً ولا بصرا
يميل قلبي وجثماني إلى ملإٍ | يملّىء السمع من تلقائكم خبرا
في روضة يختلي كأس المدام بها | ويجتني القلب من أفنائها ثمرا
طوبى لمن كان محفوفاً بصحبتكم | لا يشتكي سفراً فيكم ولا حضرا

* * *

قلب وأهواء

تالله ما زلتُ بالأحباب أتصلُ ... ردوا عليّ جميل العذر أم قبلوا
لم يرع ذمة عهد في محبتهم ... قلب تقلبه الأهواء والعللُ
قوم لمن رام إرشاداً لصحبتهم ... نعم الأحبة والأصحاب والخول
لولاهمُ لم يطب عيش المحب ولا ... راق المدام ورق المدح والغزل
وكلما هب نفح من وصالهمُ ... تعطرت منهمُ الأرجاء والسُّبل
قد نفّذوا في رضا المولى عزائمهم ... فلا يغرهم التسويف والأمل
ما بين سلمى ورياها ومبسمها ... وبينهم ترفع الأستار والكلل
طافوا بكعبة أشواق وكلهمُ ... غدا على عرفات الوصل يبتهل
لم يصرفوا لسوى المحبوب همّتهم ... كلا ولم ينصرف إلاّ له أمل
قد أكثر الناس عذلاً في محبتهم ... والله لو عدلوا في الحب ما عذلوا
أنتم عيوني فلم أنظر لغيركمُ ... وليس لي من عيوني سادتي بدلُ

* * *

روضة أم وصال؟

تالله ما روضة غناء زاهية ... يبكي الغمام عليها وهي تبتسم
فيحاء زاهرة الأفنان مائسة ... الأغصان باكرها الأطلال والديم
يشدو الهزار على أفنانها فغدا ... دمع المشوق من التذكار ينسجم
أبهى وأبهج بل أزهى وأزهر من ... يوم الوصال الذي يشفى به السقم
وصال من زانت الدنيا بطلعتهم ... وأصبح الشمل فيهم وهو منتظم
كواكب الدين إن أدنوك فزت وإن ... هم أبعدوك فقد حلّت بك النقم
قوم توسم فيهم كل مكرمة ... من لم يكن بصفات القوم يتسم

مـا الشهـد!؟

مـا زال يـسـأل مـن لاقـاه أيـن هـمُـو | صـب يـرد عـلـى الـعـذال بـيـنـهـمـو
ويـات يـنـشـد إذ أمـسـى رهـيـنـهـمـو | لـي سـادة كـلـمـا يـرتـد بـيـنـهـمـو
طرفي فلا يستطيع القلب بينهمو | ولا يـكـون إِلـى الـسـلـوان مـنـتـقـلا

مـجـد وعـز وفـخـر قـد تـنـاقـلـه | ركـب يـحـث بـه الـحـادي رواحـلـه
هـيـجـت لـلـقـلـب يـا هـذا بـلابـلـه | كم قائل قال لي، ما الشهد قلت له
لا أعـرف الـشـهـد إِلاّ مـن حديـثـهـمُ | أكـرم بـه مـن حـديـث عـنـهـمـو نـقـلا

إنـي صـبـور أقـاسـي كـل نـائـبـة | ولا أمـيـل إِلـى لـذات فـانـيـة
ولا تـحـركـنـي أوصـاف غـانـيـة | ولـسـت اهـتـز مـن بـرق بـسـاريـة
إِلاّ إذا شـامـت الـعـيـنـان بـرقـهـمـو | عسى يكون سحاب الفضل مهتطلا

ناديـت لـمـا أطـال الـشـوق بي قـلـقـا | وقـد رأيـت غـراب الـبـيـن قـد نـعـقـا
لـي مـنـزل كـان لـلـجـوزاء مـعـتـنـقـا | يـا سـائـق الـظـعـن لـلـبـيـداء مـخـتـرقـا
نـاشـدتـك الله إمـا عـجـت نـحـوهـمـو | فـلـتـخـبـرن كـرامـاً سـادة نـجـبـا

لـطـف الـنـسـيـم إذا يـومـاً تـخـلـلـهـم | يـود لـو أنـه يـحـكـي شـمـائـلـهـم

إني أقول لمن ينحو منازلهم ... ناشدتك الله إلاً ما شرحت لهم

حال المحب وما يلقاه بعدهمو ... من الكآبة والشوق الذي قتلا

إني كئيب أقاسي الحب في زمني ... وهل رأيت محباً غير ممتحن

حالي غدا غير حال زائد الشجن ... الدمع أغرقني والشوق أرقني

والصبر فارقني يحكي فراقهمو ... يا طالما كان عيشي بينهم خضلا

فكيف عيني بغير الدمع تكتحل ... أم كيف قلبي إلى السلوان ينتقل

إلى الأحبة لا ينفك لي أمل ... فليت كل فتى في الحي مرتحل

يمضي إلى حيثما حطت رحالهمو ... هناك يبلغ من ترحاله الأملا

* * *

طائفـة العشـاق

إنمـــا الـعـشـاق طـائـفـــة   بـرضـا مـحـبـوبـهـم عـلـقـوا
وسـراة الـعـشـق لـيـس لـهـم   لـسـوى مـعـشـوقـهـــم رمـق
سـاهـدو الأجـفـان حـبـهـمُ   بـسـهـام الـلـحـظ قـد رشـقـوا
لـيـس فـي الأكـوان يـرحـمـهـم   غـيـر مـن فـي دهـرهـم عـشـقـوا
كـل مـن يـهـوى شـمـائـلـهـم   فـبـنـار الـشـوق يـحـتـرق
لـم يـزل فـي حـبـهـم ثـمـلا   وبـحـبـل الـوصـل يـعـتـلـق
سـائـق الأظـعـان مـأربـهـم   لـفـلاة الـبـيـد يـخـتـرق

* * *

رياض

هذه ميادين الرضا تمرح فيها الشيمُ
فانتهزوا فرصتها يا سادتي واغتنموا
واحترسوا من عاذل ولائم يختصم
فقوله مزيف ونصحه متهم
وهذه رياضنا تضرب فيها الخيمُ
ووقتنا معتدل وشملنا منتظم
وسعدنا مبتهج وفخرنا مبتسم
وشيمة الأحباب أن يحفظ فيها الذمم
هم سادتي جاروا علي في الهوى أم رحموا
وكل شيء بعدهم كما علمتم عدمُ

* * *

رحمة بالغرباء

راحة القلب في سواكم عناءُ ومنى المستهام فيكم لقاءُ
زعزع الشوق ركن صبريَ عنكم عندما قام في هواكم بناء
أنتم للنزيل عز وللمشـ ـتاق كنز وللسقيم شفاء
أنتمُ أقوياء غير ضعافٍ وعلى الغير تحمل الضعفاء
غرباء تحفهم رحمة اللّـ ـهِ وأولى بالرحمة الغرباء
أنا مِلكُ الهوى ووقف على كُـ ـلٍّ فقير تحبه الفقراء
إن يكن للغنيّ بالعين بخلٌ فلعينيّ باللآلي سخاءُ

يا عذولي خلنيْ

لقد عهدت في الأزلْ معنى على القلب نزلْ
وهمت إذ فهمت وانـ ـتشلت من كل وحلْ
باللّه يا خل الوفا حيّ على خير العملْ
ويا عذولي خلّني فليس خمر مثل خلْ
لي سادة أطربني لقاؤهم بعد الأملْ
ولم أزل بينهمُ أؤمَنُ من كل وجلْ
حديثهم يجل عن سآمة وعن مللْ
وعَلَلٌ من كأسهم ينفي عن القلب العِللْ
لا تسلُ عن هواهمُ وعن سواهم لا تسلْ
أمدُّهمْ من فيضه وفضله عزّ وجلْ
خِلّتهم تغنيك عن مال وأهل وخولْ
وطالع الأنس بغيـ ـر أفقهم لم يستهلْ
ولم يزل مغرداً قمريهم على طللْ
تُجبى إليه ثمرا ت من رُبى روض الأملْ
طوبى لمن لبيتهم سعى وطاف وابتهلْ

عجب !

ارشف الريق المسلسلْ | وعن الخمار سلْ سلْ
كن جماداً في حماه | أَو كميت يتغسلْ
إنما التعذيب منه | علقميٌ يتعسل
قل لمن أضحى إليه | صارم الأفكار ينسل
كم غبيٍّ يتراءى | وهو للباطل ينسلْ
وبميت وبليد | لمقام يتوسلْ
فعجيب وغريب | من عقيم يتناسل
ولكم أنكر قوم | مرسلاً من بعد مرسل

* * *

أحبتي.. أحبتي..

أحبتي أحبتي عهدي بكم قد طال
وذكركم وذكركم قد هيج البلبال

وحسنكم وحسنكم عنه استبى لبّي
إني عليل إني عليل وعندكم طبّي

يا سادتي يا سادتي أهل الصفا والشوق
بوصلكمُ بوصلكمُ أوقاتنا تروق

عليكمُ عليكمُ نور له إشراق
ونشركم ونشركم قد عطّر الآفاق

* * *

شوق... وبوح

الدمع من مقلتي سفوحُ والصبر عن مهجتي صفوحُ
أمرتموني بكتم سر فصرت في حبكم أبوح
والشوق يروى له حديث عليه من أدمعي شروح
أهتز من بارق إذا ما غدا على أرضكم يلوح
تجرك الشوق والتأسي ورقاء في دوحها تنوح
يا من بكأس الغرام يغدو طوراً وطوراً بها يروح
في معشر من ذوي الحميا لم يبق في حزبهم نصوح
كأنهم روضة الأغاني والنشر من ريحها يفوح
فناول الكأس ذا سقام بالراح تشفى إليه روح
وشنف السمع من حديث إسناده عنهم صحيح
فلي فؤاد بهم معنّى في الحب عن عاذلي طموح

* * *

كؤوس أحبتي

كؤوس أحبتي عذبت مذاقا تَعَلَّلْها اصطباحا واغتباقا
وإن لاقيتَ في الأيام شيئاً فهم في الدهر أحسن ما يلاقى
يزيدك حالهم طرباً وشوقاً وحبهُمُ يزوّدك اشتياقا
ومن مدت يداه إِلى رضاهم يُمَدُّ له من العليا رواقا
فلا مصر ولا شاماً نراها بغيرهمو تطيب ولا عراقا
وإني إن لهم أسندت ظهراً أشد لظهريَ الواهي نطاقا

* * *

مواصلة الأحبة

مواصلة الأحبة يا خليلي يراها العاشقون أجلَّ أمر
ولا تركن إلى أحد سواهم فدعواك المحبة كالتبرّي
وإن تشرب سلافتهم فأبشر بسكر موجب لدوام شكر
فيا بشرى بقوم إذ تراهم يروق بكل وجه ماء بشر
يجلُّهمُ ويؤثرهم فؤادي بكل فضيلة وعلو قدر
يخالف منهم شيئان عندي وصرت بذاك في قيد وأسر
فوتهمُ قضى بمزيد شوق وصدّهمُ قضى بجميل صبري
إلى أن هب نفح الوصل منهم على أمل وشوق مستمرّ

* * *

ويشتاق الفؤاد

تميد بحسن ذكركم الصدور   وتفتر المباسم والثغور
ولا زالت لحاظ الأنس فينا   تدور بحيث لحظكمُ يدور
ويشتاق الفؤاد إِلى لقاكم   فتغشاه المسرة والحبور
وليس يقاس فضلكم بشيء   وهل وشل تقاس به البحور
وما في شمس ذاك الفضل يلفى   خفاء بعد أن ثبت الظهور
وما الأنوار إذ لاحت عليكم   تقابلها الكواكب والبدور
ومن يحضر مجالسكم بشوق   يلذ له التشوق والحضور
ويغتبط المتيم في هواكم   فتيٌ في محبتكم غيور
فما قَصُرَتْ بغيركم الليالي   ولا تمت بغيركم الأمور

* * *

جفاء من غير ذنب

ألا يا نفحة النسمات هبّي هبوباً يستفز إليه قلبي
ويا ربعاً له عذبات بان سقتك الغاديات بكل عذبِ
ويا عشباً يعطرنا شذاه يقول الرائد ذا العشب عش بي
ويا غرر الشمايل والسجايا تباهي بالمحاسن واشرئبي
ويا سرب القطا حتّامَ أنى أنادي حادي الأظعان سر بي
لقد سكنوا الفؤاد ولا رآهم فقلت لمن رآهم أين حبي؟
سهام فوقت من نحو سلمى أبت إلاّ مبارزتي بحرب
يعاتبني الخلّي على هواه وليس هواه من كدي وكسبي
ألا عجباً إلى عهد تقضّى ولم تقض المنون عليه نحبي
دعوه إلى إضاعته لحبي وقد أضحى لدعوتهم يلبي
وحظي من طبيعته جفاء وإن كان الجفاء لغير ذنب
أصاحب من يليه لكي أراه وأرغب في مودته لصحبي
وكل فتى تملكه هواه يسير مع الهوى جنباً لجنب
فأحياناً تراه حليف سلم وآونة تراه حليف حرب
وأذكر معشراً قنصوا فصادوا وقد نصبوا الحبائل أي نصب

حجاب السر عندهم زجاج   وعهدهم كعهد سعاد كعب

ذهبت بهم ولم أذهب بعيداً   وإن حوادث التاريخ تنبي

فأكثرهم يهيم بحب ليلى   وما خلق الفؤاد لغير حبّ

* * *

طربنا بل سكرنا

طـربـنـا يـا أخـا الأشـواق　　بـمـن كـنـا بـهـم نَـشـتـاق
طـربـنـا بـكـل سـكـرنـا مـن　　مـعـانـي حـقّـت الأذواق
وقـد أهـدى نـسـيـم الـوصــ　　ـل نـشـراً عـطـر الآفـاق
ومـهـمـا زمـزم الـحـادي　　بـشـعـر مـالـت الأعـنـاق
وهـمـنـا إذ فـهـمـنـا مـن　　حـديـث يـشـبـه الـتـريـاق
ولـمـا أن تـنـاسـقـنـا　　عـلـى حـال لـه إشـراق
أخـذنـا فـي مـيـاديـن الـ　　ـهـوى شـأواً مـع الـسُّـبَّـاق

* * *

أحبة خاطري

سعدت من الأحبة بالوصال وشاهد ناظري عين الجمال
وأطربني لقاؤهم وإني على ظمأ شربت من الزلال
ولم أر في اللقاء سوى بدور وما تلك البدور سوى رجال
لقد سهروا الليالي في علاهم «ومن طلب العلا سهر الليالي»
صفا لي كل مشروب لديهم بحسن تأدب ونهوض حال
وشنفت المسامع من حديث يجل عن السآمة والملال
وإن وضعت يميني في خوان مع الاخوان تغبطها شمالي
أحبة خاطري وعريب حيي ومن سادوا على كل الموالي
لأنتم في الورى صومي وحجّي وأنتم عمرتي وزكاة مالي
وفي رحب الهوى أنزلتموني مقاماً لا يضيق به مجالي
وأنعمتم عليّ بطيب وصل وَنَعَّمْتم بذاك الوصل بالي
تبين أن حالك غير حالي فما لك أيها اللاحي ومالي
وما عاب المحب سوى عذول له شغف بتصوير المحال

* * *

وجه حسن

الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزنا
حيث شهدنا من كما ل السعد وجهاً حسنا
فحقنا أن ننشد نظماً غدا مستحسنا
يا سعد قم وحيّنا بنفحة من حبّنا
واسمع ولا تضنن بأخـ ـبار لهم تنفي الضنا
فؤاد من يهواهمو أضحى إليهم سكنا
فقري إليهم دائم وليس لي عنهم غنا
يحنّ شوقاً لهم قلبي بذكر المنحنى
ومن تباشير اللقا يفوح لي نشر الثنا
للّه يا ريحانة القلـ ـب وروض أنسنا
يا كعبة الحسن التي بها أطوف معلنا
ما حجنا المبرور فيـ ـك غير نشر برنا
وما صفا إلاّ الصفا ولا منى إلاّ المنى
ثم الصّلاة والسّلا م للنبي شفيعنا
محمّد من قد غدا حصناً لنا ومأمنا

ما أطنب القوال في الـ ـمدح وما تفننا
وقال في مديحه «يا سعد قم وحيّنا»

* * *

ترنم أيها الساقي

ترنم أيها الساقي   عدتك اليوم أحزان
بمن يشتاقهم قلبي   وهم في القلب سكان
ولي في حبهم سر   وبعد السر إعلان
سرى مني لهم طيف   ودمع العين طوفان
وفي الأحشاء قد نشبت   لفرط الوجد نيران
ترنم في رياض كم   بها أنس وروضان
رياض تزدهي من طلـ   ـعة الحسن وتزدان
فللأشباح راحات   وللأرواح ريحان
وقل لمعنّف صباً   وما للصب إذعان
ألا فاعذر ولا تعذلْ   فتى في الحب سكران
ولا تلح الذي طابت   له في الحان ألحان
أما يكفيك أن الدمـ   ـع للأشواق برهان
ولولا الشوق يا نومي   لما تجفوك أجفان
لقد صمت عن اللاحي   لأهل الحب آذان
وإن كلفتهم صبراً   فما للصبر إمكان

وإن يطووا كتاب الشو ق فالأسقام عنوان
ولم يعرف سواهم من له عقل وعرفان

* * *

ذبت شوقاً

يا حداة الظعن سيروا   واقصدوا تلك الرباعا
واركبوا «وابور» عزم   وارفعوا عنه الشراعا
ثم إن أنتم وصلتم   سادتي تلك البقاعا
فانشدوا الأحباب مثنى   وثلاثاً ورباعا
ليت شعري هل أرى   منكم إلى العهد ارتجاعا
كل ما هب نسيم   خلته تلك الطباعا
منذ ودعتم فقلبي   لم يزل يخشى الوداعا
طبت نفساً ذبت شوقاً   همت سمعاً واستماعا
حيث ألقى من لقاكم   كل أمر مستطاعا
يا لحى اللّه زماناً   كان لي منه امتناعا

* * *

مليح وتيه

خل سيف اللحظ يشهر — لا تغض الطرف عنا
وانجلى حسن المخدر — فوق غصن قد تثنى
لم يزل في الحب يذكر — بين واشٍ ورقيب
أي شيء عقد جوهر — لاح في غير حبيبي

يا مليح الكون طرا — ينتفي عنه الشريك
جر ذيل التيه جرا — أنت في الحسن مليك
لم أزل أسعى وأسهر — فيك ذا قلبي الكئيب
أي شيء عقد جوهر — لاح في غير حبيبي

يا بريقاً غير خلب — مشبهاً طلعة حبي
ثم لما أن تصوب — خلته عبرة صب
كل روض منك أزهر — قد حوى من كل طيب
أي شيء عقد جوهر — لاح في غير حبيبي

قم تهيأ يا نديمي — في ربى زاه وزاهر
شاقه أنوار حبي — طيب الأنفاس طاهر

واستدر كأساً تعطر		لي من الظبي الربيب
أي شيء عقد جوهر		لاح في غير حبيبي

رب لومي في هواه		طار بين القوم لؤما
ضعفت منه قواه		لم يطق في البحر عوما
قل لمن أفتى وقرر		مخطئاً غير مصيب
أي شيء عقد جوهر		لاح في غير حبيبي

إهد يا ربي صلاة		وسلاماً للنبيّ
من له شرفت ذاتاً		في الكلام القدسيّ
وأتى بالحق يخبر		داعياً كل مجيب
أي شيء عقد جوهر		لاح في غير حبيبي

وعلى الآل الكرام		وعلى الصحب الأجلّه
ما حلا ذوق الكلام		في هوى الغيد المولّه
وأتى للحق يشهر		في حضور ومغيب
أي شيء عقد جوهر		لاح في غير حبيبي

* * *

أيها الركب

وهذه قصيدة بها شوق ولوعة وحنين قالها بعد طول غيبته عن مجالس أصحابه:

أيها الركب إذا ما — جئتم تلك الخياما
بلغوا أحباب قلبي — دائماً عني السَّلاما
وانشدوا في ذلك الحي — فؤاداً مستهاما
قد سقاه الحب كأساً — لا يرى فيها انفطاما
ليت شعري أهل ودي — هجروا قلبي علاما؟
هل أكن أذنبت ذنباً — أَو تناسيت الندامى؟
لا تلمني يا عذولي — فيه إن صحت غراما
لا تلمني جيش صبري — فيه قد ولى انهزاما
كلما قهقه رعد — أَو بدا البرق ابتساما
ذكره مع صفو عيشي — ليته قد كان داما

* * *

تشطير:

سئمت حياة

سئمت حياة من زمان يكيدني ولست أرى خلاً وفياً يعينني
على ما بقلبي من هموم تصيبني «ولي كبد مجروحة من يبيعني»
«بها كبداً ليست بذات جروح»

أخلاء نفسي قد توالى أنينها ومن برحاء الشوق طال حنينها
وما كبدي إلاّ كما تعرفونها «أباها عليّ الناس لا يشترونها»
«ومن يشتري ذا علة بصحيح»

* * *

سهد وآلام

ألمَّ بي ألم أضحى يسهّدني   تسهيد من فقد الأحباب وانفردا
أو من به الحيّة الرقطاء قاذفة   سماً وقد طلب الرقيا فما وجدا
ويلاي من هول أمرٍ قد فقدت به   وصل الأحبة والإغفاء والجلدا
ولو شفيت لكان الحظ ساعدني   على الوصال ولكن ما وجدت يدا
كأنما أبدت الأيام لي عنتاً   وأرغمتني على أن لا أرى أحدا
فليتني كالمعري كنت أمقتها   لم يتخذ صاحباً فيها ولا ولدا
عذراً فإن قبول العذر مكرمة   «والله يعلم أني لم أقل فندا»

تشطير:

صدودك والهوى

نشر في جريدة «الترقي» عدد 141 بتاريخ جمادى الأولى 1328:

«صدودك والهوى هتكا استتاري» وفيك نزعت أثواب الوقار
ومثلي في هواك غدا شهيراً «وساعدني البكاء على اشتهاري»
«وكم أبصرت من حسن ولكن» صرفت إلى محاسنك اعتباري
إذا كان المحب له اختيار «عليك من الورى وقع اختياري»

* * *

اجتماعيـات

والشاعر أَحمد الشَّارف يشجع الشباب ويدعو إِلى نهضتهم مؤمناً بأن هؤلاء الشباب قوة الوطن وعماده ـ وهم في كيان المجتمع بمنزلة الروح للجسد ـ في عديد من قصائده يلتفت موجهاً القول إِلى الشباب والإشادة بدورهم ويحرضهم على التحلي بمكارم الأخلاق والفضيلة والارتواء من مناهل العلم. . . وكان من الناحية الأدبية لا يمل من أحاديث الشباب ومناقشتهم عندما يسمرون في بيته، أَو في المنتديات والمقاهي، والأماكن العامة.

رغم تقدم سنّه فقد كان الشباب يتحلّق حوله وينتج عن هذه الحلقات سمرٌ أدبيٌ وحديثٌ علميٌ، وتتنوّع المحاورات الفنية، والمناقشات السياسية. وهذه المجالس والمسامرات كانت في حياة الشَّارف صورة من الصُّور الحية الحافلة في المجالات الأَدبية.

هذا شاب يريد أن يصلح قصيدة، ويسأل عن دروب الشعر كيف يسلكها، وآخر يسأل عن حفظ الجيد من شعر القدامى هل يفيد في تفتح الشاعرية؟ وذلك سائل عن بيت غرب عنه قائله.

ويروي الشاعر الراوية من حصيلته ويتدفّق في حديثه الممتع مسهباً حتى ينسيه حديث الأَدب والشعر غداءه أَو وقت عشائه. .

وعندما أسَّس بعض الشباب نادياً بمدينة طرابلس شجعهم وحضر حفل الافتتاح، ولم يأت خالي الوفاض، بل أتى ومعه قصيدة طويلة أنشدها في حماس وإيمان برسالة الشباب.

وعندما أخرج بعض الفنانين الأدباء مجلة «المرآة» شجعهم وأرسل لهم قصيدة يبارك فيها النشاط الصحفي الفنّي ونشروا له صورة «كاريكاتورية» وكانت المجلة تنشر لذعات ونقدات غضب لها الشيوخ الجامدون، واشمأز المتفقهون الرجعيّون. أما الشاعر فقد كان يتقبّل الأفاكيه والنوادر اللاذعة بروح الفنّان ويرحب بها بصدر الأديب الشاعر.

غضب بعض المتحذلقين من رسوم ولذعات المجلة الفنية وحاولوا أن يشوا بين الشيخ القاضي وبين الشباب الذين شجعهم على نشر الكاريكاتير الهازل ولا سيما عندما رسموا الشيخ في صورة كانت من الوجهة الفنية رائعة ولكنهم قالوا: كيف ينشروا هذا التخطيط والخرابش..

وضحك الشيخ واستمر على منواله ونظم قصيدة يرحب فيها بالصحافة الأدبية والفنية.

وجودكم يا شباب العصر في الوطن ... أمر بدا كوجود الروح في البدن

للحر عين، وعين الحر ساهرة ... في خدمة العلم والآداب والسّنن

وكيف تفتر عين عن مهمتها ... ما لم تكن فترتها ساعة الوسن

وليس للمرء إن غابت مداركه ... عن الشعور سوى الإدراج بالكفن

إن حيوية الشباب هي مقياس الرقي - وترمومتر - التقدّم.

ولا بدّ للمواطن الحر أن يكون صاحب عين يقظة ساهرة من أجل العلم والأَدب والمحافظة على القِيَم والسُّنن ومناهج التوجيه ولا تفتر العيون إِلاَّ في ساعة الوسن والنعاس، أَو في ساعة الاحتضار.

لا قيمة للإنسان إذا فقد إحساسه وشعوره. . إن ذلك موت وفناء.

هذه معاني يشير إليها الشاعر في القصيدة التي ألقاها في جمع من الشباب في حفل ناديهم بطرابلس الغرب أيام عهد الإدارة البريطانية وقبيل إعلان الاستقلال.

والشاعر كعهده وديدنه يكرّر النصائح ويكثر من التوجيهات. . شأن شعراء الحكم وشعراء التوجيهات. . ولكن مع أن حكمه قد تكون من النوع العام ـ الصالح لكل زمان ومكان أَو تلقى في أَي جمع ـ وهذا شأن الشعراء الذين لا يدرسون مشكلة خاصة أَو يتناولون قضية وجانباً معيناً. . فيأتي قصيدهم من النوع الكلي الذي تستطيع أن تلمسه في أي بلد ـ مع هذا ـ نلاحظ أن الشاعر الشَّارف في بعض قصائده. . يضغط على بعض النواحي أَو يحاول أن يشير إِلى المشاكل أحياناً إشارة قد تعطي اهتماماً ويسلّط عليها الأضواء عن طريق التكرار أَو بأسلوب الإلحاح.

ومن هذه النواحي التي ـ ضغط ـ عليها أكثر، وسلّط عليها ضوء التكرار مشكلة الجهل وقضية الحرية ووجوب العناية بالتربية.

ويلاحظ أن الشاعر في القصائد التي ألقاها في المحافل العامة أَو في المهرجانات والمناسبات القومية أَو حفلات التكريم والذكريات كان يندّد بمشكلة الجهل ويحض على نشر العلم والثقافة وتنمية الوعي والتربية التوجيهية، فهو هنا مثلاً نراه أَو نسمعه يقول:

وما سعى الناس في أمر كسعيهمُ ... في صالح الأهل والأولاد والوطن
لا خير في وطن يلقى بجانبه ... من وطأة الجهل ألواناً من المحن

هذا بصفة عامة وهي أحكام ـ كلية ـ ونظرة شاملة.

ثم يلتفت إِلى موطنه ليبيا أَو يتدرج إن صح نظام التدرج في أساليب الشعر

والشعراء الذين لهم مطلق الحرية في السير بقصائدهم تدرجاً أَو طيراناً أَو حتى الهروب والزوغان أحياناً. .

يتدرج الشاعر من الأحكام العامة إِلى حالة الشعب الليبي في تلك الآونة فترة الانتقال وأيام التأرجح بين الاحتلال والاستقلال، قبل إعلان الاستقلال. يقول الشاعر في قصيدة ـ النادي ـ وهو ينادي هاتفاً في جمع من الشباب:

وهذه ليبيا الفيحاء قد سمحت	لها الظروف بلا ضعف ولا وهن
وقد يكون مدى الإصلاح مبدؤه	من قادة لم تكن منا ولم تكن
والقوس لم تعطه إلاَّ لصاحبه	ولم تضف حسناً إلاَّ إِلى حسن
وأنتم الشعب لا يحتار فكركمُ	كحيرة الضب إن يضلل عن السكن
شعب عريق فلا أصل بمبتذل	بين الشعوب ولا فرع بممتهن
تسربت لكم العلياء من سلف	ومن أصول مضت في سالف الزمن
شعب قديم وفي العصر الحديث غدا	ما بين مرتكز منه ومرتكن
لا غرو إن أصبح الإصلاح همكمُ	وهمّ إخوانكم في السر والعلن
والافتتان بحب النفع مفخرة	وهل رأيتم محباً غير مفتتن

وفي هذه الناحية يتجه إِلى الشعب وبيده العلاج ويدعو إِلى ترك الحيرة والابتعاد عن القلق والتوتر.

ويضرب المثل في الحيرة بالضب الذي تزعم كتب الحيوان والأمثال القديمة أنه حائر عن الوصول إِلى بيته وهذا المثل والتمثيل اندرج في قصيدته من وحي المطالعات القديمة.

ثم لا يحتار الشعب أَو يجب ألاّ يحتار ويضطرب، فالشعب الليبي شعب عريق الأصل طيب التربة أصله في الورى غير مبتذل بين الشعوب وإذا كرمت

الأصول كرمت الفروع. ونظرية الوراثة وأثرها تقحم نفسها بين الفينة والفينة في شعر الشارف وقد تكون في دخولها أَو اقتحامها من باب التفاخر أَو من نوع الإلهاب والتحمّس أَو هي أقرب أوتار العاطفة في معزف الشاعر.

لذا نراه في أكثر من قصيدة يشدو ويكرّر التفاخر بالأصل والعرق.. والفرع في قصيدة «رضينا» التي نظمها منذ ما يقرب من أربعين عاماً ـ بالنسبة لتاريخ القصيدة آنذاك ـ أيام الكفاح وكانت من وحي الميدان.

وهنا في قصيدة الشباب في أيام الفترة الانتقالية من وحي النادي وتجمّع الشباب فيه.

وتترى على مخيلة الشاعر صفحات من تاريخ الشعب عبر الأجيال الطوال والأزمان الغوابر فيراه شعباً عريقاً، أصيلاً، له جذور ممتدة، وفروع متطاولة، والوراثة تتسلل، وتتسرب العلياء وتنتقل المكارم وحميد الصفات والخلال من سلف إِلى خلف وهي متأصلة في هذا الشعب من أصول مضت في أزمان بعيدة.

إنه الشعب الليبي.. قديم.

والقديم مناط مفخرة عند الشعراء والقِيَم مفخرة عند أهل التاريخ ودارسي الحضارات.

ولا ننسى أن القديم بضاعة ثمينة لأهل المتاحف والعاديات المهم.. إن شاعرنا ـ هنا ـ في موطن الفخر ومن أبواب أَو أسواق التفاخر القديم ويريد أن يسكب في آذان الشباب نبرة الاعتزاز بأصل الشعب وعراقة قدمه في الحضارات.

أي ليس مجرد قديم فقط.. ولا ماض بعيد فحسب.. هذا وحده تفاخر قد يكون سلبياً أَو هو تفاخر أهوج.

هناك شعوب قديمة ولكن ليس لها حسٌّ ولا أثر ولا تأثير في العصر الحديث فما قيمة قديم لا حاضر له؟..

ما وزنه في ميزان التقدير، ما قيمة حضارة بالأمس السحيق لا غد لها.

ما فائدة شعب كانت له مشاعل. ويحمل النور ثم يمشي أَو يقعد اليوم في الظلام.

لهذا كان الشاعر يتدارك أَو يتلافى نوع هذا التفاخر والاعتزاز لئلا يكون تفاخراً ناقصاً.. أَو اعتزازاً مبتوراً.. لتكمل الصورة.. أَو تقرب من التكامل ويربط بين أمس مضيء وغد يشرق.

شعب قديم وفي العصر الحديث غدا   ما بين مرتكز منه ومرتكن

قد يكون الإيقاع الشعري هنا في هذا البيت أَو الموسيقى التصويرية أَو المعنى مهزوزاً في الشطرة الثانية منه بالذات عرفنا معنى القدم ودوافع الاعتزاز ولكن في العصر الحديث «غدا ما بين مرتكز منه ومرتكن».. أي معنى تحمل هذه العبارة وأي هدف تشير إليه الشطرة!؟

في صورة إجمالية قد يفهم المعنى بأنه يقصد الإيمان بالمستقبل وربط الماضي بالحاضر وعدم الانفصالية بين إشراق الماضي وإشراق المستقبل ولكن هذه الواو الفاصلة بين مرتكز ومرتكن. وزعم النحاة وفطاحل اللغة أن حرف الواو يفيد المغايرة في مثل هذه الحالات فأي مغايرة بين مرتكز ومرتكن؟. هل يقصد ركيزة، ركن؟ قد يكون البحث وتصيد حرف النون في قصيدة نونية بكلمة مرتكن ليركنها أَو يركن إليها هناك.

لا نبعد في الشوط ولسنا نبتغي حاشية وشرحاً على نمط شراح الألفية، قال يقول، وإنما قال ولم يقل.. المهم، الشاعر دعا للإصلاح، فإذا كان الشعب الليبي عريقاً وله حيوية وماض لا غرابة أن يكون له حاضر وسهم في

الحضارة ثم بالتالي ليس من الغرائب ولا غرو أن يصبح ويمسي الإصلاح خطة وهدفاً ونشيداً وأنشودة في السر والعلن.

كان الشعراء القدامى يتغزّلون ويجعلون من الغزل والنسيب «طبق سلاطة» أَو فتح شهية قبل الدخول في الموضوع. وتطالعك في مطالع قصائدهم الوجنات والآهات ولوعة التمنيات ثم وصف زينب أَو هند والرباب. وبعد شوط طويل يكاد يقطع نفس القارىء يبرز الموضوع، المضمون، الهدف، وقد يكون مدح أمير أَو وصف ساقية جديدة في بستان، أَو وصف أكلة دسمة. هكذا عودنا شعراء القديم من عهد قفا نبك ـ بل حتى عهد شوقي. وصنع هذا أَحمد الشَّارف وغيره كما رأينا في مقطوعات له. وهنا يكاد يجعل من قصيدة افتتاح النادي موضوعاً آخر ومجالات أخرى. فالشاعر يخلق من المناسبة مناسبات، ويفصل منها أثواباً ويجعل من قماش القصيدة جبة وقباء وسروالاً. لقد مرت علينا أَو مررنا على خمسة عشر بيتاً حتى الآن تحدث فيها عن الشعب وعراقته وماضيه وأثر الشباب في حياة الأمم إلخ.

وأين النادي الذي بنيت القصيدة أَو فصلت ونظمت من أجل افتتاحه؟

هل نسي الشاعر؟

إنه قوي الذاكرة وقد وجهت إليه بطاقة دعوة أَو ذهب إليه وفد من الشباب يرجوه الحضور ويرجوه نظم قصيدة الافتتاح لقد كان صدره ممتلئاً وأراد أن يجعلها فرصة لنظم وإلقاء ما يجيش في صدره من نصائح وتوجيهات وحديث الشيخ إِلى الشباب!!

قد يكون هذا من دوافع التطويل والإطناب في مطلع القصيدة حتى عثرنا على تحية النادي والإشارة إِلى النادي من غير ذكر اسم النادي وهو نادي الاتحاد من أعرق المؤسسات الشعبية في الرياضة والحركة الوطنية والاجتماعية.

وروح العروبة تطل من القصيدة وتظهر في تحيته فهو ناد بطرابلس وهو حلقة في مضمار الصف العربي.

إنه يمثل إخوته في بلدان العروبة في مصر والشام وبغداد واليمن في هدفه ومعناه ورمزه، في خدمته الأَدب والتاريخ العربي.

وهو كروض وبلبله يشدو.

ثم يعود إِلى النصائح حتى يكاد يثقل القصيدة ويجعلها كالسيارة عندما يحملونها أكثر من حمولتها. فيرى أن يحذر الشباب من أن يجعلوا النادي في غير ما أسس وبني من أجله ويحذرهم من أن يشاب بشيء غير متزن:

وإن من زينة النادي وبهجته ألا يشاب بشيء غير متزن

وكلمة متزن تصدر من شيخ وقور هي عبارة معتادة في الوزن الشعري والوزنِ من ناحية السيرة والسلوك.

والدين والعلم يحتمان هذا الاتزان والابتعاد بالنادي عن المزالق.

والشاعر يؤمل الخير ويتمنى جاداً ولكنه يصرح أكثر في أنه لا يشيد بشيء ما دام لا يراه حقاً.

إنها صورة تهديد الأب لابنه أَو المعلم لطلابه فهو تحذير في لهفة لا تخلو من الشدة ولكنها مستمدة من شدة الحب والإشفاق فلا مناص من الصدق والإخلاص، إذ لم تبد بعد دلالة واضحة تظهر في الفعل والتنفيذ لأثر القول واللسان.

والشاعر يختم قصيدته بالتفاؤل والاستبشار بالمستقبل الحسن فهي براعة ختام، وكنا معتادين من الشعراء على براعة الاستهلال فجاءت هنا براعة الختام أَو ما يسمونه ـ تخلص ـ أَو حسن تخلص:

نادي الاتحاد

أكرم بنادٍ غدا في ضمن أندية
في مصر والشام في بغداد واليمن

كالروض حسناً وكم في الروض من حسن
قد بات بلبله يشدو على فنن

وإنَّ من زينة النادي وبهجته
ألا يشاب بأمر غير متزن

إني أؤمل أمراً لا أشيد به
ما دمت لم أره حقاً ولم يرني

إني أؤمل شيئاً لا أراقبه
وفي المؤمل ما يخفى عن الفطن

وآية الصدق والإخلاص مظهرها
في حيز الفعل لا في المنطق اللسن

والحق حق وإن آل الزمان به
إِلى مكائد قد كانت ولم تكن

وهكذا الدهر من أدنى خلائقه
ألا يكون على شيء بمؤتمن

وانتمو يا شباب العصر شيمتكم
ألا تهان العلا فيكم ولم تهن

وقد تفاءلت خيراً في مهمتكم
فألاّ يبشر بالمستقبل الحسن

* * *

الصحافة وصناعة التحرير

في عام 1946 إفرنجي وقبل إعلان استقلال ليبيا أصدر نخبة من الشباب والفنانين مجلة «المرآة» بمدينة طرابلس.

ورحّب الشاعر بصدورها وأرسل ابياتاً يحيي فيها هذا العمل الفنّي وكانت التحية في أربعة عشر بيتاً أشاد فيها بصناعة التحرير والفنّ الصحفي ومساهمة هذا في خدمة الوطن:

أدب النفوس أجل شيء يقتني ... وحياة من ولاه خير حياة
ويرى المفكر فيه أجمل صورة ... وأجل ما يجنى من الثمرات
حفلت بتاريخ البلاد لكي يرى ... ما كان في أيامها النضرات
فاختر لنفسك ما يكون مصادقاً ... لقبول ما تشرته من كلمات
فلنشرها بصر يرى ولها يد ... سمح اليراع بها لجمع شتات
ولها فؤاد لم يزل متهيئاً ... لرقيها بروية وثبات
سيزيدها قلم المحرر فوق ما ... وسعته ما دام الزمان مواتي
وصناعة التحرير خير وسيلة ... لتذكر الماضي وذكر الآتي
ولخدمة الوطن العزيز أحبها ... وأرى المحبة من أجلّ صفاتي

وطـن ومـا وطـنـي عـلـي بـهـيـن		بـحـيـاتـه أبـداً تـطـيـب حـيـاتـي
وطـن إذا ضـاقـت بـه سـبـل الـعـلا		بـالـرغـم كـان الـمـوت مـن رغـبـاتـي
والـنـفـس إن شـعـرت بـواجـب حـقّـهـا		نـهـض الـشـعـور بـهـا إلـى الـخـيـرات
والـحـر لـيـس بـتـارك أثـراً سـوى		مـا سـجـل الـتـاريـخ مـن حـسـنـات

* * *

تحيـة الفـن

وأحمد الشارف يحيـي الشبان في نهضتهم الفنية ويشجع أرباب الفنون. وعندما حضر حفلاً غنائياً وسمع الألحان الليبية، حيا منتدى الشباب الفني بأبيات مخلصة. وشانه في المناسبات لا يدع فرصة النصح والإرشاد تفوته:

فـزتـم الـيـوم بـيـمـن وأمـانـي يـا بـنـي الـعـصـر وشـبـان الـزمـان
قـد دعـا الـداعـي إلـى طـيـب الـلـقـا لـقـي الـمـرء بـه روض الـتـهـانـي
كـل مـا نـرجـوه مـنـكـم أن نـرى أمـركـم بـيـن مـعـيـن ومـعـان
مـتـعـة يـنـطـلـق الـشـعـر بـهـا كـانـطـلاق الـمـاء فـي روض الـجـنـان
يـجـعـل الـفـنـان فـي رونـقـه نـغـمـات الـعـود أو عـزف الـقـيـان
إن مـا قـمـتـم بـه مـن عـمـل مـحـض حـق لا بـفـضـل وامـتـنـان
لـم يـثـر شـوقـاً ولـم يـبـعـث أسـى أَو حـمـاسـاً غـيـر ألـحـان الأغـانـي
إن لـلـفـن جـمـالاً وحـده وجـمـال الـفـن مـن أقـصـى الأمـانـي
ومـعـانٍ دبـجـت ألـفـاظـهـا وهـي قـد نـيـطـت بـألـفـاظٍ حـسـان
لـسـت أدري عـنـدمـا أنـظـمـهـا عـقـد در كـان أم عـقـد جـمـان
يـتـغـذى الـعـقـل بـالـذوق كـمـا تـتـغـذى الـروح مـن روح الـبـيـان

لا يـكـون الـشـعـب شـعـبـاً مـيـتـاً   غـائـب الإحـسـاس فـي كـل الأوان
يـشـبـه الـمـوتـى فـلا يـؤلـمـهـم   لـهـب الـنـار ولا طـعـن الـسـنـان

* * *

وجاء «الراديو» ضمن مخترعات العصر الحديث.

وكل آية تخترع أَو ظاهرة تكتشف في العلم للشعراء إبانة ذلك وكشفه في شعرهم.

لم نجد شاعراً في أيامنا هذه يصف القمر الصناعي بقصيدة ولا محاولة الرحلة إِلى المريخ.

في القصة والمسرحية وفنون الأَدب الإذاعي استغلت الاكتشافات الذرية والمحاولات القمرية، ولكن حضرات الشعراء المحدثين قصروا في هذا.. ولعلهم اكتفوا بتشبيه الحبيب بالقمر.. ما لهم وللوصول للقمر في صاروخ؟!

أما شوقي مثلاً، فقد وصف اكتشاف حجر رشيد واكتشاف توت عنخ آمون ومحاولة الطيران لدى مصر. ومدرسة شوقي وحافظ والزهاوي كانت ترصد الأحداث وتصور الحوادث.

وهذا المذياع يدخل ليبيا ويصوره الشَّارف كما صوّره رفيق المهدوي وكما أشار إليه آخرون من شعراء الشرق. ويرى الشَّارف أن آلة الراديو وسيلة لشيوع الأَدب ونشر العلم وتبسيط حقائقه، وهذه لفتة هامة إِلى رسالة الإذاعة والإرسال.

يبدأ الشاعر قصيده بأبيات رقيقة في الغزل قد تصلح أن تكون أغنية شوق ونغمة وجد، لا وصفاً لآلة مخترعة. ويلاحظ هنا استعمال كلمة «راديو» بدل

«مذياع» أو «إذاعة» كما أشار إلى كلمة «وابور» في قصيدة مرت في هذه المجموعة مع أنه كان من أشد المحافظين على استعمال العبارات الأصيلة في الفصحى:

يا حبيباً شطت الدار به   كلما أذكره القلب وجب
فإذا ما زرت أضناني العنا   وإذا ما زار أضناه التعب
قد كفاني السمع إن عز اللقا   إنك الباقي على عهد المحب
إن للراديو في الناس يداً   قربت كل بعيد فاقترب
آلة قد وجب الشكر لها   وهي في العالم إقليد الأَدب
آلة السمع وإن شئت فقل   آلة الفن وينبوع الأَدب
لا يكن فكرك في مصدرها   حائراً ما بين صدق وكذب
يا بني الجنس وأخوان الصفا   وبني الأخوة من أم وأب
وجمال العلم في معدنه   طوق الفكر بأطواق الذهب
اسرحي يا نفس في مسرحه   وامرحي فيه بلذات الطرب

* * *

أدبي روحي وروحي أدبي   كره اللائم فيه أم أحب
أدب قد حفل الجد به   وهو في الظاهر لهو ولعب
واقع يعتبر المرء به   وخيال دب في الذهن وهب
ورجاء زاد في قسوته   كلما غالبه اليأس غلب
ملكات لا تسيء ظناً بها   إن سوء الظن مفتاح الريب

فتـاة الحـي

شاعرنا يدرك معاني الحب ويقدّر قيمة العاطفة ثم هو قاض مرت على يده كثير من مشاكل المجتمع وألوان وصور من حياة الناس وقضايا البيت والشارع. فهو بهذا قد لمس ما يكون سبباً في الاستفزاز وما هو مثار المشاكل بين الرجل والمرأة في هذا المجتمع ذي التقاليد المتوارثة.. والمنغلق آنذاك في تلك الحقب في سراديب عاداته.

لقد أفادته حياة القضاء ومكّنته من مشاهدة نماذج من حياة الناس، وهذه الأبيات تعكس مشاهد من المسرح الذي كان يراه القاضي الشاعر. فما هي أمنية الفتاة في المجتمع الذي عاش فيه الشاعر؟

فـتـاة الـحـي تـحـرسـهـا صـفـات   مـن الأخـلاق واسـعـة الـنـطـاق
فـتـاة لا تـريـد سـوى اقـتـران   بـزوج لا يـفـكـر فـي الـطـلاق
ويـأبـى أن يـضـاررهـا بـشـيء   لـيـرغـمـهـا عـلـى تـرك الـصـداق
وخـيـر مـن وصـالـهـمـا انـقـطـاع   إذا كـان الـمـصـيـر إلـى فـراق
ولـم يـكـن ارتـبـاطـهـمـا بـشـيء   إذا ارتـبـطـا بـود غـيـر بـاق
يـريـد الـلـه بـيـنـهـمـا حـيـاة   تـقـوم عـلـى الـمـودة والـوفـاق

* * *

والعلم أصدق شاهد ينبيك عن كرم الإله وبحره الدفاق
فانظر لمخترعات علم لم تكن سبقت ولا كتبت على أوراق
وسماع أصوات لأموات على بعد تبوح إليك بالأشواق
ولحمل أثقال يطار بها إلى نحو السماء تجول في الآفاق
ولطاقة ذرية جعلت لإمـ ـحاق المحارب أيما إمحاق
دلت على صدق الإله ووقعه في العالمين بقوة الميثاق
والله يخلق ما ترى من صنعه وهو البديع لصنعه والباقي
والنفس إن شعرت بما قد فاتها أضحت تئن كأنة المشتاق
فالله أسأل أن يوفقنا إلى عمل نسير به مع السبّاق

* * *

حُييتم اليوم لإحياء الوطن   يا مظهر الإنتاج والنبت الحسن
فما لكم إلى العلا من سلم   قطعاً سوى التعليم والتعلم
وإنما فاق ذوو الأحساب   بالعلم والحكمة والآداب
وأسعد الأوقات أوقات العملْ   وأنحس الأيام أيام الكسل
ما أخر الإنسان عن نيل المنى   سوى الإياس والخمول والونا
من ضيع الفرصة في وقت الصغر   يموت بالحسرة في وقت الكبر
وإنما الإنسان إنسان الرقي   وأدوم الأعمال نفعاً ما بقي
وكل ما فات على المقتدر   ينسب للتفريط لا للقدر
من أفرغ الجهد ولم يبلغ منى   فجهده كاف لإيجاد الثنا
فواصلوا أعمالكم في المدرسة   مثل الحساب وعلوم الهندسة
خذوا من اللغات بالقسط الأهمْ   واستخرجوها باللسان والقلم
ما أحسن اللفظ إذا المعنى ظهرْ   وهل يفيد الرعد من غير المطر
وإن بحثتم في أصول النسب   فاعتمدوا على عكاظ الأدب
وأحسنوا الإنشاء والجغرافية   وجملة من العروض وافية

* * *

الدينْ والأخلاق

بعد أصول الدين والأخلاق وكل ما فيه رضا الخلاّق
وعودوا قلوبكم بالرقة والعطف واللين بلا مشقة
ما ضوعف التنكيل من رب الورى إلاَّ لمغرور علا واستكبرا
واتئدوا في أمركم وائتلفوا وامشوا على السمت ولا تختلفوا
لا تسبق العثرة إلاَّ من عجلْ ولا يميل السيف إلاَّ من وجل
وجنبوا من القلوب الحسدا إن الحسود لا يسود أبدا
وكافئوا بالخير كل محسن وخالقوا الناس بخلق حسن
إياكمو وكثرة اللجاجة والسعي والمشي لغير حاجة
واجتلبوا مودة الإنسان واجتنبوا هذرمة اللسان
وراجعوا في الدِّين قانون السما وإن جهلتم فاستشيروا العلما
واعتقدوا خيراً بهم واحترسوا فرب رأي بالهوى ملتبس
ولم تزل حياتهم مفيدة إن حصلت سلامة العقيدة
ورب فيهمُ ذوو الألباب قد ضيعوا دائرة الصواب
واقتصروا على علوم الآخره فأضحت الأيام منهم خاسرة

* * *

اخفض جناحك لا تغررك أهواء | فكم تجلت من الأهواء أعداء
وابدأ بنفسك في داء تعالجه | لعل ما فيه مطويّ هو الداء
وربما فيك عيب لست تدركه | تظنه حسناً والنفس حسناء
يبدو لك العيب فيمن لا تحبهمُ | والعين عن عيب من تهواه عمياء
فانظر أخاك بقلب لا يقلبه | عذل العذول ولا للأذن إصغاء
واحمله إن زاغ في أمر على غلط | أَو أنه خطأ منه وأخطاء
أو أنك المخطىء اللاغي إصابته | قولاً صحيحاً وما للحق إلغاء
فصرت في الأمر لم تعرف إصابته | بالحق كانت وما للحق إخفاء
فهل أمرت بما جاء الكتاب به | ولم تكونه أقوال وآراء
وهل نسيت احتجاجاً كان منتشراً | تعجبت منه إخوان أجلاء
ما ليس يوجد في القانون نمنعه | ولا يكون لما في الشرع إبقاءُ
قد كنت بي وبأمثالي أخا صلة | تهوى الوصال كما تهوى الأحباء
ماذا دهاك فهل تأتيك نائبة | لم تستطع دفعها عنك الأخلاء
أم هل رأيت أناساً في مشيئتهم | هم دون قدرك قد فازوا بما شاؤوا
أم هل وجدت ولاة الأمر قد سكتوا | وبالسكوت عن التغيير قد ساؤوا

ما حيلة المرء إن ضاق السبيل وعم   الخطب واتسعت في الخرق أرجاء
تالله ما ساء نفسي غير ذي حسد   (إن مسها ضرر مسته سرّاء)
لسانه ذلق بالشر منطلق   وأذنه عن سماع الخير صمّاء
والاحتراس بسوء الظن مأمنة   للنفس وهو من التفريط إبراء
والمرء ما زال في ضيق وفي حرج   ما لم تصاحبه بيضاء وصفراء

* * *

الشريعة والقانون

أقول وإني لست عنك بكاتم ... مقالة حق لست فيها بآثم
إذا كنت في دنياك ما زلت سالماً ... فلا تك في أخراك لست بسالم
هل الله في أخراك يؤتيك رحمة ... إذا كنت في دنياك لست براحم
يهون علينا أن تكون كما تشا ... ولكن من البلوى إعانة ظالم
وليست بنا في نفسك اليوم حاجة ... وما أحد منا عليك بلائم
ولكن من البلوى التي تستفزنا ... إدانة مجروم وإبراء جارم
وأغبى الورى من يستبد برأيه ... ويزعم أن الشرع ليس بحاكم
يقول لنا ما عندكم ليس عندنا ... وما ليس في قانوننا غير لازم
يعارض بالقانون ما كان ثابتاً ... بنص خليل أو بنص ابن عاصم
ويا حبذا القانون ما دام نفعه ... بوضع لحكم الشرع غير مصادم
شريعة إسلام وعين حقيقة ... بتهذيب أخلاق وحسن مكارم
ويا حبذا من كان للحق ناصراً ... وفي الله لا تأخذه لومة لائم
إذا المرء حفته السعادة لم يزل ... له القلب يقظان وليس بنائم
على أننا ـ والحمد لله ـ لم نزل ... نقابل من أهل العلا بالمكارم
إذا نحن كنا في الحقوق كما نشا ... فلا بد من يوم لرد المظالم

ولولا حقوق الناس ما شرع القنا ولا احتاج ذو علم لإفتاء عالم

نظام حياة الناس عدل ورحمة وصدق وإيمان وحسن مكارم

* * *

جحا(1)

إني لأعجب من جحا وحياته فيما لديه من النوادر والسير
فعليَّ ترجمة الحياة تعذرت لم أدر كيف أقول من خير وشر
بالنقل والتقليد إن خلاله لذوي البصيرة عبرة لمن اعتبر
أدب الأديب لذي البصيرة لم يزل يزهو كما يزهو الجمال لذي البصر
فكأنه إن مات حي لم يمت من كان بعد الموت ينفع أم يضر
هذا قصارى القول مني في جحا ولعلّ منّي الغير أوسع في النظر
فلعل ما قد قيل تعبير خيا لي تصور لا حقيقي ظهر
لم أدر أن أبا نواس مثله أو فوقه فيما يسوء وما يسر
وشموس معرفة الأديب مضيئة كإضاءة الشمس المنيرة والقمر
إن كان في وطن الغباوة لا يرى مثل السهى لخفائه لا يعتبر

* * *

(1) طلب علي مصطفى المصراتي من الشاعر الشّارف أن يقول شيئاً عن جحا ويصوره لينشره في كتابه «جحا في ليبيا» فلبّى طلبه وتكرم الشاعر وأرسل هذه القصيدة للمصراتي ونشرها في كتاب «جحا.. في ليبيا» طبعة أولى ـ 1958م.

الصحـراء والإنسـان

بين فلسفة الطبيعة والنفس

هذه القصيدة من أطول ما نظم الشّارف. أوحت بها للشاعر ليلة صحراوية وقد بلغت 56 بيتاً.. ويقال إنها ترجمت للألمانية.

وشاسعة الأطراف واسعة الفضا   فلم تدر في ظلمائها أين تذهب

ولم يك في الظلماء نوراً مبدداً   بسبسبها إلاَّ إذا لاح كوكب

وتسمع أصوات الكلام مزيجة   بضجة حيّ إن حدا بك مطلب

ومن راح في أرجائها وفجاجها   يفاجئه ليث وذئب وثعلب

تشابه لوناً أرضها وسماؤها   ورب يقين بالشكوك مغيب

ونحن من الصحراء نبدي تذمراً   ومنظرها ذاك الجمال المحبب

مسارح غزلان وأجواء طائر   يحلق أحياناً بها ثم يذهب

يهب النسيم الطلق غير محجب   ورب نسيم في هواها محجب

إذا أصبحت من وطأة الجدب تشتكي   تداركها غيث من المزن صيّب

وقد شد فيها عنصر غير طيب   وكم عنصر فينا خبيث وطيب

وحوش بها شتى ولكن قوتها   على ضعفاء الجنس لا يتغلب

وحوش فلم يعرف لديها تحزب وهل في بني الإنسان إلاَّ التحزب
تعيش بلا عقل وليست مسيئة وكم عاقل فينا مسيء ومذنب
يخيل للإنسان أن لها حجى وأن لها فهماً به تتكسب
فيوحي إليها أن للشيء غاية وماذا على تنفيذه يترتب
وللنحل ما قد بز كل مهندس وللنمل ما فيه الفتى يتعجب
نشبه بالوحشي من كان جاهلاً ولكنه منا إلى الخير أقرب
ولا تعجبوا مما به من توحش ففي خلق الإنسان ما هو أعجب
يقولون إنسان شريف بعقله ولكن له نفس إلى الشر تجذب
مراء وإغراء وإيقاد فتنة وسير على غير الهدى وتعصب
ومكر وتمويه وسوء طوية طوية حقد نارها تتلهب
على غير ما شيء إذا غاب رشده يغلظ في أقواله ويؤنب
وليس له وزن يقام ولم يكن له ورع فيما يريد ويرغب
يقلد في أهوائه كل مذهب وليس له في جانب الحق مذهب
وإن كان جباراً يرى الناس حوله بهائم ترعى أو مطايا فتركب
وقد يستغل النفع منها لنفسه فيأكل منها ما يشاء ويشرب
جريء على قهر الضعيف وإن يقل له أحد «أف» يثور ويغضب
ورُبّ ضعيف إذ يحس بقوة تراه على ما دونه يتألّب
صفات تقضت بين ماض وحاضر غدا الشر من جرائها يتركب
توقع من تيارها كل عارف وأصبح منها خائفاً يترقب
ولست بمأمون إذا كنت غافلاً وحولك ثعبان وخلفك عقرب

وكيف تكون النفس يوماً سليمة إذا خالط النفس الشريفة أجرب
ونحن بني الإنسان إن لم يحفنا من الله توفيق نغير وننهب
إلى كل ممنوع نميل مع الهوى وقلنا هو الممنوع يحلو ويعذب
ونرجو صلاحاً والضغائن بيننا تدل على أن الرجاء مخيب
ونهمل حقاً ثم نشكو ضياعه ونحفظ ما من شأنه يتجنبُ
مصائبنا منا ونحن نعيبها ومن عيبنا يشكو الزمان ويندب
وما الرأي فيمن جاء يشكو ظلامة إذا كان من يشكو هو المتسبب
كشاةٍ إذا أودى بها الذئب لم يكن لمن لم يراقبها على الذئب مطلب

* * *

وهب أنه فينا أديب مثقف كريم شجاع أريحي مهذب
وزد أنه جوّاب شرق ومغرب خبير بأحوال الزمان مدرّب
وقد كان في دور الطفولة والصبا تربيه أم أو يراقبه أبُ
ففي هذه الدنيا ثلاث تغلبت على غيرها جاه ومال ومنصب
فمالك فتان وإبليس عابثٌ ونفسك تهوى والهوى بك يلعب
وإن قام إنسان لإحياء سنة يقولون رجعي وذا متعصب
فبعض على تلك المنصة كاتب وبعض على تلك المنابر يخطب
ونذكر للصاغي فتى متصوفاً تكلف أوصافاً بها يتمذهب
وما هي أوصاف السلوك حقيقة ولكنها أشراكه لك تنصب
إذا كان للصوفي زهد ابن أدهم فما باله فيما لدى الناس أشعب
وما الذكر والتسبيح منه بصادق ولكنه صنع به يتطلب

ومن طلب الدنيا بأعماله التي يراد بها الأخرى فذاك المذبذب

* * *

أراني قد أطنبت في ذكر من أسا ومن ضاق صدراً يستفز ويطنب
ولم أعن كل الناس بل من كثيرهم قليل إلى حسن الفضائل ينسب
يخافون يوماً لا يرى الناس مثله وجوه وأبصار بها تتقلب
ومن رزق التوفيق أصبح عزمه قوياً على دفع الردى يتوثب
ومن رام إصلاحاً وفي الوقت فرصة تناسبه أضحى لها يتأهب

* * *

سعد الفقير بحضرة المسعود

وقال أحمد الشّارف بين يدي شيخه «مسعود التباني بن السيد الطاهر» وكان ذلك في أول لقاء به في مدينة طرابلس:

سعد الفقير بحضرة المسعود   وزها المريد بسرها المشهود
وكلاهما مستغرق في حسنها   بهيام قلب خاشع وودود
والقلب من حر الكآبة والجوى   حتى استظل بظلها الممدود
لله فرع قد زكا من طاهر   أكرم بآباء له وجدود
يا ليلة الأنس التي حفلت بهم   عودي بألحان ونغمة عود
يا سيدي لا زلت في حلل الرضا   متمتعاً بمقامك المحمود
لا زال حبل الود موصولاً بكم   من غير قطع منكم وصدود
ويح الذين عموا وصموا وانثنوا   بملامهم وافوا بلام جحود
قد نفذوا حكماً بغير تصور   وتصفحوا الدعوى بغير شهود
والله لو عرفوا الطريق لأنشدوا   سعد الفقير بحضرة المسعود

* * *

حفلة مدرسية

دُعينا فلبينا الدعاء لحفلة ... دعاء محب بالمآثر مغرم
وما هي إلاّ حفلة مدرسية ... أقيمت إلى مشروع نفع معمم
فمن واجب الليبي حفظ كيانه ... ليدخل في دور العلا والتقدم
بني ليبيا لا تحسبوا اليوم عصركم ... كعصر مضى في عهده المتقدم
فلا تجعلوا بين الرقي وبينكم ... علاقة حب ربطها غير محكم
فزيدوا بأسباب الحياة تعلقاً ... ولا تزهدوا فيها كزهد ابن أدهم
فلا تتركوا شعباً يسير بجهله ... كمن سار في داج من الليل مظلم
جزى الله كل الخير جمعاً له يد ... يجر بها نفعاً إلى كل مسلم
ولسنا نرى في الشرق والغرب منة ... كمنة أستاذ على المتعلم
وها هو حسن الحظ قد مال نحوكم ... كميل محب للحبيب المتيم
رعى الله من للشعب أصبح ناصراً ... حقوقاً ومن لا ينصر الحق يندم
ومن يقتصر يوماً إلى نفع نفسه ... فليس بذي نفع إلى الشعب ينتمي
ولا فضل للإنسان إلاّ بعلمه ... ولا علم إلاّ بانتشار التعلم
ومن سار في دنياه يوماً بجهله ... كمن سار في البيداء وهو بها عمي
ولا خير في قطر إذا لم يكن له ... ثقافة شعب تحت حكم منظم
خذوا حذركم من وصمة الجهل وانظروا ... بعين يقين لا بعين التوهم

صـور ونمـاذج

شاعر في الصحراء

والشاعر عاش فترة غير يسيرة في الصحراء وشاهد صمتها الرائع واستمتع بسكونها البديع ورأى صوراً من زوابعها الثائرة.

وقصيدته التي قدمناها في ـ الصحراء ـ يقال إنها ترجمت إِلى الألمانية ـ والعهدة على الراوي ـ ولم نعلم من الذي ترجمها إِلى الألمانية ومتى.

ومن عاش في الصحراء أياماً لا بد أن يتعود على ظلام الليل... والجو الرهيب وركوب الإبل والجرأة والإقدام.

هذه أشياء تعوّدها الشاعر، وربت في قلبه حب الإقدام، وعوّدته على عوامل الجرأة، وهو بطبعه عربي كريم، محب لشيم العروبة والبداوة والسير في الليل والإدلاج في الصحراء الصامتة.. شيء جميل رائع يبعث في قلب الشاعر ذكريات، ويحرك مشاعر، ويلهمه قصيداً، وكم ألهم السير في الفيافي الشعراء القدامى، وإذا ذهبت للمتنبي وجدته جوّاب صحارى، يصف الليل، والخيل، والبيد. والبحتري وقصته مع ذئب الصحراء مشهورة لدى الأدباء، مروية لدى رواة الشعر.

أَحمد الشَّارف شاعر رهيف الحس. ها هو يترك مدينة طرابلس الجميلة، الهادئة.. ها هو في جوف الصحراء يقطع فيافي «سرت» على جمل يشاهد هذا الجو.. بنجومه ووجومه، وسمائه الصافية أحياناً، والمتلبدة أحياناً أخرى. إنه ذو همة، ولكنه قليل الحظ والشكوى ديدن الشعراء.

الشكوى طبيعة الشعراء، قد يكون مبعثها القلق، سواء القلق الناتج عن نفسية الفرد أَو القلق الناتج عن الوضع الاجتماعي للمجموع.

الشكوى طبيعة الشعراء، وقد يكون في هذا نوع من الخير أَو نبع من الفيض إذ لو اطمأن أصحاب القرائح ونالوا كل الاطمئنان، وكل الرضا، لخمدت مشاعر، وماتت أحاسيس.

ولكن مرة أخرى، قليل من النار قد يدفىء ويبعث الحرارة أما الكثير من النار فقد يحرق، ويهلك.

فالشكوى والتذمّر من طبع الفنان الأديب، حتى أن المفهرسين للدواوين يضعون باب الغزل وباب المديح ولا ينسون في تفاصيل العناوين والتبويبات وهندسة الفصول، باب الشكوى.. أَو على حد تعابير بعضهم باب «ذم الدهر».

ويبدو مع هذا أن ركوب الخيل في الصحراء قد يبعث على الخيلاء فما بالك، شاعر فوق ضامر، ها هو في هذه القطعة يصوّر رحلة، من رحلاته، وجولة من جولاته الصحراوية في «سرت»:

سل البيد عني تكن شاكري ... وإِلاَّ فسل ظلمة الحندس
وليلاً قطعت على ضامر ... ولم أخش من كثرة الحرس

* * *

ولا تنس أني كريم الشيم ... أخو المجد من تالد أَو طريف
ونفسي على ما بها من همم ... تسير مع الوقت سير الضعيف
ولكنه الحظ لما قسم ... فما نالني غير شيء طفيف
يقولون ما للفتى الشاعر ... فنى العمر في عيشه الأتعس

وقد صار كالمثل السائر   يحب المهى والظبا الكنس

* * *

إذا ما تعاطيت شبه الجنون   وأعرضت عن نهجي الكامل
فلا تتهمني بسوء الظنون   ولا تلبس الحق بالباطل
على أنني تارك كل دون   وما لي سوى الحب من شاغل
فودي هو الود من غابر   وعهدي هو العهد لم يعكس
ولا تنظر الصد في ظاهري   إذا كان بالحب قلبي كسي

* * *

ليال تقضت بشبه الجفا   وغادرت فيها جميل السير
وأضحى قيامي بغير الوفا   يخالف مني قياس النظر
وعندي من الشوق ما قد كفى   أقاسيه في أَحمد المنتصر
فتى كابر جاء عن كابر   فأكرم به من فتى كيس
وطلعته قرة الناظر   وغيبته حسرة الأنفس

* * *

على أي حال هو المرتضى   بهزل يطارحني أم بجد
وشرط المحبة حسن الرضا   فلا تبد سخطاً ولا تنتقد
ألا غفر الله ذنباً مضى   ولا نسخ الود مني بصد
أيا عاذلي فيه كن عاذري   ولا تَكُ في الحب ممن يسي

* * *

تـرانـي إذا غـاب عـن نـاظـري فـريـد وحـيـد بـلا مـؤنـس

* * *

سـلامـي ولا أكـتـفـي بـالـسـلام إذا لـم يـكـن مـتـحـفـاً بـالـقـبـول
يـزف اشـتـيـاقـاً لـذكـر الـهـمـام شـريـف الـمـعـالـي كـريـم الأصـول
ومـن لـم يـزل قـلـبـه مـسـتـهـام وخـامـره الـحـب فـي ابـن الـبـتـول
فـتـى جـاء فـي الـزمـن الآخـر وأحـيـا مـن الـفـضـل مـا قـد نـسـي
عـهـدنـاه فـي روضـة الـزاهـر جـنـى ثـمـراً طـيـب الـمـغـرس

* * *

الشاعر ووظيفة النيابة

نظم الشاعر هذه القطعة يصف حياته في وظيفة القضاء وهو المقصود بكلمة «نائب»:

منيت حياتي بالنيا ... بة وهي من نكد النوائبْ
تمشي على غرض يدبِّـ ... ـره مدير أَو مراقبْ
ولقيت من جرّائها ... جل الخصوم عليّ غاضبْ
ومن الخسارة أنها ... قد أيدت بأقل راتبْ
هي إن نظرت صغيرة ... ولرب ذي صغر مشاغبْ
ومن الشواغب أن أرى ... نكداً يمر على التعاقبْ
ولقلما يقع الموظف ... موقع الغرض المناسبْ
طوراً يصيب وتارة ... يأتي برأي غير صائب
تبّاً لعمر قد مضى ... بين التعارض والتكاذب
والخير في بث النصيحة ... بين مطلوب وطالب

دار الأديب

ومن طرائف قصائده هذه المنظومة التي يصف فيها الدار التي كان يسكنها ببلدة «تاورغا» عندما كان موظفاً هناك قبل عام 1920 إفرنجي:

دار منيت بها وبئس الدار ... لم تزه أحسن أم أساء الجار
دار بتاورغاء من يختارها ... سكناً له فلبئس ما يختار
دار على حكم الضرورة لم تزل ... سكناي حيث فقدت ما أختار
حكم الإله بأن أكون مكلفاً ... بقبول ما سمحت به الأقدار
لا جبر فيمن لا يهمك تركه ... ومع الضرورة يثبت الإجبار
دار لقد بليث فلا تنظيمها ... يحلو ولا كُلَل ولا أستار
كذميمة شمطاء ليس يزينها ... حلي ولا حلل ولا أزرار
فيها العقارب والعناكب جمة ... ومن التراب على الفراش غبار
إن دق مسمار على جنباتها ... ينقض منه ويسقط المسمار
كم فأرة طارت بها وذبابة ... طنت وكم لطنينها أدوار
عجباً لها لم تخش من سقف بها ... يهوي ومن جدر بها ينهار
وجماعة الفيران فيها قلّمت ... كتبي كما تتقلم الأظفار

لو أنها بقيت بموضع أمنها لم يغشها ضرر ولا إضرار
فعليّ كل الوزر إن عبثت بها وعلى المفرط تحمل الأوزار
وجماعة الفيران ليس يردها عن غيها أدب ولا إنذار
تمشي كما شاءت فليس يهمها فيما تريد عمارة ودمار
تؤذي وتفسد والفساد شعارها ولكل جنس عادة وشعار
والهرّ مفقود وقد فقد الدوا وعن المتاع فلا يغيب الفار
دار من العمل القديم طرازها ومن القديم تذمر ونفار
كتب الإله بأن أكون كنائب فيها وليس عن «القضاء» فرار
بالرغم من هذا وذاك أحبها والحب كم عميت به أبصار
أكرم بها داراً تجمع حولها عرب لهم فوق السباخ قرار
تلك السباخ كان أسطولاً بها متصعد في الجو منه بخار
كم عمة هيفاء باسقة لها من ذلك الطلع النضيد ثمار
يأتيك ساكنها ولا يؤتى لها ويزور أحياناً وليس يزار
ولقد رأى الخبراء في استيطانها خطراً وآجال الحياة قصار
ودوائر السوء التي دارت بها فلحادث قد دمرته شرار
جو تعكر ثم أعقبه صفا وكلاهما أبداً له تذكار
بلد تقيم به أناسٌ جُلُّهم ....
عرب فليس لهم بمحكمة القضا أجل أسجله ولا أعذار
الحق يظهر من طبيعة حالهم كرماً فلا لدد ولا إنكار
ليسوا من العرب الذين لهم على سنن القضا حرج ولا استنكار

عرب فليس لهم على متحضر سأم ولا ملل ولا استهتار
خفت مؤونتهم فلا بذخ ولا سرف ولا بطر ولا استكبار
أِلفوا التخشن في الحياة وقد رأوا أن التخشن عزة وفخار
ومن الورى من لا يميل لزخرف ولديه بهرجة الحضارة عار
ومن الورى من لا يلائم طبعه حسن الحضارة والورى أطوار
لولا التطور في النفوس لعطلت سبل الحياة وقلت الأنصار
والمرء مضطر إِلى من دونه فحياته أبداً عليه تدار
ونظام هذا الكون ليس يتم لو أن النفوس جميعهن كبار

* * *

نمـاذج... وضمائـر... وأخـلاق

تـالله مـا تـجـد الـحـيـاة سـعـيـدة   إلاَّ بـحـسـن مـكـارم الأخـلاق
لـلـقـلـب نـور إن أحـاط بـنـوره   كـرم الـصـفـات يـزيـد فـي الإشـراق
والـنـاس إن فـسـدت خـلائـقـهـم فـقـد   فـسـدت حـيـاتـهـمـو عـلـى الإطـلاق
فـإلـى الـفـسـاد تـقـودهـم شـهـواتـهـم   وضـعـت سـلاسـلـهـن فـي الأعـنـاق
أخـذوا مـن الأَدب الـحـديـث طـلاوة   وعـبـارة أحـلـى مـن الـتـريـاق
سـلـكـوا بـهـا سُـبـل الـمـودة والإخـا   مـا بـيـن مـصـري وبـيـن عـراق
فـإذا ارتـفـعـت تـمـوّهـوا بـوصـالـهـم   وإذا سـقـطـت أروك شـر فـراق
فـإذا هـمـو نـظـروا الـمـحـبـب واقـفـاً   نـحـو الـريـاسـة مـوقـف الـعـشـاق
قـالـوا «اجـتـمـاعـي» لـه شـخـصـيـةٌ   فـي الـنـاس بـارزة لـكـل مـلاق
ولـربـمـا قـالـوا شـبـاب نـاهـض   ومـثـقـف ومـن الـشـبـاب الـراقـي
والله يـعـلـم مـا تـكـن صـدورهـم   فـيـه ولـم يـخـرج مـن الأعـمـاق
ومـن الـضـمـائـر مـا يـبـاع بـخـفـيـة   والـبـعـض صـار يـبـاع فـي الأسـواق
وتـعـدد الأحـزاب لـم يـوضـع عـلـى   عـلاتـه إلاَّ لـوضـع شـقـاق
تـعـسـت حـيـاة فـتـى أراه مـغـلـبـاً   فـيـهـا رضـاه عـلـى رضـا الـخـلاق
في القلب أمراض عن الجسد انتفت   وعـن الـنـفـوس فـمـا لـهـا مـن واق

في النفس من حب الرياسة فتنة　　هي في النفوس كفتنة العشاق
يا من غدا في الصرف مقتصراً على　　سد الضرورة لادخار الباقي
فلئن رزقت المال فعلاً إنه　　مال إليك أتى من الرزّاق
فإذا شكرت فإن شكرك لم يفد　　إلاَّ بدرج سواك في الإنفاق
كابن السبيل ومن بشدة فقره　　يرثى له بالعطف والإشفاق
وذوو المكارم إن رأوا ذا حاجة　　قاموا على قدم إليه وساق

* * *

أردية الكذب

خلت قوماً أخلصوا فيما وجبْ   ثم قد ضلوا وتاهوا ما السببْ
إن للشيطان سيفاً عندما   شهر السيف عليهم فغلب
نسجوا من كيده أردية   جعلوا منها غطاء للكذب
لا يبالون إذا ما أكلوا   كل ما دب على الأرض وهب
حذراً من أن تراهم ظهروا   مظهر التهمة فيهم والريبْ
باحتيال ونفاق وريا   كسبوا مالاً وبئس المكتسب
عندما نالوا نصيباً من ذهبْ   خَرج الإخلاص عنهم وذهبْ

* * *

صورة متكبر

يا من غدا بالتيه يرفع أنفه نحو السماء وأسته في الماء
وأراه إن لاقيته متذمراً وقد ارتدى من كبره برداء
ويحسن هيكله ولين قوامه يمشي ويخطر مشية الخيلاء
وإذا الذبابة لامسته كأنها وقعت على كأس من الصهباء
بالله قل لي من تكون؟ وكم أرى في الناس مثلك من بني الغبراء
هل أنت من أفق السماء خلقت أم كالناس من طين خلقت وماء
اخفض جناحك لابن جنسك واعتبر سحر البيان وحكمة الشعراء
وارفق ولا تهن الضعيف لضعفه ومن الشقاء إهانة الضعفاء

* * *

صروف الدهر

مَن جال صرف الدهر في خطراته ... يرتج من أفعاله وصفاته
فيريه لذات السرور وطالما ... يتكون التنغيص من لذاته
وإذا تلاعب بالكرام فشيمة ... هي من قواعده وكلياته
وإذا أتاك بعكس شيمته فمن ... إنصاف دولته وعدل ولاته
ولقد يرى لأناته وثباته ... سبب يهيئه إلى وثباته
فاخشَ الدسائس إنها من طبعه ... واخشَ المكائد فهي من عاداته
وإذا نظرت إلى الشقاق فلم يكن ... إلاّ بسعي دعاته ودهاته
والناس أكثرهم يميل لذي يد ... وهُمو له تَبَعٌ على علاته
كالنعت يتبع دائماً منعوته ... في وضع صيغته وفي حركاته
لعب الزمان فصفقوا طرباً له ... وإذا شدا رقصوا على نغماته
والمرء إن أثرى يجل وإن غدا ... صفر اليدين فلا اعتبار لذاته
أضحى كلفظة شاعر يؤتى بها ... لضرورة الأوزان في كلماته

* * *

طباع وخلال

فؤادي كان في زمن الشباب ... يهيم بذكر زينب والرباب
وريعان الشباب له مداه ... إذا ما تم آذن بالذهاب
وها أنا بعده قد صرت شيخاً ... وهل شيخ يميل إلى التصابي
فقدت أحبتي وعريب حيّي ... وأتراباً مضوا تحت التراب
وكنت من الهموم خليّ بال ... إلى أن جاء عصر الانقلاب
جفاني من رأى كبري وشيبي ... وأفرط في التهاون والسباب
تجاهل أن لي قبسات فكر ... توضح كل أمر مستراب
تمر بجانب التحقيق مني ... بدون توقف مر السحاب
وليس يهمني من لا يبالي ... بترجيح الخطاء على الصواب
يريني جهله فأريه حلمي ... وأوثر قربه فيرى اجتنابي
ولست كمن إذا عقد انتخاب ... له شغف بحب الانتخاب
نراه إلى المراكز كل حين ... ولوعاً بالذهاب وبالإياب
ويسعى بالوشاية في أخيه ... ويفتح للأذية كل باب
ويختلق الحديث لمن يليه ... بلا وزن يقام ولا حساب
طغى وبغى بما كسبت يداه ... ويحرق في سبيل الاكتساب

فكم مال تناوله اختياراً له شبه بحكم الاغتصاب
تقلد خطة نسبت إليه ولم يحفظ حقوق الانتساب
أسر سريرة فبدت عليه وليس على السريرة من حجاب
يقابل بالسكوت لدى حضوري وينطق بالنميمة في غيابي
أقول لسامعيه دعوه يهذي وكفوا عنه ألسنة العتاب
إذا كتبت يداه لكم كتاباً فشيمته التصنع في الكتاب
فيغزله لكم غزلاً رقيقاً وينسجه لكم نسج الثياب
ورب فتى إذا رام احتيالاً على غرض تصنع في الخطاب
فلا يغرركمو منه ابتسام ومذق بالحديث المستطاب
سكوت المرء عنه أراه خيراً لدى الفضلاء من رد الجواب

* * *

فلسفة الحرب

دعائم الربح في حرب وفي سلم ... من قادة الجيش أو من ساسة الأمم
يحمون بالسيف ما قالوا وما كتبوا ... وآية السيف تحمي آية القلم
ولم تزل أدوات الحرب بينهمو ... تستخرج الحق من معنى ومن كلم
حرب لقد حيّر الألباب منظرها ... ولا رأى مثلها التاريخ في القدم
قد سخر العلم فيها كل معجزة ... تميت، تحيي الورى، تبري من السقم
ولم تدع جيش بَرّ غير مكتسح ... كلا ولا جيش بحر غير منهزم
وصار كل قوي من قنابلها ... في حيز الضعف أو في حيز العدم
وهكذا العلم يبدي كل خافية ... وكل خاف من الإسرار والحكم
والحرب تحمد ما دامت نتائجها ... إزاحة الظلم والطغيان والنقم
وأدوم الملك في ما صح أدومه ... عدلاً وكم تحت هذا العدل من نظم
كم ينتج العدل أنصاراً لأسرته ... فلا تظنن أن العدل ذا عقم
ونحن نعلم أن النصر لذته ... تأتي على قدر ما في الحرب من ألم
وهكذا الحرب ما زالت مصائبها ... ما بين منتقم منه ومنتقم
وهذه الحرب باليابان قد ختمت ... ولم يكن ذكرها يوماً بمختتم

* * *

صيادة أم سيادة؟

في جانب الشقاب توجد روضة   فيها أبٌ للسبعة الأجداد
والسبعة الأجداد في «بزليتن»   سلكوا بها سبل النبي الهادي
فتناولوا البركات من أسلافهم   وتزودوا منها بأفضل زاد
للّه زاوية تضاف إليهمو   بنيت لنشر العلم والإرشاد
كثر التناسل منهم حتى لقد   ملأوا البلاد بكثرة الأولاد
فبخشية وسكينة بلغوا المنى   وبطاعة كملت وحسن قياد
أما الذين ترأسوا وتزعموا   متظاهرين بحكمة وسداد
لفظ السيادة بينهم متباذل   فالحق تبدل سينه بالصاد
كن يا أخي ما دمت حياً ظاهراً   بين الأحبّة مظهر الأجداد

* * *

تشطير:

صور من النّاس

رب خل جفاك لما تعلّى — ويقرب الولاة عنك تخلى
لم يعد أن يقول أهلاً وسهلاً — ناسياً عهده الذي كان قبلاً
«صده الكبر عنك والخيلاء»

كلما رمت منه حسن التفات — فيريني التفات باغ وعات
منذ صار اتصاله بولاة — أصبحت نفسه كنفس فتاة
«خدعوها بقولهم حسناء»

إن أتى قومه لعقد أمور — كأمير أتى إلى مأمور
فهو منهم في غبطة وسرور — لم يزل من ثنائهم في غرور
«والغواني يغرهن الثناء»

* * *

الخلّ الوفي

يا خلي البال مني لا تكن خالي البال من الخلّ الوفي
أكتفي الآن بما قد كان لي منك في عهد تقضّى أكتفي
لا تخل إثبات شيء لم يكن ثابتاً أو نفي ما لم ينتف
لم يكن لي غير ما في نيتي تعرف النية أم لم تعرف
أبعد الناس من الخير فتىً شامخ النفس عن المستضعف
إن يكن عندك شيء كامن لك في القلب وعني مختفي
فاجعل الظاهر أنساً ورضا واجعل اللوم من السر الخفي

شكى الشاعر من طائفة تنثر بلسانها وتؤذي في نميمتها.

بليت بأوغاد يخوضون في عرضي　　فويل لهم يوم الحساب من العرض
لئام قد استعلوا على كل ذاكر　　وهم من جناب الله في غاية الخفض
على الإثم والعدوان كل تعاونوا　　ولا عمروا وقتاً بنفل ولا فرض
أيا طالما ضلت أناس بقولهم　　ومن فعلهم ضجت ملائكة الأرض
فكيف يميل المرء عن غي نفسه　　وعيناه عن أهل الحقيقة في غمض

* * *

أيها الحاكم انتقل لا عدمت التنقلا
خل كرسيك الذي منك غيظاً قد امتلا
جئت كالصخر فوقه ومن الصخر أثقلا
لا تحمّله إنه لا يطيق التحملا
أنت في الجهل آخر مثل ما كنت أولا
قد تجليت صورة وتمثلت هيكلا
قد ظنناك قاضياً ليس إلاّ لتعدلا
تابعاً سنة الذي جاء بالحق مرسلا
فإذا الأرض أجدبت وإذا الربع أمحلا
أصبح العيش مدبراً وغدا القحط مقبلا
إن للدين حلية لا تجاري التحيلا
ليس للعلم حاجة لك إلاّ لتعملا

حياة الموظف

يا من غدا للنصح خير مثال إن كنت تسمع فاستمع لمقالي
قل للذين يؤملون وظيفة كي يجتنوا ثمراً من الآمال
ويحاولون إراحتي وتوهموا أن الوظيفة لا تناسب حالي
لا تسأموا فلكل شيء غاية ونهاية كنهاية الآجال
كبر الموظف لا يؤخره إذا سلمت مداركه من الإخلال
إن الموظف لا يزال موظفاً حتى يصاب بآفة الإهمال
لا تحسبوا أن الموظف سيد فسيادة التوظيف محض خيال
فبقدر مدته يجل وعزله يضع الإهانة موضع الإجلال
وإذا هفا قلم الموظف هفوة بقيت له مثلاً من الأمثال
والراتب الشهري مقتصر على سد الضرورة لا لوفرة مال
والمرء إن تربت يداه أصابه سوء الوبال وكثرة البلبال
عجباً لشخص قد تمول وهو في طلب الوظيفة لم يزل متغالي
ولرب أفراد لهم شغف بها لمجرد التشريف والإقبال
والبعض قد ركنوا إلى ذي شوكة يحمي كرامته من الأنذال
ربحوا مساعدة الزمان وبعضهم جعل التملق فيه رأس المال

والفائزون بحظهم أنا مثلهم في خدمة سبقت وهم أمثالي
ما زلت أنسجها على منوالهم وهم لقد نسجوا على منوالي
كم معشر نفخوا ولست بنافخ وسلوا معارفهم ولست بسالي
ولطالما فيهم أقول لعاذلي دعني فما لك يا عذول وما لي
ولقد شعرت بكل ما هموا به نحوي ولست من الشعور بخال
فليبلغوا كل المنى فهُمُ بني وطني ومنشأ جيرتي وعيالي
وأودّ أن تبقى مهيأة لهم سُبُل الوظائف باتساع مجال
إن الوظائف جمة ونظامها متفاوت بتفاوت الأحوال
وأهمّها في النفع ما بنيت على إيجاد تربية وحسن خلال
خطط يخصصها القوي لمن يشا سيّان فيها سادة وموالي
فيدير كفتها بحفظ الأمر أو لصيانة الفقراء والعمال
خطط على حسب الظروف تعينت وظروفها لا تستقر بحال
وعناصر الأيام ذات تقلّب والمرء بين تقلّب وزوال
مضت العصور وما علمنا خطة سلمت من التغيير والإبدال
والعارفون يرون كل موظف لم يخل من وحل ومن أوحال
إن الموظف من يوظف نفسه بالجد في عمل من الأعمال
كتجارة ربحت وفن زراعة نجحت بإنتاج لها متوال
وصناعة فنية يبقى لها أثر يدوم إِلى مدى الأجيال
حرية تركته يفعل ما يشا من غير إرهاق ولا إذلالِ
شرط الموظف أن يكون مهذباً وموالياً للخير كل موال

عمل يواصله بكل روية وصفاء وجدان وراحة بال
لم يثنه طمع ولا جاه ولم يعرف سوى المتكبر المتعال

* * *

ومن البلية من لديه فظاظة وله الغرور ملازم متوال
يمشي ويخطر مشية الخيلاء في مضماره ومجرجر الأذيال
ولديه من نسق الكلام أجله هذر اللسان وزخرف الأقوال
وتراه قد ملئت حناجره بما يلقيه من قيل لديه وقال
رسمت له خطط تجاوز حدها بالجهل أو بالعمد غير مبال
ولربما ظهرت وظيفته لدى نظر القضية مظهر استغلال
يسدي ويلحم في الشؤون كما يشا ويميل نحو يمينها وشمال
وذوو الغباوة ساكتون وربما شفع الفتى بغباوة الجهال
ولربما كانت مشاركة لهم فيما يزاول دون ما استقلال
والنفس في نزعاتها أمارة بالسوء تلعب في الفضاء الخالي
فالله يشملنا بكامل عفوه وبرحمة وسعت وحسن مآل

* * *

مراســلات

في عام 1938، كانت هناك نخبة من الأدباء وأهل الصحافة والشعر يتزاورون وتكون مناسبات للسمر والمداعبات ومطارحات في الأدب والشعر.

وكان في مقدمة هؤلاء السادة:

أَحمد الشَّارف القاضي والشاعر، وأَحمد رفيق المهدوي الشاعر الأديب، وعمر فخري المحيشي الصحفي الكاتب، وعلي الجربي الرجل المثقف والذي كان في ذلك الحين نائب عميد بلدية «درنة».

وكان هناك محمّد عبد القادر الحصادي الشاعر الأديب.

وتصادف أن قام الصحفي الكاتب عمر فخري المحيشي بزيارة لمدينة درنة وزار الأدباء والشعراء والأصدقاء فيها ولكنه قصّر في زيارة صديقه الشاعر الحصادي.

وعتب عليه الشاعر وأخذ يلوم حظ الشعراء، كيف لا يزوره وكيف لا يدعى الشاعر الأديب إِلى الحفل الذي أقامه الأستاذ علي الجربيّ.

ونشر الصحفي عمر المحيشي قصيدة صديقه الحصادي.

وعند نشرها في مجلة «ليبيا المصورة» لم يرض الشاعر رفيق المهدوي

بالحكم الذي أصدره الحصادي على حظ الشعراء، بل طالب بمحاكمة السيدين الجربي والمحيشي وطلب الشاعر رفيق المهدوي رفع الحكم إلى شاعر ليبيا أَحمد الشَّارف، ونشرت القصيدة.

وعند الاطلاع عليها نظم الشاعر أَحمد الشَّارف هذه القصيدة في مجلة «ليبيا المصورة» في ديسمبر 1938.

أصدرت محكمة الاستئناف الأدبية بطرابلس الغرب

الحكم التالي

لقد نشرنا بساط البحث في درر ولم تكن درر لكنها كلم
قضية عظمت فيها مشقتنا «لولا المشقة ساد الناس كلهم»

* * *

الواقـــع

كان «المحيشي» قد وافى على قدر　　«درنا» وقد كان فيها الشاعر الفهم
وقد تولى «أبو سامي» ضيافته　　وليس بينهما إلاّ الوفا رحم
وفي مكان سوي كان منزله　　نعم المكان ونعم المنزل الضخم
حتى إذا حان وقت الأكل قد حضرت　　تلك «القطائف والبوريك واللقم»
والشاي قد دار بالكاسات دورته　　بين السماطين منهل ومنسجم
وهكذا كل من يرضي أحبته　　يقيم حفلة تكريم إذا قدموا

* * *

فلام من لام في إغفال شاعرهم　　ولم يكن لهم عذراً كما زعموا
ما كان ضرهمُ لو زار مجلسهم　　لو زار مجلسهم ما كان ضرهمُ
ولم يكن بالفقيه القح ذا ثقل　　كأنه علم من فوقه علم
ولا يرى الفضل إلاّ في عمامته　　وتحت ألفاظه الجوفاء ما يصم
يقول «يعني كذا وهكذا ذكروا　　وفي كتاب خليل جاء نصهمُ»
وإن تجل يده يوماً بمأدبة　　ليفعلن بها ما يفعل النهم
وإن شاعرهم فيما يخيل لي　　باللطف متصف بالظرف متسم
ولم يكن بالقديم الصرف مشربه　　إن الشبيبة من أعدائها القدم

فكان ما كان من هرج ومن مرج ومن محاولة زلت بها القدم

* * *

أما «المحيشي» أحال الأمر للشعرا أن يحكموا فهو مسؤول بما حكموا
وبرأ الشاعر المسكين ساحتهم وبات في لجج الأهواء يقتحم
يقول لا عتب في رأيي على أحد إلاَّ على الحظ فانظر فيه يا فهم
و«المهدوي» أبى إلاَّ معاقبة كي لا يعود ولا يسري لغيرهم
وجاء ينشر من آرائه حججاً تجر ذيل فخار وهي تبتسم
سود ذوائبها بيض ترائبها درم مرافقها في خلفها عمم
كالشمس في وضح والصبح في بلج لم يغش نورهما غيم ولا قتم

* * *

أرى لحكمك يا أستاذ «فذلكة» ... «فيها على الحظ جار الحكم والحكم»
يا هل ترى حيث لم يضممك مجلسهم ... من سوء حظك أو من سوء حظهم
وهل لحظك دخل في قضيتنا ... مهما جرى الأمر طوعاً باختيارهم
الغدر بالحظ لم يرفع مؤاخذة ... ما لم يكن خارجاً عن حد وسعهم
لو صح رأيك لم يؤخذ قصاص ولم ... يطلب خلاص فلا حكم ولا حكم
وهذه منك يا أستاذ نادرة ... بمثلها تضرب الأمثال والحكم
ألم تكن للفتى «الجربي» هيمنة ... وفي يديه زمام الأمر مستلم
وحجة «البيك» أضحت غير ناهضة ... لأنها من قبيل الدفع يا فهم
ولو أراد من «الجربي» حاجته ... إلى اللقاء لعم الجود والكرم
وحيث ليس لهم عذر يبرئهم ... لم يظلم الحظ كلا بل همُ ظلموا
هلا وخزتهما يوماً بقافية ... وخزاً يقوم بها القرطاس والقلم
أما ترى الشعر لا يرضى لصاحبه ... بأن يهان ولا ترعى له ذمم
وقيمة الشعر قدماً كان يعرفها ... «قوم هم الأنف والأذناب غيرهم»
رمى «نميراً» بهم عن غير طائشة ... حتى أصيبت بجرح ليس يلتئم
والشعر كالنحل يجني كل فاكهة ... لكن إذا هاج فيه السم والدسم
والعود والفج والطنبور يعرفه ... والقصر والمدح والترجيع والنغم

الحكم

إن (المحيشي) و(الجربي) في نظري كلاهما بارتكاب الجرم متهم
فإن هما اعتذرا لم يجد عذرهما نفعاً وإن ندما لا ينفع الندم
خير من العفو عندي أن تعاقبهم شر العقاب ولكن دون قتلهم
إلاّ إذا أظهروا إعلان توبتهم فوق الصحيفة بالإمضاء مختتم
وقد ضربنا إِلى إعلانهم أجلاً من قبل أن تتقاضى الأشهر الحرم
وإن تكرر فيما بعد جرمهمُ عمداً يهد عليهم سيلنا العرم
وللقوافي إذا هاجت بلابلها يوم الكريهة جيش ليس ينهزم

أحمد الشارف

الحاكم الاستئنافي

وجه الحبيب والقمر..
أيهما أحلى؟!

زار الشاعر أَحمد الشَّارف برقة وتجوّل بالجبل الأخضر في شهر يونيو 1935 إفرنجي. وكانت الجولة بصحبة بعض القضاة والأدباء والصحافيين. وفي برقة، في الطريق، نظر الشاعر الشارف إِلى البدر مكتملاً، وكانت فترة شاعرية، ونظرة تأمّل مشحونة بالإحساس، وتذوق الجمال الطبيعي. وقد توقفت السيارة لعطب بها وانهمك السائق في إصلاحها وارتجل الشاعر بيتين على البديهة فيهما إبداع وطرافة. وما سرت هذه القبسة الشعرية حتى غدت محور محاورات أدبية ومناظرات شعرية.. وأحدثت نفثة الشاعر هزة في مجالس الفن والأَدب.

روى الشاعر الشَّارف بيتين موجهاً الخطاب إِلى الشاعر رفيق المهدوي وعناه بـ«فقيه البيان». وكان المهدوي يحترم أدب الشَّارف ومكانته ويطلق عليه لقب «أمير البيان».

أرأيت احترام الأدباء في ذلك الجيل؟ هو احترام متبادل. لا تحطيم ولا تهديم. ولسنا نقيس الآثار الأَدبية على ضوء هذه الألقاب وإنما نرى فيها صورة من تقديرهم واحترامهم بعضهم لبعض:

يا فقيه البيان قم وتأمل   قمراً في سمائه قد تجلى
أمن الحق أن يكون شبيهاً   بمحيا الحبيب أم هو أحلى؟

وأجاب رفيق المهدوي قائلاً:

يا أمير البيان هذا سؤال ... كان حق جوابه منك أولى
كيف يفتى ومالك في مكان ... ملك الحكم وحده واستقلا
ليس لي أن أقول إلاّ امتثالا ... بعد إذن فهل سمحتم وإلا..
غير أني أقول رأيي ولا أحـ ... ـكم مثل الثقاة إذ لست أهلا
ثم إني أخاف منك إذا استؤنـ ... ـف حكمي يعاد لي مضمحلا
ما توهمت فيكم الحيف فيما ... قلت كلا وحقكم ثم كلا
قلت لما سمعت (قم وتأمل ... قمراً في سمائه قد تجلى
أمن الحق أن يكون شبيهاً ... بمحيا الحبيب أم هو أعلى؟)
إن وجه الحبيب يفضل عندي ... قمراً في سمائه قد تجلى
لي دليل والحق يسمح بل يو ... جب للمدعي بأن يستدلا
أين للبدر كالحبيب عيون ... تسحر الناس سحرها كان أحلى
ليس للبدر وجنة تخجل الور ... د جمالاً فيرسل الدمع طلا
أين للبدر كالحبيب ابتسام ... عن ثنايا كالدر أو هي أغلى
غاية البدر أن يقال شبيه ... بجبين الحبيب لاح مطلا
هو من حاجبيه قاب قوسيـ ... ـن وما طال بل دنا وتدلى
إن للبدر وهو بدر عيوب ... حسن وجه الحبيب منها تخلى
أبرص اللون يعتريه اصفرار ... ونحول كوارد الموت سلا
يعتريه المحاق ثم تراه ... عاد مثل العرجون لما تولى
كاذب طالما سمعناه قد غر ... بمن قد سرى وصام وصلى

لا أحب الهجاء طبعاً ولو شئت   لأظهرت عيبه مستدلا
أكتفي بالذي تبادر والحكـ   ـم إليكم في فضل من كان أعلى

ودارت المحاورة وتجددت بعد قفلة الشاعر من جولته في ربوع «المناطق الشرقية من الوطن» وانبرى الشاعران ـ الشارف، والمهدوي ـ من جديد في قضية البدر وجماله ومقارنة جماله بوجه الحبيب.

ومن روائع أبيات المهدوي:

واعتقادي أن لا ثبات لحكم   في فنون الجمال والأشعار
ليس للعقل والأدلة في حكـ   ـم قضايا الجمال من اعتبار
إنما الحكم في الجمال وفي الفن   إِلى الذوق لا إِلى الاختيار
واختلاف الأذواق في الناس ما ز   ال مدى الدهر حجة للماري
لكن الذوق إن تأيد بالإجما   ع أضحى كأنه الحكم جاري
وكذا الحكم في التفاضل في الذو   ق عسير لا ينتهي لقرار
إن نفس الشعور في الشخص لا يبـ   ـقى على حالة لذي الاختبار
أترى الشيخ لا يزال كما كا   ن شعوراً يوم اخضرار العذار
فاختلاف الأذواق في الشعر والحسـ   ـن وصوت الأوتار ليس بعار
ولذا لا يزال رأيي   إِلى فضل الحبيب بالاختصار

وأجاب الشاعر الشَّارف مدافعاً عن وجهة نظره:

أيها الشاعر المجيد أراك اليو   م من شيعتي ومن أنصاري
إن لله في الأنام شؤوناً   واعتباراً إِلى أولي الأبصار

أبدع الصنع في البحار كما أبـ ـدع في الجو آية الطيار
(كل يوم تبدي صروف الليالي) عجباً من لطائف الأسرار
عبر تملأ الفؤاد خشوعاً وخضوعاً للواحد القهار
وانظر «المهدويّ» إن جاء في أخباره عن جهينة الأخبار
إن وجه الحبيب فيه كما تعلـ ـم ما لا يكون في الأقمار
لست أنسى محاسن البدر لكن حسن وجه الحبيب عين اختياري
أنا لولاه ما عانيت شو قي ولا عدمت اصطباري
لا ولا رق لي النسيب ولا التشـ ـبيب يوماً ولا خلعت عذاري
نرجس فوق وردة تركتني هائم القلب دائم التذكار
فمحيا الحبيب فيه كما تعلم ما لا يكون في الأقمار
ليس من قصدك الخلاف ولكن فتح باب لجيد الأشعار

* * *

الشَّارف يُحَيِّي شوقي

كان في القاهرة عام 1927 إفرنجي موسم من مواسم الأَدب، وسوق من أسواق الشعر، على ضفاف النيل، حيث عقدت مؤتمرات أدبية وندوات لتكريم الشاعر أَحمد شوقي.

وفي هذه المهرجانات قدّم الشعراء البيعة لأَحمد شوقي أميراً على الشعراء، وشهدت القاهرة سوقاً عامرة زاخرة، ندر أن يرى الأَدب الحديث سوقاً مثلها.

مهرجانات، وندوات ترمز إِلى تكريم الفكر وإِلى قيمة الكلمة ووزن الشعر.

عمالقة الشعر.. وفي دولة الشعر نوابغ وعمالقة.

وأقزام.. وفي سوق النثر أيضاً عمالقة وأقزام.

ولكن كسب الأَدب في هذه الأسواق دراسات وقصائد وكتباً منوعة. وأقيمت حفلة التكريم لأَحمد شوقي في دار الأوبرا وكان في مقدمة الحاضرين أَحمد شفيق الكاتب، أَحمد حافظ عوض الصحفي صاحب «كوكب الشرق»، توفيق دياب الخطيب المفوَّه، والشاعر حافظ إبراهيم الذي ألقى في الحفل قصيدته الشهيرة مخاطباً شوقي:

أميـر القـوافـي قـد أتيـت مبـايـعـاً — وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وخليل مطران.

وألقيت قصائد وخطب وكلمات في حفل آخر:

قصيدة للأمير «شكيب أرسلان، ومحمّد الحداد، وصالح بن سعيد من عدن وبدر من علماء حلب إلخ..

وأين صوت طرابلس الغرب، أين مشاعرها الأَدبية؟. كانت هناك قصيدة تسعى أَو تحلّق من سماء طرابلس الغرب، من ليبيا.. من وراء الأسلاك والأسوار.

قصيدة الشاعر أَحمد الشَّارف.

كان صاحبها يتوق لحضور الحفل.. حفل موسم الأَدب والشعر على شط النيل، لولا قوة الاستبداد الاستعماري الذي حاول أن يقطع البلاد من ركب العروبة. حالت أساليب الاستعمار الطلياني دون حضور الشاعر الطرابلسي هذا الحفل العربي.

لم يحضر بشخصه، ولكن حضر بروحه، وساهم بفكره..

أرسل أَحمد الشَّارف قصيدته لتنوب عنه وتلقى في الحفل تحية من طرابلس إِلى أمير الشعراء.

وكم طربت الأسماع، واهتزت النفوس الشاعرة لهذا الشاعر البعيد الذي عرَّف به شعره، ونمّ عنه قصيده، وأفصح عنه بيانه.. شاعر من بلاد الغرب.

هكذا قالوا ـ والمغرب ـ أَو الغرب في عرف أولئك الأدباء هو ما عرفوه من تاريخ العرب المجيد.

يوم لم تكن هناك تقسيمات أَو حدود أَو أسلاك.. وطرب واهتز شوقي. القصيدة من شاعر طرابلسي أثمن لديه من شجرة اللؤلؤ التي أرسلها له أحد أمراء العرب.

وحوت القصيدة روحاً عربية، وشعوراً يتدفق من نبع الإحساس الصادق.

لم تنشر القصيدة في بلاد الشاعر ـ أَحمد الشَّارف.

وهل كان الاستعمار الإيطالي البليد يسمح بنشر الدرر الغوالي من شعر العروبة والوطنية.

ولكن القصيدة كانت موجودة في أوراق أَحمد شوقي.

والقصيدة موجودة شاهدناها في أوراق أَحمد الشارف.

وبقيت رغم أنف الاستعمار الغابر، بقيت في تاريخ الأَدب همزة وصل، وصفحة فخر، ورابطة بين القلوب.

وذهب شوقي... وذهب الشَّارف.

وبقيت القصيدة رمزاً لفكرة، ودلالة لمعنى، وصورة حية لنبض كريم. وهل هناك مثل الأدباء وصنّاع الحرف، من يربط بين الشعوب ويصل ما أمر الله به أن يوصل.

لا نطيل، ولا نعلق، فلا يقتل بعض القصائد مثل الإطالة في الشرح والتعليق.

إليكم يا شباب الجيل ـ وكل جيل ـ قصيدة الشَّارف التي بعث بها تحية لأَحمد شوقي في مهرجان الشعر والفن، تنشر هنا لأول مرة، وإن حفظها شعراء العرب في تلك الفترة.

روحوني بما يريح فؤادي ... واذكروا المنحنى وذاك الوادي

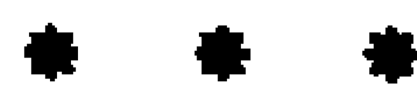
يا أخلاء، لا عدمت سهاداً ... إن يكن في سبيل شوقي سهادي

عيل صبري، وطال سقمي حتى ... سئمت من عيادتي عوادي

قد أطعت الهوى وما خلت أني ... في سبيل الهوى أضعت رشادي

إن شوقي إليك يا واديَ النيل ... أبى أن يهيم في كل وادِ

ولئن ضاع فيك طالع حظي لم يضع في هواك أجر اجتهادي
ليت عهد الحبيب في مصر أضوا ني لدى المنتدى وذاك النادي
حيث قامت بلابل العرب تشدو من بني الشام أو بني بغداد
حيث أمسى حديث شوقي معاداً والحديث الشوقي أحلى معاد
أحمد الله ثم أحمد شوقي لا عدمت اتصاله «بفؤادي»
صف أميراً أطاعه كل بيت في قبول الأسباب والأوتاد
وإذا ركب التفاعيل أضحى كل بيت به رفيع العماد
كلم من سوانح الفكر تبدو وهي مثل السيوف في الأغماد
فإذا شهرت لحالة بؤس أخذت في تفتت الأكباد
أو أصاخت لمنشديها جبال لتداعت من رقة الإنشاد
رب شعر يمجه الذوق مجاً ورويّ تراه صعب القياد
وهو في ثقله أتى كحروف الـ ـنفي للسائلين والقصاد
ما رأينا كشعر أحمد شعراً سار في المشرقين سير اطراد
فهو إما لحكمة أو لذكرى أو لسلوى أو نهضة أو وداد
وإذا شبه المها بنسيب فاخش يا صاح فتنة الزهاد
مخلقات وعودها لا لعذر ضاربات الآجال للميعاد



يا أخا الأمر والإمارة والإعـ ـجاز في كل حاضر أو بادي
لك في الشرق عبقرية شعر هي كالنيل ما لها من نفاد
أصبحت في نفوسنا تتمشى كتمشي العقار في الأجساد

يوم تكريمك المحبب ضاءت قبسات من نورك الوقاد
أثبتوا الفضل فيك إلاّ قليلاً ليس يخلو الكرام من أضداد
آية منك أبطلت كل سحر وشفت كل ناطق بالضاد
فاتخذها يا شرق آية فخر لك واستبقها لصوت الحادي

ولعل الشَّارف يقصد بالإشارة إلى القليل في قصيدته هنا، الذين ناوأوا شوقي. يقصد جماعة الديوان شكري والعقاد والمازني الذين أعلنوا الحرب في تلك الآونة، مما يعرفه دارسو الحركة الفكرية والأدبية والنقدية في مطلع هذا القرن.

ولا ينجو شاعر أَو أديب من ناقدين - على حق - أَو هامزين لغرض - وكان العقاد صاحب فكرة ومنهج. وأخيراً رجع إِلى إنصاف شوقي والاعتراف بقيمته في الدراسات الفنية.

وهناك غامزون لشوقي يحاولون الانتقاص من سهمه الوطني، ولكن شعر شوقي ومجهوداته تثبت قيمته في النضال العربي والإسلامي.

شوقي قمة عالية، وثروة يعتز بها الأَدب العربي.

* * *

هديـة السَّـلام

هــات الـقـلـيــل مــن الـمـلا م وهــات مــا دون الــمــلام

عــذراً فــلــيــس لــدي مــا أهــدي إلـيــك ســوى الــسَّــلام

* * *

جيل وجيل

رسالة شعرية من والد إلى ولده

بنيّ أريد وأنت تريد وبيني وبينك شأو بعيد
وإني خلقت لعصر مضى وأنت خلقت لعصر جديد
طعامي كما أشتهي واحدٌ وأنت الذي تشتهي أن يزيد
تحب الملاعق فوق الصحون وتأبى الأصابع فوق الثريد
وها أنت تقفز في المشي قفزاً وها أنا أمشي رويداً رويد
وما كنت أعرف حلق اللحى وأنت ترى الحلق أمراً أكيد
كلانا بما عنده قانع فمني القديم ومنك الجديد
وكل جديد كما قد ترى يبيد ومن ذا الذي لا يبيد
وهب أن لي في زماني حياة تقضت ولكن حياة الجمود
لك الإذن في جبر ما فاتني تفيد بني العصر أو تستفيد
وما فات لم أستطع رده وقد كان أقسم أن لا يعود
بنيّ استقم يا بنيّ استقم لتأمن من هول يوم الوعيد
وكن لي على جانب لين ولا تك لي مقمعاً من حديد
وخذ ما كفى من شؤون الحياة وأجمل إذا ما طلبت المزيد

وجودك مني وقد نلته فهل أنت تنكر فضل الوجود
فكم جلب الشكر من نعمة وكم ذهبت نعمة بالجحود
وعنوان فضلك لا تنسه كفاك من النظم بيت القصيد

* * *

رسالة لصديقه الأديب (السنوسي بن صالح)
وكان التراسل بالشعر من الظواهر الأدبية في حياة هؤلاء الناس - قال الشّارف مخاطباً صاحبه وهو من العلماء والقضاة ويرجع أصله إلى «مسلاته» وهاجر إلى بلاد الشام.. رحم الله الجميع:

بما لك من ود قديم ومن عطف
وما بك من حسن الكياسة والظرف
لقد رقّ لي منك العتاب كأنه
عليل نسيم هب من جانب الخيف
أقبله إذ جاء تقبيل خاشع
وأرفعه فوق الحواجب والطرف
وأنت (السنوسي الشريف بن صالح)
وفضلك جم لا يحيط به وصفي
وما بيننا عرف سوى الحب والوفا
وحكمك قد يبنى على شاهد العرف
فويلي من الأشجان لو لم تحفني
بقية آمال لكان بها حتفي

لقد كنت إلفاً لا أريد فراقه
وأصعب شيء أن يفارقني إلفي

ليال مضت أمست كأحلام نائم
لدى الفاضل «الزدام»[1] وكنت بها حلفي

يقابلني فيها خليلي ومؤنسي
وصحبي وأشياخي مقابلة اللطف

مجالس أنس قد بلغت بها المنى
وقد نلت من ذاك المنى فوق ما يكفي

وكم قلت والهفي إذا ما ذكرتها
وهل تذهب الأشجان إن قلت: والهفي!

لدي من الأشواق ما لو شرحته
لألهاك شرحي عن مطالعة الصحف

أبى الله إلاَّ أن أعيش متيماً
وأظهر شكواي الغرام ولا أخفي

أعلل قلبي بالوصال تكلفاً
لأقوي على ما بي فيمنعني ضعفي

وما عاقني يا ابن العلا غير عائق
ولا راعني حيف ولا خفت من حيف

وإني كما تدريه في ظل دولة
لهم وطأة لا وطأة الظلم والضعف

(1) أحمد الزدام الشاعر صديق الشارف كما سبقت الإشارة وقد استشهد إذ جند له الخونة من الباندات الذين كانوا مع الطليان.

ولكن حياة بالقضاء منوطة
وعمر مضى بين التنازع والخلف

ولولا حقوق لا سبيل لتركها
لألقت يميني كل شاغلة خلفي

ويوماً بذات الزعفران[1] دعوتني
إلى ساعة التوديع بل ساعة الرجف

ونحن على ذات النجار فلم يتح
لنا الوقت إلاً وضع كف على كف

وودتك ضيفاً لو رضيت أقله
ثلاثة أيام تكون بها ضيفي

وقد كان لي قسط من الوجد والضنا
فحملني التوديع ضعفاً على ضعف

فمن ذاك لم نسمع ومن ذاك لم نجد
وذاك لما في الدهر من علل الصرف

أتذكر ما في سالف العهد قلته
أليس الذي قد قلته جاء مستوفي

وها أنا في واد من الشوق هائم
وفي بحره الطامي غريق فما خوفي

وحسبك مني أن أزف تحية
مفوفة البردين طيبة العرف

---

(1) ذات الزعفران يقصد مدينة مسلاته لكثرة نبات الزعفران بها.

حـكـت روضـة غـنـاء زاهـيـة الـربـى
مـرنـحـة الأغـصـان دانـيـة الـقـطـف

عـلـيـه سـلام الـلّـه مـا لاح بـارق
ومـا نـاح قـمـريّ يـحـن إلـى إلـف

* * *

إلى أبو القاسم الباروني[1]

أرسلها إلى صديقه أبي القاسم الباروني جواباً
لرسالة له عندما كان صاحبه بمصر:

سليب فؤاد لم يجره حبيب ... يجاري خلي البال وهو كئيب
يهون عليه أن يواريَ شوقه ... عن الخلق لولا زفرة ونحيب
ضعيف القوى قد ضاعف البين سقمه ... إلى الله يشكو شجوه وينيب
وليس له في أمة الشرق مسعف ... وقد أسعفته عبرة ووجيب
تعذرت الجدوى فطال سكوته ... وإن يدعه داعي الهوى فيجيب
يجامل عصراً ليس يرضاه صاحباً ... إذا قيل هذا «شاعر وأديب»
فلو حام حول الشمس حالك حظه ... لكاد ضياء الشمس منه يغيب
ولو رام يوماً أن يمر بصخرة ... لكادت من الشوق المبين تذوب
سلام من الوادي المبارك شاقه ... سلام محب شط عنه حبيب
مقيم بوادي النيل لا زال ذكره ... مقيماً لدينا ما أقام عسيب
أتانا من الأنباء ما صح أنه ... صحيح غرام لم يربه قريب

(1) راجع عن المجاهد المهاجر أبي القاسم الباروني فصلة في كتاب نماذج في الظل سفر 1 للأستاذ علي مصطفى المصراتي.

له مهجة حراء وهي مذوبة   وليس لها إلاَّ الغرام مذيب
سجيته رقت وراق حديثه   كما راق من نفس النسيم هبوب
يساجل بالتحنان سجع حمامة   إلى الجبل الغربي وهو غريب
حريص على حفظ الوداد وأهله   وإن طال عن عهد الوداد مغيب
ولم ينسه الوادي الكريم الذي انطوت   على حبه في المشرقين قلوب
ولا خير فيمن لم يكن بفؤاده   حنين إلى أوطانه ووجيب
لك الخير يا من يصطفي الود شيمة   وإن نمَّ واشٍ أَو أشاع رقيب
طرابلس تهوى هواك وتتقي   جفاك وهل يجفو القريب قريب
كرام وإخوان بها وعشيرة   أتخطىء من حكم الهوى وتصيب
ونفسك (بارونية) حين تنتمي   إذا صنت حق الود ليس عجيب
وجاءت قوافي منك عاطرة الثنا   لينفح من نشر المودة طيب
حنينك قد أضحى لأول منزل   كما حن للعهد القديم (حبيب)
فلا يأس من عهد تجدد باللقا   وعود به عود الحياة يطيب
لئن كنت للشوق المبرح (قاسماً)   فلي منه حظ وافر ونصيب
وما شجني إلاَّ لتذكار مربع   وعهدي به ثوب الشباب قشيب
أرى قصتي في العاشقين غريبة   كذاك حديث العاشقين غريب
عليك سلام ما ترنم بلبل   وما ماس غصن البان وهو رطيب

* * *

معذرة لصديق

تالله ما كنت لكم مهينا ولم أزل خلاً لكم معينا
فأحسن الظن الجميل فينا يا ابن الكرام وابن الأكرمينا

* * *

وها أنا أبدي جزيل الشكر مؤملاً منكم قبول العذر
ولست بالناسي جميل الذكر وإن مضى العهد عليه حينا

* * *

وبعدكم أمر جرى به القدر والحظ قد جاء بعكس المنتظر
فما لنا إلاَّ جزاء من صبر وإن فقدنا أنسك الثمينا

* * *

إليكم أهدي تحيات الرضا تقبلها مني أداء وقضا
مقرونة بالعفو عما قد مضى مع بقاء الود ما حيينا

* * *

رسالة إلى صديق شاعر

إنــــي أراك ولا أرا ... ك ســوى أخــي أدب وفــن
وأراك أصــــدق صــاحــب ... يــشـكـو الـفـراق إذا ظـعـن
تـجـري عـلـى بـحـر الـقـريــ ... ـض بحكمة مجرى السفن
سـحـر الـبـيـان وحـكـمـة الـشــ ... ـعـراء مـنـهـج مـن فـطـن
صــــور وألـــوان بـهـا ... يـتـمـتـع الـنـبـه الـفـطـن
إنـي أسـاهـم مــن لــه ... حــب بـحـبـك مـقـتـرن
ومـن الـمـثـالـب أن تـديــ ... ـن بـمـا تـحـب ولـم أدن
صـلـة الأخـوة حـكـمـهـا ... حـكـم الـفـرائـض والـسـنـن
لـم يـنـسـهـا قـدم الـزمـا ... ن ولا أحـاط بـهـا الـوهـن
والـخـيـر كـل الـخـيـر فـي ... أن لا تـهـان وتـمـتـهـن
فـاهـنـأ بـبـرقـة إنـهـا ... ذات الـمـكـارم والـمـنـن
فـهـنـاك حـسـن مـواقـع الــ ... ـغـيـث الـمـلـث إذا هـتـن
وهـنـاك مـا قـد سـد بـهــ ... ـرجـة الـحـفـاوة فـي الـمـدن
وانـظـر بـيـوت الـنـحـل مـن ... شـجـر ومـن ذات الـفـنـن

أما الهيام بحب ذا ت الموز[1] أنت بها قمن
وطن توفر حظه في السرِ منك وفي العلن
أنت ابنه حقاً ولسـ ـت بقائل أنت ابن من؟!
إن الحياة هي الحيا ة ولا حياة سوى الوطن
والحر يبذل في سبيـ ـل حياته غالي الثمن
قم واتبع سبل الفضيـ ـلة أينما كنت تكن
صفة لكل من ادّعى والله يعلمها لمن
وإذا سكنت ديار من تهوى فقل نعم السكن
فأقم بقدر المستطا ع بها وإن بانت فبن
والقوم إن كالوا فكل معهم وإن وزنوا فزن
وتخلّ عن ذي ظاهر حسن وباطنه درن
هل مثمر فيما ترى في الأرض من خضر الدمن
وإذا رأيت عصابة عشقوا مواصلة الفتن
فدع القضية بينهم حتى يقوم أبو حسن
عفواً إذا أخطأت أو بينت ما لم يستبن

* * *

(1) ذات الموز يقصد مدينة درنة.

ما زلت أحفظ للكرام وداداً

نظمها (الشّارف) عندما كان في (سرت) وخاطب بها (أحمد ضياء الدين المنتصر).

ما زلت أحفظ للكرام ودادا ... عاد الزمان إليهمُ أو عادى
تالله لا أنسى عوائد برهم ... بخل الزمان بقربهم أو جادا
والقلب معتاد بصدق ولائهم ... أبداً وليس بتارك ما اعتادا
قلب إذا يوماً تذكر عهدهم ... قدحت يد الأشواق منه زنادا
وإذا دجى ليل نفى طيب الكرى ... شوقاً وأضرم ناره الوقادا
يا من له كرم الصفات ومن به ... أعرضت عن أسما وذكر سعادا
أوردت لي قولاً وعندي حجة ... تنفي الشكوك وتدفع الإيرادا
إن القريض لفي الفؤاد وقد غدا ... في أسركم ردوا علي فؤادا
إن كنت في (سرت) حليف ضرورة ... ورأيت إصلاحاً بها وسدادا
فالقلب قد أضحى إليك مسافراً ... لم يتخذ إلاّ الصداقة زادا
لو في رضاك تدوم ترك عشيرة ... لتركت فيه الأهل والأولادا
لكنما الدهر المتاح أتاح لي ... ما لم يكن أضحى إليّ مرادا
وتصرف الأيام عنوان الورى ... يبدي لك الأشباه والأضدادا

يا أَحمد الأسماء يا ابن أبي الضيا ... ولأنت في الأسماء خير منادى
عهدي هو العهد القديم كما ترى ... والوجد والشوق المبرح زادا
أعصي العواذل في هواك وشيمتي ... في الحب أن ألقي إليك قيادا
فأنا، أنا الخل الوفيّ بعهده ... وكما أراد له الحبيب له أرادا
ما لي سوى حفظ الوداد ولم يكن ... لمحبتي إلاَّ الوفاء عمادا
لا تحسبوا أني رفضت ودادكم ... ما زلت أحفظ للكرام ودادا

صـوفيـات

نفحـة الوصـل

هذا تخميس نظمه الشّارف لبيتين ينسبان للسيد أَحمد الرفاعي صاحب الطريقة المشهورة:

لـلّـه أعـتـاب مـحـبـوب أقـبّـلـهـا ونفـحـة الـوصـل قـد هبّـت شمائلـهـا
لـطـالـمـا كـنـت فـي سـري أؤمـلـهـا «في حالة البعد روحي كنت أرسلها»
«تقبّل الأرض عني وهي نائبتي»

ولي جفـون عـلـى ذكـراه كـم سـهـرت لـكـنـهـا الـيـوم مـن لـقـيـاه قـد سـكـرت
مـاتـت مـن الـشـوق أرواح ومـا قـبـرت «وهـذه دولـة الأشـبـاح قـد حـضـرت»
«فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي»

* * *

تخميس لأبيات تنسب للشافعي

يقول الإمام الشافعي:

إن لله رجالاً فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سكنا

فنظم الشَّارف مخمساً لهذه الأبيات:

سر إلى المولى بشوق كمنا ... واصطحب في السير قوماً أمنا
لا تكن مما إلى الدنيا دنا ... (إن لله رجالاً فطنا
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا)

محضتهم نصحها فاتهموا ... وأرتهم عكس ما قد فهموا
ثم لما أن تجلت لهمُ ... (نظروا فيها فلما علموا
أنها ليست لحي وطنا)

نبذوها بئس ما قد نبذوا ... ولأهل الذوق فيها نبذ
كلهم من كيدها قد نفذوا ... (جعلوها لجة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سكنا)

مخاطبة إخوان الساعدية

والساعدية طريقة كانت منتشرة في المجتمع وها هو يخاطب أحبابه من فقراء الساعدية:

في حبكم يخلع العذار ... وتهجر الأهل والديار
يعطر الكون من شذاكم ... وتعمر البيد والقفار
وأي مغنى به نزلتم ... فكل حصبائه نضار
يكاد يسعى إليه عرش ... لو لم يكن حفه الوقار
فكل وقت بكم ربيع ... يزهو به الورد والبهار
قد أثبت الله في يديكم ... تجارة ما لها بوار
لله لله قد فعلتم ... بالقلب ما تفعل العقار
وأعذر الله في هواكم ... من قبل أن ينبت العذار
من لم يجد نسبة إليكم ... لم يغنه الأصل والنجار
كلا ولم يحمه كليب ... ولا معدّ ولا نزار
وها أنا العبد في حماكم ... لا مجد عندي ولا فخار
فكاتبوني من شراء ... في عقدة ما لها خيار
لعل نفسي إِلى رضاكم ... يجرها الذل والصغار

ونظم هذه الأبيات في حق الفقراء القائمين بنشر الطريقة الساعدية:

سر المحاسن فيكم بالكنايات وفهم كل لبيب بالإشارات
إذا دعتكم فدعواها مؤيدة لا تنكروها فقد جاءت بحجات
مقاصدي كلها يا سادتي تبع أما رضاكم هو المقصود بالذات
وكلما بنتم إني أودعكم بأدمع من جفون مستهلات
ولا تذكرت معنى من شمائلكم إلاّ وأتبعت تذكاري بأناتي
ولا سمعت حمام الإيك ساجعة إلاّ وشنف أسماعي بسجعات
طريقة كملت فيها استقامتهم والاستقامة سلطان الكرامات
فامسك لسانك إلاّ عن شمائلهم واترك لغيرهم كل العلاقات
خذ المقالات مني في مدائحهم والحال أبلغ من تلك المقالات
ثم الصلاة على المختار سيدنا عليه من ربنا أزكى التحيات

* * *

قوم لديهم نضرة..

نظم الأديب سالم الفطيسي قصيدة يصف ويمتدح فيها طائفة من الإخوان المتصوفة، واطلع الشّارف على هذه القصيدة فاعجب بها وتناولها بالتشطير ثم بالتخميس... وها هي قصيدة الفطيسي أولاً:

قوم لديهم نضرة — تزين من لهم نظر
سادوا على كل الورى — واستسهلوا صعب السفر
أنوارهم مهما بدت — تزهو على نور القمر
يا ليلتي طولي بهم — تستوجبي حسن الغرر
ما أنستي إلاّ بهم — يا عاذلي كن في سقر
ولو ملأت الكون لوم — ما ذاك عندي إلاّ ذر
يا أهل تجريد لقد — نلتم رضى الشيخ الأبر
أستاذنا محمّد — الطاهر الذي اشتهر
وما خفت أعلامه — إلاّ على أعمى البصر

* * *

(قوم لديهم نضرة) يصفو بها كل الكدر
ولحظة من طرفهم (تزين من لهم نظر)
(سادوا على كل الورى) بكل وصف قد بهر
وهذبوا نفوسهم (واستسهلوا صعب السفر)
(أنوارهم مهما بدت) كسفن أنوار أخر
أما ترى إشراقها (تزهو على نور القمر)
(يا ليلتي طولي بهم) قد لذ لي فيك السمر
ويا سويعة اللقا (تستوجبي حسن الغرر)
(ما أنستي إلاّ بهم) لحى العذول أم زجر
والفضل، منهم عاذلي (يا عاذلي كن في سقر)
(ولو ملأت الكون لوم) ولم أجد شخصاً عذر
أَو جاء منكَ زمرٌ (ما ذاك عندي إلاّ ذر)
(يا أهل تجريدِ لقد) فزتم بمحمود السِير
بشرى لكم يا سادتي (نلتم رضى الشيخ الأبر)
(أستاذنا محمّد) إلى سواه لم أشر

شمس العلا نور الهدى (الطاهر الذي اشتهر)
(وما خفت أعلامه) على حبيب مذكّر
ولم يكن إخفاؤها (إلاّ على أعمى البصر)

* * *

مـــا الـحـب إِلاَّ صـهـدة   قـامـــت بــه أحـبـــة
دمـوعـهـــم مـنـهـلـــة   (قـوم لـديـهـم نـظـرة
تـزيـن مـن لـهـم نـظـر)

يـا حـاديـاً يـنـفـي الـكـرى   لا زلـت مـحـمـود الـسـرى
إِلــى ســراة فـقـرا   (سـادوا عـلـى كـل الـورى
واسـتـسـهـلـوا صـعـب الـسـفـر)

أوصـافـهـم قـد أشـبـهـت   عـقـــود در نـظـمـــت
فـهـــم بـدور أشـرقـت   (أنـوارهـم مـهـمـــا بـدت
تـزهـو عـلـى نـور الـقـمـر)

يـمّـم عُـريـب حـيـهـم   وقـــف بـبـاب عـزهـم
واسـعـد وفـز بـقـربـهـم   (يـا لـيـلـتـي طـولـي بـهـم
تـسـتـوجـبـي حـسـن الـغـرر)

يـا لائـمـي فـي حـبـهـم   لا تـلـحـنـي فـي قـربـهـم

مالي سوى مذهبهم (ما أنستي إلاّ بهم
يا عاذلي كن في سقر)

لما انجلت عنك الفهوم أصبحت في الحب تلوم
لا أنثني عما أروم (ولو ملأت الكون لوم
ما ذاك عندي إلاّ ذر)

أهل المعاني والمدد هم المنى والمعتمد
نادي وقل فيهم وزد (يا أهل تجريد لقد
نلتم رضى الشيخ الأبر)

له العلا والسؤدد والمنهج المؤيد
وهو السعيد الأسعد (أستاذنا محمّد
الطاهر الذي اشتهر)

ساق يدور جامه لقد صفا مدامه
وأنتم كرامه (وما خفت أعلامه
إلاّ على أعمى البصر)

* * *

ألا بلغن من يزعم القرب من ليلى ومن يدّع التمكين في الموكب الأعلى
رويدك ما هذا التشاغل والعنا أجبنا بلا مهل وإلاّ فقل مهلا
أتدعو إلى الباري وعلمك تابع هواك وكان الحق أن تتبع النقلا
ومن يدعي سر الإله فإنه يقول أنا المحبوب والمتقى المولى
ترى ما ترى في الحال أعلى مزية وحالاً ولا علماً وعلماً ولا جهلا
كفاني كفاني منك ما قد رأيته ولم أره في الدين بعد ولا قبلا
وليس ولي الله إلاّ أخو التقى فيزهد في الأولى ويرغب في الأولى
يقوم مقام الذل والعز حاصل وما قال إني صرت ليثاً ولا شبلاَ
وما الشبل فينا غير شبليّ نسبة يقاسي جهاد النفس كُلاّ ولا كَلاَ
ولله قوّام وبالله قائم وكان له بعضا فصار له كُلا
حياء وخوف وانكسار وخشية لديه ولا يؤذيك قولاً ولا فعلا
تمكن منه الشوق حتى أذابه فتحسبه بين الأنام من القتلى
وإن خادعته النفس لم ينخدع لها ولم ير دون الله من نفسه شغلا
ولم يغش أبواب الملوك لحاجة ولا يستحل المال منهم ولا الميلا
وفي البحث لا ترضيه إلاّ شريعة عرائسها تجلى وآياتها تتلى

وإن هو أضحى بالحقيقة ناظراً   فيهملنا قولاً ويعذرنا فعلا
وإن كان شيخاً قد تكمل حاله   فمن بين إخوان الصفا لم يزل طفلا
وحسبك إقبال المريدين نحوه   فلا تنتقد فرعاً ولا تعتقد أصلا
وما كل إقبال من القوم آية   على الصدق حتى يخلع المال والأهلا
وليس لهم بحث سوى عن نفوسهم   ولم يعقدوا باباً ولم يجمعوا فصلا
وما ألفوا غير القلوب وطالعوا   سوى باب مولاهم ليمنحهم وصلا

* * *

نور الشريعة عن قلوبهم احتجب لا يهتدون إلى القيام بما وجب
جعلوا شعار ذوي التصوف حرفة يتكسبون بها وبئس المكتسب
عمل لآخرة لقد طلبوا به دنياهمو، طلب المحب لمن أحب
لهجوا بألفاظ الحقيقة وانثنوا يتموهون بها لمن لهم انتسب
من كيدهم نسجوا ثياب خديعة كي يجعلوا منها غطاء للكذب
لما تعذر بالمدينة صيدهم نصبوا حبائلهم ببادية العرب
إبليس آدم لا يزال ولم يزل لبنيه يتبع أينما ذهبوا ذهب

* * *

حمد الصابر

أبث إليك الحمد يا رب والشكرا	تبشر منكوياً إذا التزم الصبرا
تبشر منكوياً جزاء لصبره	برحمتك العليا ويا حبذا البشرى
إذا ما خطوب قد ألمت بعاتق	وكان لها كالطود كان له الفخرا
وإن حياة المرء بالعلم والتقى	إذا فقد الاثنين كانت له خسرا

* * *

صنوف

أرى الناس في شرق البلاد وغربها — على غير ما يرضى الإله تعودوا
ولله قوم ذكره رأس مالهم — وفي كل يوم ربحهم يتجدد
لئن كان يوم العيد يوم مقيد — فأعيادهم في الدهر لا تتقيد
إذا استنجدوا يوماً رأيت سيوفهم — لغير جهاد النفس لا تتجرد
سعى أملي شوقاً إليهم وإنما — لمثلهم الآمال تسعى وتسعد
لعل جناب الضعف مني بفضلهم — يؤيده منهم جناب مؤيد
وإني على عهد المودة لم أزل — وأحمد من لولاه ما أنا «أحمد»

مدائـــح نبويـــة

كان الشاعر قد بوّب ديوانه ورتب كراساته على أساس أن يكون مطلعه القصائد النبوية وجعلها تحت عنوان: «القصائد الأولية في مدح خير البرية» وشملت منظومات في مدح المصطفى، وحب الرّسول صلاة الله وسلامه عليه، والإفاضة في ذكر النور المحمدي. وقصيدة عن الإسراء والمعراج والمولد وبضعة أبيات من نفحات التصوف.

* * *

مـدح المصطفـى

صلاة من المولى على ساكن الحرم نـبـي بـه شـمـل الأحـبـة مـنـتـظـم
نـبـي بـه تـلـك الـرسـالـة لـم تـزل بـوحـي بـه وحـي الـنـبـيـيـن قـد خـتـم
لـك الـشـكـر يـا مـن قـد تـجـلـى ثـنـاؤه على المصطفى المختار في سائر الأمم
إذا رمـت مـن بـحـر الـطـويـل جـواهـراً فمدح النبي المصطفى جوهر الكلم
نـبـي الـهـدى كـنـز الـمـعـارف والـتـقـى ومـعـدن أسـرار الـبـلاغـة والـحـكـم
ومـن نـوره لاحـت عـلـيـنـا كـدرة فـصـارت إلى الأبـصـار نـاراً عـلـى عـلـم
يـفـيـض عـلـى كـل الـورى بـسـط كـفـه ويـفـعـل بـالـبـطـحـاء مـا تـفـعـل الـديـم
وعـم عـلـى الآفـاق إشـراق نـوره لـيـهـدي بـه مـن تـاه فـي حـنـدس الـظـلـم
ألا أيـهـا الـركـب الـذيـن تـبـصـروا مـشـاهـد إسـلام تـبـدت بـذي سـلـمْ
فتلك منىً لاحت لمن يبتغي المنى وطـيـبـة مـثـوى سـيـد الـعـرب والـعـجـمْ
ومـا زال قـلـبـي فـي هـواهـا مـتـيـمـاً يـهـيـم بـذكـر الـبـان والـرنـد والـعـلـم

* * *

مولد الرّسول

ثق بالإله ولا تثق بسواهُ ... ودع القرين ولا تمل لهواه
لا تتخذ عملاً وربك شاهد ... حتى يكون مكللاً برضاه
فإذا اتبعت الله في أمر وفي ... نهي بلغت من المنى أقصاهُ
فالله قد بعث النبي محمّداً ... لنؤمه ولتهتدي بهداه
لولاه ما اتضح السبيل إلى الهدى ... كلا ولا عرف الهدى لولاه
وحباه بالخلق العظيم وحبذا ... من كان بالخلق العظيم حباهُ
ولأهل بدر والصحابة كلهم ... أضحى لواء النصر تحت لواه
وليوم مولده الشريف كما ترى ... أثر تخلد في الورى ذكراهُ
ولدته آمنة فحاز بأمنه ... قصبات سبق لم تكن لسواه
والوحي من تلك الولادة قد غدا ... متأهباً متهيئاً بلقاهُ
نبأ أتى لما تعذر فهمه ... نزل الكتاب موضحاً معناهُ
أكرم بفضل ولادة ونبوّة ... ورسالة حمدت به عقباه
هي رحمة وسعت وخير وسيلة ... لنجاة عبد يحتمي بحماه
تالله لا يجد الحياة سعيدة ... إلاّ فتى مستمسكاً بعراه

* * *

بلحظيك لا بالسيف والرمح والقنا قتلت ولم يكتب عليك قتال
وأنت لمن يهواك أعظم فتنة ويعزى إليك السحر وهو حلال
يقيناً بأن البدر أنت له أخ وفيك على الخد المورد خال
إذا خفي الحسن البديع عن الورى فأنت إلى الحسن البديع مثال
رضيتك لي إلفاً وليس بمنكر إذا ألف الليث الهزبر غزال
يقال إليك الذنب من غير توبة فدع عنك ما بين الوشاة يقال
إذا كان لي ود بقلبك راسخ فليس يشوب القلب قيل ولا قال
ولله أمر في هواك مسلم وفيه لغير العاشقين جدال
وقد علم الواشون فرط صبابتي فلم يبق منها للمقال مجال
تجرعت كأس الود وهي مريرة ألا كل ود في هواك زلال
وقلبيَ من حر الصبابة والجوى حكى قبساً هبت عليه شمال
إذا لم أكن يوماً لشخصك ناظراً ولا زارني في النوم منك خيال
فأقرب ما يرضي المحب على النوى إذا كان محض الحب منك ينال
وما راعني واش ولا عذل عاذل إذا كان لي بعد الفراق وصال
وقد نال بعض الناس جاهاً ومنصباً ولم يكفني إلاَّ رضاك نوال

ولو لم يكن في القلب حب محمّدٍ لعمت بك البلوى ودام ضلال
نبي الهدى قد أوجب الله صدقه به الفرض فرض والمحال محال
وأكرم مبعوث وأفضل شافع إليه أمور المذنبين تحال
وقد منح المولى الكريم لذاته جمالاً غشته هيبة وجلال
تنافست الأسماء في اسم محمّد تباهت به ميم وحاء كذا دال
ومن كان من أهل النبوة لم يزل يزاد له فوق الكمال كمال

* * *

النور المحمّدي

تالله ما حملت بمثل محمّد ... أنثى ولا نال الورى كفوالِه

كلا ولا جذب القلوب لحبه ... غير الوقوف على حقيقة حاله

أحيا ببعثته المكارم والعلا ... وأقام سيف الحق تحت ظلاله

ما زال جو الجاهلية مظلماً ... حتى استهل النور باستهلاله

وغدت به سبل الهداية نحوها ... تزهو بنور جماله وجلاله

وإذا تحدث ليس ينطق عن هوى ... عجز المعارض عن بديع مقاله

وجوامع الكلم الصحيحة لم تقع ... إلاَّ على المرويّ من أقواله

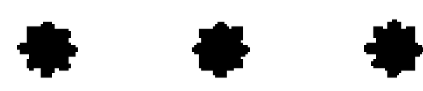
وإذا الفتى مدح النبي فقد رأى ... عين الحقيقة لا بطيف خياله

ما إن غدا أحد يهيم بحبه ... إلاَّ لحسن مصيره ومآله

أبت السعادة أن تفارق مسلماً ... في قلبه حب النبي وآله

فإذا اهتدى فبهديه وإذا اقتدى ... لا يقتدي إلاَّ بحسن خلاله

والمرء إن فسدت عقيدته فمن ... تقصير همّته ومن إهماله



الإسـراء والمعـراج

في منتهى السبع والعشرين من رجبِ ليل سرى فيه خير العجم والعربِ
معراج صدق وتمحيص لدعوته ما كان من ثابت فيها ومضطرب
قد بيّن الله في أنحاء قصته ما في السرائر من صدق ومن كذب
إذا رأى الآية الكبرى فلا عجب وليس في قدرة الرّحمن من عجب
قد نال ما نال ممن لم يكن أحد قد ناله قط من فضل ومن حسب
وسورة النجم قد جاءت مؤيدة لما رآه وما في النجم من ريب
وإن للّه أسراراً محجبة وكم له فوق علم الناس من حجب
وأقرب الناس للإيمان أقربهم للصدق والشيء يقوى قوة السبب
أعظم بقدر نبيٍ نال منزلة فلم يكن أحد منها بمقترب
نبوة لم يكن فيها بمكتسب إن النبوة أمر غير مكتسب
وبعثة زالت الفوضى بطلعتها كما يزول ظلام الليل بالشهب
لما أتاهم رسول الله في ملأ من قومه انقلبت رأساً على عقب
فحطمت كل طغيان رسالته وكل بغي مضى في سائر الحقب
لم يشهر السيف إلاّ عند كارثة في الدين والسيف قد يغني عن الكتب
فكان ما كان من فتح ومن تعب وناصر الحق لا يخلو من التعب

انظر ملياً فهل لاقيت من أحد   يقول حقاً ولا يخلو من الشغب
وهكذا الدهر ما زالت عناصره   في سوء منقلب أَو حسن منقلب

* * *

أمثـال وحكـم

أكرم الناس وأولى بالثنا | من يعاني الصعب في نيل المنى
فإذا ما عاش أحيا الوطنا | وإذا ما مات أحياه الأثر

متعة الإنسان في نيل العلا | لا تقم إلاّ على صدق الولا
ونجاح المرء موقوف على | عمل البر فخير النفع بر

منة الإيمان من أعلى المِنَن | ومن الإيمان حب الوطن
لا تكن غير محب فطن | كامل الأخلاق محمود السير

في سماء العقل نور قد بدا | بلغ الناس به أقصى المدا
فاهتدى الناس به والمنتدى | لم يزغ سمع ولا زاغ البصر

وجمال الكون لما اتضحا | شرح العلم به ما شرحا
فأرى شمساً ولا شمس الضحى | وأرى نوراً ولا نور القمر

ليس بالبدع إذا نلنا العلا | وبه حزنا المقام الأولا
لم نكن في المجد قوماً دُخَلا | جنسُنا من خير أجناس البشر

زود الأذهان بالفهم النبيلْ ويـنشر العلم والفن الجميلْ
والفتى يبقى على دين الخليل أَو على ما اعتاد في عهد الصغر

وحياة الشعب جدّ وعمل وخلال لم يدنسها خلل
ونشاط لم يصاحبه كسل سِر به في صالح الأعمال سر

سز بلا مهل ولا تخش العنا واصطحب في السير قوماً أمنا
واستعن بالصبر تظفر بالمنى لم يفز بالظفر إلاّ من صبر

* * *

نصائح

إعمل لنفسك صالحاً واختر لغيرك ما تحبْ
وادفع عدوك بالأنا ة ودع محاولة الشغب
لا بد للفرس الجمو ح من الوقوف إذا تعب
واربأ بنفسك أن تقو م أمام تيار الغضب
كالنار إن ضايقتها بالغاز يرتفع اللهب
واصبر فليس من البعـ ـيد نتيجة الهم الطرب
لك في المؤمل راحة بَعُد المؤمل أو قرب
والمرء تملكه المطا مع أينما ذهبت ذهب
ولقلّما يجد الحيا ة كما يرى وكما يحب
ورئيس قومك كن له عضداً ولا تكن الذنب
والناس قد جبلوا على حب الركون لمن غلب
والمرء يحرق قلبه حسد تأجج والتهب
وإذا طلبت مودة الـ ـحساد أعياك الطلب
والدهر أوجب أن يكـ ـيد وأن يكون أبا العجب
ولقد تباينت الحظو ظ ولست تدرك ما السبب

فـعـن الـعـيـون قـد اخـتـفـى		وعـن الـعـقـول قـد احـتـجـب
كـم لـلأديـب مـواقـف		بـيـن الأعـاجـم والـعـرب
ومـن الـغـرابـة أن يـكـو		ن لـديـه حـظ الـمـغـتـرب
يـوحـي الـخـيـال إلـيـه لا		صـحـف لـديـه ولا كـتـب
فـاقـنـع بـقـدر الـمـسـتـطـا		ع إذا تـعـذر مـا وجـب
وكـفـى لـجـسـمـك مـا تـراه		يـقـيـك مـن ألـم الـسـغـب
فـكـثـيـره داء وقـلّـ		ـتـه دعـامـة كـل طـب
وكـفـى لـروحـك مـا يـسـا		ق مـن الـحـديـث الـمـنـتـخـب
وإذا خـلـوت مـن الـيـرا		عـة والـبـراعـة والأدب
مـاذا يـفـيـدك أن يـكـو		ن عـلـيـك طـوق مـن ذهـب
تـتـكـون الأخـلاق فـي الأ		ولاد مـــن أم وأب

* * *

تشطير:

«إذا أعطشتك أكف اللئام» ولم تر في الناس كفاً نديا
وجئت القناعة مستجدياً «كفتك القناعة شبعاً وريا»
«فكن رجلاً رجله في الثرى» ومركزه فيه أضحى عليا
غدا ملقياً في الثرى نفسه «وهامة همته في الثريا»
«فإنّ إراقة ماء الحيا ة» أصبح في الدهر خطباً جليا
ولكن رأيناه في الحادثا ت «دون إراقة ماء المحيا»

* * *

لقمان والنفس والأخلاق

كن يا بني لأمر دينك حافظاً ... ومدبراً لشؤونك الحيويّه
لقمان قد بذل النصيحة لابنه ... فاحرص على كلماته الحكميّة
تفنى الحياة وليس يذكر بعدها ... إلاّ جميل صفاتك الأثريّه
ورداءة الأخلاق ترجع كلها ... لثلاثة في النفس غير خفية
حسد وكبر ثم حرص واعتبر ... إن الثلاثة أصل كل بليّه
هي قوة عقلية أَو قوة ... شهوية أَو قوة غضبية
واحفظ قواك الخمس فهي وسيلة ... كبرى لنيل سعادة أبديّه
العلم والعمل الصحيح كلاهما ... متوقفان على القوى البشريّه
والمرء يقنعه قليل متاعه ... حتى يذوق حلاوة المدنيه

* * *

نصيحة

احفظ حياتك واجتنب ... حب الرياسة والظهور

وإذا منحت رياسة ... لعموم مصلحة تدور

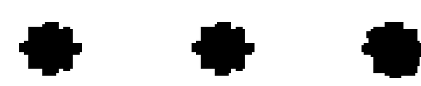
فاقبل ولا تؤثر على الإ ... خوان نفسك في الأمور

فلربما وقع السقو ... ط بمن أحاط به الغرور

ولقد نفى المولى محبـ ... ـة كل مختال فخور

* * *

أيـهـا الـتـاعـب الـمـفـكـر إن يبـ ـقـى بـدنـيـاه فـي مـقـام رفـيـعِ
لـيـسـت الـسـاعـة الـتـي أنـت فـيـهـا الآن إلاَّ كـسـاعـة الـتـوديـع
فـسـيـأتـي وكـل آت قـريـب يـوم ذاك الـتـجـهـيـز والـتـوديـع
لـم يـضـق فـي الـحـيـاة ذرعـاً فـتـى يـجـهـل سوء الإهـمـال والـتـضـيـيـع
لـم يـذق مـن حـلاوة الـشـعـر طـعـمـاً غـيـر وضـع الأوزان والـتـقـطـيـع
إن تـكـن حـلـة لـديـك بـهـا خـر ق فـبـادر إلـيـه بـالـتـرقـيـع
واطـرحـنـهـا لآلـة الـغـرز كـيـلا يـنـتـهـي خـرقـهـا إلـى الـتـوسـيـع
«حـيـثـمـا تـسـتـقـم يـقـدر لـك الله نـجـاحـاً» فـي مـجـلـس الـتـشـريـعِ



الود الظاهر

إذا لـم يـكـن حـقـاً ثـنـاؤك لـم يـكـن لـغـيـر صـفـات أربـع لـك تـنـتـمـي

فـإمـا لـجـهـل أو لإيـجـاد حـاجـة وإمـا لـدفـع الـضـر أو لـلـتـهـكـم

فـلا تـك مـغـتـراً بـمـا رام حـاجـة فـيـظـهـر وداً بـالـلـسـان وبـالـفـم

عـلامـة صـدق الـمـدعـيـن مـحـبّـة مـشـاركـة فـي كـل بـؤس وأنـعـم

* * *

تقريـــظ

قرظ أَحمد الشَّارف كتاب «شفاء الصادي المجرب» وهو من مواعظ الشيخ «محمّد الضاوي» من المربين وصوفية طرابلس المشهورين. وكان الكتاب قد طبع عام 1923 بالزنجي.

أعليل نسيم من سحر ... وافاك عليلاً في السحر
حيا المشتاق فأحياه ... وأثار الشوق لمدكر
أم روض باكره مطر ... فاخضلّ الروض بذا المطر
وكسته يد الأنواء يداً ... وازدان بريّاه العطر
فتراه يجود بمنتظم ... بين العرصات ومنتشر
وخرجن من النور «الضاوي» ... لأخي سمع وأخي بصر
شيخ التقوى وأبو النجوى ... وأخو الإرشاد بلا نكر
منجذب القلب لخالقه ... لم يدع الشوق ولم يذر
والمرء بقدر تعلقه ... بالله يصان من الكدر

صلحت في الناس مواعظه   لخلاص النفس من الغير
فالله يديم لجامعها   نفعاً ويقيه من الخطر

* * *

كتاب مصطفى الكعبازي

وقرظ أحد كتب المرحوم «مصطفى الكعبازي» المدرسية:

أشقائق النعمان زاهية الربى   بغمامها ونسيمها المجتاز
منآحة الشكل البديع بطبعها   من غير ما طلب ولا إيعاز
أم هذه درر اقتباس قريحة   حفلت بترتيب وحسن طراز
أضحى بها اللفظ المفيد مكللاً   ومرصعاً بجواهر الإيجاز
والمرء يعرف عقله وذكاؤه   ببراعه وبيانه الممتاز
إن شئتِ يا درر المحاسن والبها   عما سواك تفردي وامتازي
درر لقد وعد الزمان بمنحها   للطالبين فقام بالإنجاز
وبدئه من عهد أول مرسل   ظهرت عليه دلائل الإعجاز
تجتاز من غرر الحوادث ما مضى   بحقيقة ظهرت وفضل مجاز
فاشكر لما نسبته للإسلام من   فضل ومن كرم ومن إعزاز
أبرزها في الطبع أشرف غاية   واللّه يحفظ غاية الإبراز
ولقد غدا للناس في تاريخها   فخر يدوم لمصطفى الكعبازي

880 60 259 141

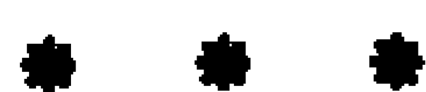
رثـــــاء

لقد بات يشكو الأسى القرطاس والقلم ... والنظم والنثر والأمثال والحكمُ
ينوء بالوطن المصري حادثة ... لو لم تشاركه في تقسيمه الأمم
مصر تنفست الصعداء من أسف ... والشام قد دبّ في أعضائه السقم
وفي العراق وفي نحو الحجاز وفي ... دار السّلام لظى الأحشاء تضطرم
بات الرثاء مثيراً كل قافية ... لها على صحف «الأهرام» مزدحم
ضاق الفضاء فلا رحب ولا سعة ... ولا مداد ولا خط ولا قلم
سهم وسهم أصابا كل جارحة ... منا قتيل ومنا من به ألم
«نجمان» في الأفق الشرقي إذ أفلا ... عز العزاء وجلّ الحادث العمم
«التاركان» خليّ البال ذا شجن ... وأدمعاً من عصيّ الدمع ينسجم
«والباذلان» على الجدوى حياتهما ... في التوأمين فمنثور ومنتظم
تراضعا بلبانٍ واحدٍ فهما ... في العبقرية كل منهما علم
شبّا فما كبرا حتى إذا انبعثت ... روح من الشعر لا يردى لها هرم
تبكيهما اللغة الفصحى ومجمعها ... والقصر والمد والترجيع والنغم

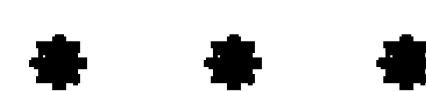
* * *

فما اشتياقي إلى الوادي بمنقطع ... كلا ولا حبل ودي عنه منصرم

والهف نفسي لقد أودت بشاعره منية ما لها خصم ولا حكم
العبقري الذي رنت قصائده على البعاد يعيها من به صمم
وقام بالأمر في تنظيم خطته ما زاغ فيها ولا زلت به القدم
ولم تزل حرفة الآداب تصحبه من نكبة الحظ لم تحفل به النعم
شكوى فنجوى فأشجان فمتربة فعاذل فحبيب معرض برمُ
والشمس شمس وإن أودى الكسوف بها كالبدر غطت على أنواره الظلم
هي الليالي فلم تجنح إلى سلم مع الكرام ولم يحفظ لها سلم

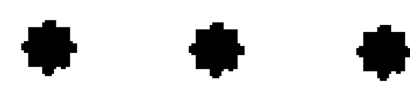


«الحافظ» صح ما ألقت بديهته حيث الحظوظ بأمر الله تنقسم
والدر من فكره الفياض منتشر وفي قصائده العصماء ينتظم
قد مات «أحمد شوقي» بعد مصرعه فقيد مصر فقيد الشرق كلهمو
من زاحم الأدب الغربي مسرحه وفي يديه زمام الشرق مستلم
إن البلاغة كانت تحت بغيته ألفاظها ومعانيها له خدم
فما أشار بها يوماً إلى علم إلاّ تمشت على أوزانها العلمُ
وحلية الشعر عنوان لصاحبها عقد تنظمه الأخلاق والشيمُ
فليبكه العلم المصري والقلم الـ ـسوري ولتبكه الأمصار والأمم
أبان من لغة القرآن ما كتبوا ومن مديح رسول الله ما علموا
لا يعرف الفضل فضلاً غير صاحبه ولا المهمة إلاّ من له هممُ



الصحفي عمر فخري المحيشي

فقدتك دائرة الصحافه   وبكتك مدرسة الثقافه
فلكم عنفت لها اليرا   ع مع النبالة واللطافه
فقدت أديباً لم تدنـ   ـسه الغباوة والسخافه
يا مؤثراً فضل الوقا   ر على الخلاعة والسلافة
لبيت إذ نوديت تلـ   بية المحب إلى الضيافة
لبيت أصدق دعوة   وأقمت في دار الخلافة
وكفيت كارثة الورى   وأمنت من طرق المخافه
دار عبرت سبيلها   من حيث لم تطل المسافه



أيا وطناً إليك ومنك فخري   وكل الفخر أنت به حقيق
ألمّ ببرقة الفيحاء خطب   ولولا الخطب ما عرف الصديق
لقد علم المواطن أن فخري   له صلة بنا وأخ شقيق
شقيق مودة وعلو كعب   ودين لا يخالطه مروق
قد انتزع القضاء له حياة   وكان لها به أصل عميق
لنا لغة بكت أسفاً عليه   كأن لها به نسبٌ عريق

يساورها الأسى حيناً فحيناً وفي أعماقها جرح وضيق
قليل أن يقوم له بحق فتى كانت عليه له حقوق
وفاء المرء يظهر بعد موت وقبل الموت ليس به وثوق
ومن خطر الحوادث أن شخصاً يموت لموته الأَدب الأنيق
ولم يكُ مغرماً بالشعر إلاَّ لأن الشعر متعة من يذوق
ومعرفة الصفات لها طريق ولولا الشعر ما عرف الطريق
ومن أدب اللياقة أن أوالي به «فخري» وأذكر ما يليق
سأذكره من الأيام وحدي وأوثر أن يكون معي «رفيق»[1]
وحسبك أن ترى مثلاً جميلاً من الأدباء أَو مثلاً يروق

* * *

(1) «رفيق» إشارة إلى الشاعر أَحمد رفيق المهدوي صهر فخري المحيشي وصديق الشاعر أَحمد الشارف.

فيصل الأول

وعندما توفي فيصل الأول والد «غازي» رثاه أحمد الشَّارف بهذه القصيدة:

سهاد على أجفاننا قد تحكَّما   وحزن بأعماق القلوب تجسما
وأعظم خطب في الورى فَقْدُ سيد   أقام له الشعب العراقي مأتما
يشق على سمعي مقالة نعيه   وأكره أن ألقى بها متكلما
فلو مدت الأقدار من نحوه يداً   على أمة الإسلام كان المقدما
ولم تبك أقطار العروبة وحدها   عليه ولكن كل من كان مسلما
أمام سريّ أريحي سميذعي   بصير إذا ما دبر الأمر أحكما
ولا عجب أن قام بالأمر وحده   على جده جبريل صلى وسلما
مكارم في دار السَّلام تأيمت   ومجد لأبناء الرسول تيتما
تودعه الحسنى وتبكيه بيعة   أقام بها حول الفرات وخيّما
وكم عذبت فينا سلافة ذكره   كما عذب الماء الزلال على الظما
وموت سراة القوم أعظم حادث   ولكنه في ـ فيصل ـ كان أعظما
أتاه من الرَّحمن خازن سره   ومن كان في حاجاته متكتما
أراد ولم يمهل، أردنا ولم يكن   سوى ما أراد الله بؤساً وأنعما

وفي مبدع الأكوان أسرار حكمة فلا ظالماً يبقى ولا متظلما
عمينا فلم نبصر، ونمنا ولم نفق وهل تخبط العشواء إلاّ من العمى
هو الدهر لا يغررك منه ابتسامه إذا غضب الضرغام يوماً تبسما

المجاهد عون سوف المحمودي

توفي عام 1947م

رثاء وتأبين لمثلك يعقد وذكرك يا نجل الكرام مخلدُ
فقدت وما فقد الكرام بهيّن ومن نكد الأيام مثلك يفقد
جهاد وعزم واتجاه وشرعة صفات بها يثني عليك ويحمد
وكنت كأسلاف تقضت حياتهم وفي كل وقت ذكرهم يتجدد
أقول رثائي فيك غير مجامل ولكنه حق عليّ مؤكد
فتى عربي الأصل والأصل معرق إلى مجده فخر العروبة يسند
يهب إلى العليا بحسن تجلد ومن شيمة الأحرار أن يتجلّدوا
وكم فتنة لم أنس تاريخ مجدها ولكنّ تاريخ «المحاميد» أمجد
وكانوا مثالاً للشجاعة في الوغى وفي حومة الهيجاء كانت لهم يد
يهون عليهم أن تراق دماؤهم وخير دماء في العلا يتبدد
يرون من الأمر المحتم أنهم إذا استنجدوا يوم الكريهة أنجدوا
ومن رام إيضاحاً وفي الوقت فرصة لديه فتاريخ الحوادث يشهد
أبى الله أن ينسى الفضائل عارف بصير بأخبار الكرام مزوّد
وفاءً بحق والوفاء فضيلة وليس لنا إلاّ الفضيلة مقصد

قصائد للشاعر أحمد الشارف لم تنشر في الطبعات الأولى ـ وهي تنشر لأول مرة

تخفى المحبة[1]

للقلب لولا انهمال الدمع أكماء ... وفي النحول لما يخفيه إبداء
تخفى المحبة والأحوال تكشفها ... وليس بعد انكشاف الحب إخفاء
لولا الهوى لم يكن للنوم معترض ... ولا يصح لدمع العين إجراء
ولا تشكيت من حزن ومن ألم ... ولا انكوت لي بنار الشوق أحشاء
يا عاذلي خلني ما القلب يقلبه ... عذل العذول ولا للأذن إصغاء
ما لي اشتياق إلى ليلى ولو ملكت ... جمال كل الورى والعين حوراء
ولا طلولٌ ولا ربعٌ وقفت به ... حلت به عَزٌّ أو حلته عفراء
بل ما له القلب مشتاق ومنقلب ... من في محبته هامت أجِلاء
وفي طريقته الغراء قد سلكت ... قومٌ لهم رتبة في الفضل علياء
ابن العلوم الذي يُبدي بفكرته ... نفائساً ما لها في الدهر أنباء
أستاذنا الطاهر الساقي بمنقبة ... وسيرة ما لها في الشرع أخطاء
تشفي العليل من الآفات حكمته ... فلا احتياج لما يعني الأطباء
فهو الحبيب الذي ترجى مودته ... وهو الطبيب إذا ما مسّنا الداء

(1) من أوائل منظوماته كما حدثنا في لقاء وحوار أشرنا إليه في المقدمة وفي قصيده هنا يمتدح شيخ طريقته الصوفية.

كفاه فضلاً بمن دامت إقامته بعهده وله بالعهد إيفاء
بشرى لمعشر أحباب له انتسبوا فهم لربهم نعم الأحباء
لا زال شاعره في الدهر مادحه حال الحياة وبعد الموت إرثاء
لا تلتفت لغبي ليس يعرفه هل مقلة تبصر الآثار عمياء
لو كل ذي نعمة كلٌ له تبع لم تشقَ نفس ولا عادتك أعداء
ألَم يكن لذوي الإنكَار قبلهم فيما يُوالونه أهل وآباء
ما في التقول والإنكار مصلحة فكلها عند أهل الحق أهواء
لكن مُجازاة من آذاك تعجبني والحلم يحسب وقت الجهل إغماء
فَرد من ردّ إن لاقاك معترض وسَب مَن سبّ لا يغروك إعطاء
فيقبح الغض إن لاقاك مُتْبَرز ويحسن الغض إن لاقتك هيفاء
هذا وإن الذي أرجو تحققه تخفيف ما فيه للأنفاس أعباء
ثم الصلاة على خير الأنام ومن لأجله تنطوي للركب بيداء
والآل والصحب والأتباع ما نشدت للقلب لولا انهمال الدمع اكماء

* * *

ليلة

أيا ليلة أفردت بالجمال وقد أنعمت بلذيذ الوصال
وقد جمع الشمل بين الأحبـ ـة فيها فما مثلها في الليال
فجاءت كما أشتهي ليلة ولكنها أسرعت بالزوال
وقد نلت ما نلت من كل ما أروم وما كنت ممن يَنالْ
وقد بات قلبي يطير سرورا ويهتز مثل اهتزاز الغزال
إلى أن بدا الصبح وهو شبيـ ـه بغرة أستاذنا ذي الكمال

* * *

روض التهاني

روض التهاني بالمسرة زاهر والبدر في أفق السعادة باهر
والطير يخطب فوق أغصان الكما ل كأن أغصان الكمال منابر
بقدوم أحباب لنا ما فيهم إِلاَّ وفي نهج المحبة سائر
لله أحباب فلم يوجد لهم بين الورى في الصالحات نظائر
فلكم بليد عاذل في حبهم لما تبصرهم فكان العاذر
قاموا على قدم العناية واقتفوا آثار من حسنت لديه مآثر
قوم سقوا الماء الزلال وعُللوا والماء إن رمت التطهر طاهر
بحر محيط بالعلوم وكم بدت من ذلك البحر المحيط جواهر
قمر ينير الكون إِلاَّ أنه لا يعتريه من الغمامة ساتر
كبُر الذي يهدي بنور كماله صغُر الذي فيما عليه يكابر
يا سيداً قد صرت من هجرانه عبداً جريراً أوثقته جرائر
فاز الذي أمسى بحبك مغرما صبّاً معنّى في سبيلك عابر
السائحون الراكعون الساجدو ن البائحون بما تُسِرُّ ضمائرُ

* * *

كريم الطبع

لعمرك ما رياض زاهرات يغرد فوق أيكتها الحَمَام
يميد الغصن كالنشوان فيها إذا ما الغصن باكره الغمام
يمر بها النسيم وقد تراخى فيبدو في تمهله سقامُ
وأضحى الطل في العرصات يبكي ومن ذاك البكاء لها ابتسام
بأبهى بل وأبهج من سلام على من في محيّاهُ سنامُ
كريم الطبع شهم أريحي فريد العصر والشيخ الهمام
سلالة صاحب العرفان سعد وقد سعدت به قوم كرام
مآثره السنية قد تجلّت على الأحباب فانكشف الظلام

* * *

عبد لمحبوبه

ومقتولة عمداً وما سكنت لحداً   وما كان هذا القتل كفراً ولا حدّاً

وقاتلها قد نال عزاً ورفعة   على أنه أضحى لمحبوبه عبدا

* * *

صب يبوح بما تحوي ضمائره   يجول في فلوات الحب خاطره
تُبلى سرائره من سفك أدمعه   من سفك أدمعه تبلى سرائره
يبكي وعبرته دامت فألزمها   سقى المداد إذا جفت محابره
قد يكتم السر من لم تبكِ مقلته   وواكف الدمع لا تخفى سرائره
والناس طراً على جهلٍ سوى رجلٍ   رأى الغرام سبيلاً وهو عابره
مضاء شعري قد ضاءت عليه كما   تضيء منه على صحبي جواهره
يلقى النظير لمن تسمو له همم   فشيخنا اليوم لا تُلفى نظائره
فخر العلوم وقل بدر التمام قل   بحر المكارم قد فاحت عنابره

* * *

حــال المحـب

لـي سـادة كـلـمـا يـرتـد بـيـنـهـم طـرفي فـلا يَسْتَطيع القـلب بينهم

كم قائل قال لي . . ما الشُهدا؟ قلت له لا أعـرف الـشُـهـد إلاً مـن حـديـثـهـم

ولا كـتـاب بـه الأخـبـار تـطـربـنـي مـن عـنـد مـرسـلـه . . إلاً كـتـابـهـم

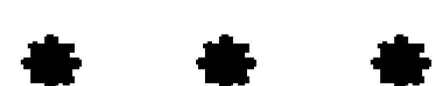
ولـسـت اهـتـز مـن بـرق بـسـاريـة إلاً إذا شـامـت الـعـيـنـان بـرقـهـم

يـا سـائـق الـظـعـن لـلـبـيـداء مـخـتـرقـاً نـشـدتـك الله إمّـا عـجـت نـحـوهـم

نـشـدتـك الله إلاً مـا شـرحـت لـهـم حـال الـمـحـب ومـا يـلـقـاه بـعـدهـم

فـلـيـت كـل فـتـى فـي الـحـي مـرتـحـل يـمـضـي إلى حيث ما حطت رحالهم

الـدمـع أغـرقـنـي والـشـوق أرقـنـي والـقـلـب فـارقـنـي أحـكـي فـراقـهـم



أنست بهم

حبيبي على رغم الحسود سقاني　　بخمر دنو لا بخمر دنان
وقد لامني من لم يكن عارفاً له　　وهل يعرف الأشواق غير مُعاني
ومن خاض في أمر وليس بأهله　　فقد دخل الهيجا بغير سنان
ومن لم يكن في منهج القوم سالكاً　　فأقواله ضرب من الهذيان
ومن أذهب الأيامَ في غير حبهم　　فعيشته مقرونة بهوان
أنستُ بهم لما حُظيت بقربهم　　وأمسيت في أمن من الحدثان
حبيبي لأنت المفرد العَلم الذي　　غدا قمراً يزهو بأفق زمان
توجه ولا تقطع محبك ساعة　　فما لي على قطع الحبيب يدان

* * *

شذا.. وعبرة.. وقلب

ديـاركـم أصـبـحـت عـنـهـا مـقـيـدا   وغـيـري إِلـى تـلـك الـديـار طـلـيـق
ومـا أنـا فـرعـون الـغـريـق بـآلـه   وإن كـنـت فـي بـحـر الـدمـوع غـريـق
إذا مـا ريـاح بـالـعـشـيّ تـأرجـت   فـلـي مـن شـذاهـا عـبـرة وشـهـيـق
لـئـن كـان جـثـمـانـي تـغـيّـب عـنـكـم   فـقـلـبـي إلـيـكـم صـاحـب ورفـيـق

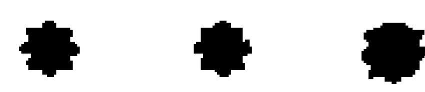
* * *

مدح أستاذه الصوفي

سكرتم وأسكرتم بخمر معتّق فلست بكم إلاّ على السكر ألتقى
ودامت لكم في كل وقت خلاعة وصرت أغنيكم بشعر منمّق
وكم بات لي من لاعج الشوق ساكن يحركه سجع الحَمَام المطوّق
إذا ما بدت نحو المعاهد مُزنة فيا شجوتي من بزغها المتألق
رعى الله هاتيك الديار فلي بها عزيز على أوج المكارم يرتقي
تجلى لأهل الشوق والذوق بعدما تَخَلى، ومن كأس المحبة قد سُقي
رشيد، وحيد، أريحيّ، مُهذب جليل، جميل، عارف، عالم، تقي
سلالة «سعد» قلت لما بلوته لقد سعدت قوم بشيخ موفّق
إذا ما جرى ذكر الأحبة عنده فآماقه تبكي بدمع مرقق
فيا آل «سعد» ثم يا «آل طاهر» لأنتم ذَوو مجد وفضل محقق
حظيتم، وخصصتم بكل كرامة وشمس الرضا لاحت عليكم بمشرق
لقد بات قلبي عندكم وهو موثق وأصبح دمعي مطلقاً غير موثق
وبدلتم أيام أنسي بوحشتي وجفناً غموضاً لي بجفن مؤرق
أيا فرحي لي ما حظيت بقربكم وأصبحت مملوكاً لكم غير معتق
فلا يوم سعد غير يوم لقاكم ولا يوم نحس غير يوم التفرق

طيب الوداد

تمسّك.. تمسّك بطيب الوداد فأنت المرام وأنت المراد
تمسّك وأدرك عُبيداً بما يؤمله من سبيل الرشاد
مضى عمره وهو في غفلة وأوقاته عمرت بالفساد
جمعت ذنوباً فلم أحصها وفي كل يوم لهن ازدياد
فيا سوء حالي إذا لم أعد ولم أتأهب ليوم المعاد
ووا لوعتي ثم واحرقتي كأن الهوى جمرة في الفؤاد
تحلى بحلة أهل الصفا ودع عنك قوماً طغوا في البلاد
ولا تهمل الحق واصدع به فإهمالك الحق محض فساد



حليف شوق

تمتع باللقاء حليف شوق ... يحن إلى المحبة واللقاء
ولم يرَ في اللقاء سوى رجال ... تورد من سناها كل راء
وما تلك البدور سوى رجال ... تحلوا بالمودة والإخاء
يزيد لقاؤهم حُرقاً وشوقا ... كأن لقاءهم عين الجفاء
فصبري عنهم والقرب منهم ... أضرّا بالحشاشة والحَشاء
جعلت عُريب حيهم أمامي ... وألقيت الشواغل من ورائي
وكم من ليلة شاهدت فيها ... بهم كل المحاسن والبهاء
تجلت عن عيوب الدهر حتى ... كأن ظلامها عين الضياء
وقد لطفت بها الآداب حتى ... كأن ظهورها عينُ الخفاء
إذا عبقت مجالسهم بذكر ... تعطر من شذاها كل ناء
ولا تسأل عن القلب المُعنى ... إذا الحادي ترنم بالغناء
وكم من قالب فيهم وقلبٍ ... تحلى بالصّفاء وبالوفاء
هم القوم إذا يوماً تَناءَوْا ... تحن لهم قلوب الأولياء
لقد ركبوا مطاياهم وساروا ... مسير البدر في أفق السماء
جعلت فداهمُ فلأجل هذا ... تأرج فيهم نشر الثناء

وصلِّ يا إلهي ثم سلم   على المختار خير الأنبياء
كذاك الآل والأصحاب طرا   مع الأتباع ثم الأتقياء

* * *

ليلة غـرا

حوت كـل أنـس هـذه الـلـيـلـة الـغـرا فـنـلـت بـهـا عـزاً وحـزت بـهـا فـخـرا
وقـد صـرت مـرفـوع الـجـنـاب مـؤيـدا بـتـجـريـد قـوم عـنّي الـخـفـض والـجـرا
مـحـيـا الـهـنـا يـا قـومـنـا مـتـهـلـل بـمـحـيـاكـم فـيـنـا وثـغـر الـمـنـى افـتـرا
تـطـهـرتـم فـي كـل وقـت بـطـاهـر عـلـى حـيـن مـا فـيـه تـيـقـنـتـم الـطـهـرا
فـلـلّـه مـا أحـلـى حـديـثـاً مـكـررا وقـد دارت الـكـاسـات مـن بـيـنـكـم دورا
إذا مـا تـوجـهـتـم إلـيّ بـنـظـرة فـيـحـسـن وجـه كـان لـي قـبـل مـغـبـرا
لـكـم خـيـر مـأمـول يـؤمـلـه الـفـتـى ويـرجـوه فـي الـدنـيـا ويـلـقـاه فـي الأخـرى
حـظـيـتـم بـحـظ وافـر وبـعـزّة تـزيـن، وفـضـل يـمـلأ الـبـر والـبـحـرا

* * *

جوانــح مشتــاق

دع الـدهـر يـفـعـل مـا يـشـاء فـإنـمـا نعيمي وبؤسي في حياتي قد استوى
شديد القوى مثلي على كل حادث ولكن على التفريق ليس له قوى
نسيم الصبا أخبر، فأنت رسولهم وكل رسول ليس ينطق عن هوى
فلم يكفني إلاّ حديث رَوَيته وأنت لدى العشاق أحسن مَن روى
أحبة قلبي ما لقلب سواكم وهل بعد ما يهواكُمْ يطلب السّوى
ألا ليت شعري كيف تسكُن بعدكم جوانح مشتاق أضرّ به الجوى
فلا تعذلوني إن طلبت وصالكم بذلّ فإن الذلّ أليق بالهوى

اشرب شراب أهل الصفا والروض زاهي
مع رجال المعرفه بلا اشتباهِ
وكن نديماً مشبها أهل الكمال
بحالة يرضى بها أهل الوصال
واذكر حبيباً لاح في أحسن زي
ذكره قد فاح في نشر وطي
والهج بمدح دونه عقد الجمان
واسعد بشيخ ما له في الدهر ثان
لا زال يجيل حُسنه في كل وهمِ
حتى عماني حبه والحب يُعمي
فخذ يا صاح نحوه واركن إليه
وانهض لباب عزه واعكف عليه

منــارة

قـطـب يـدل جـمـيـع الـنـاس قـاطـبـة ... ولـيـس إلاَّ عـلـى الـمـولـى دلالـتـه
مـنـاره فـي طـريـق الـحـق مـرتـفـع ... تـعـلـو عـلـى هـامـة الـجـوزاء هـامـتـه
مـا فـي خـلائـقـه عـيـب ولا وَصـم ... وحـسـبـه ذِكْـر مـولاه وغـايـتـه
أبـو الـمـعـالـي عـلـى أبـوابـه وقـفـت ... آمـال كـل فـتـى رقـت صـبـابـتـه
سليل «سَعد» أخو الافضال طاهرنا ... بـطـيـبـة الـمـصـطـفـى طابت إقـامـتـه
دعـا إلـى الله، واسـتـدعـى الـوصـال لـه ... وأوجـبـت كـل مَـرْضـيّ إجـابـتـه
كـأنـمـا هـو لـيـث فـي أجـمـتـه ... لـحـفـظ أشـبـالـه دامـت رعـايـتـه
جـلالـة الـقـدر فـيـه غـيـر خـافـيـة ... من أجلها عظمت فينا مكانته
يـا مـن إذا قـام بـاسـم الله فـي مـلأ ... كـأنـه الـبـدر والأرواح هـالـتـه
أضحت يمينك يا مفضال مالكة ... مـراد كـل فـتـى صـحـت إرادتـه
ومـخـبـر الـقـوم عـن سـلـمـى لـه خـبـر ... إن لـم يـكـن عـنـك مـا صـحـت روايـتـه

* * *

شطحة متواجد

يا سيء الحال قم بالحال منتدبا إلى كرام لديهم يحسن الحال
وانقل لنا من ليالي وصلهم خبرا كأنما حين ما تحكيه جريال
القاتلي أنفساً من غير ما خطإ والقتل مكرمة فيهم وإفضال
والجاعلي الخمر[1] مشروعاً وليس لهم إقامة بسوى الساقي وَتَرحال
حقيقة فيهم جاءت مفصلة وللحقائق تفصيل وإجمال
لا تهمل السعي في تحصيل فضلهم فآفة السعي إمهال وإهمال
من لم يقربه صدق في محبتهم فلا يقرّبه جاه ولا مال
ولا يهمك من دنياك إن بَذَلت لهم يمينك إدبار وإقبال
وكن لديهم أخا ذلّ ومسكنة فالذل بينهم عز وإجلال
أوجب لنفسك تبريكاً وتهنئة إن صح منهم لها عطف وإيصال
واحمد بحمد الذي لولاه ما جمعت في اللفظ حاء ولا ميم ولا دال
مولاي صلِّ على المختار ما وقفت ببابه لذوي الأشواق آمال

* * *

(1) القتل هنا رمز وليس بمعناه اللغوي ـ كما أن الخمر هنا رمز ومعنى وليس هو شراب الخمر التي حرمتها شريعة الله إنما هي شطحات ورموز ويلاحظ هذا.

نفحة من عبير

مولاي إن ضميري ... وما حوى في ضميرك
وغفلتي وحضوري ... مطوية في حضورك
منيتني بحديث ... نقلته عن سميرك
لم تشق نفس أضيفت ... إلى نُفَيحة خيرك
صرفت قوماً وقوماً ... أجلستهم بسريرك
ذرني لمن لم تذرهم ... في العالمين لغيرك
ولا تذرني لقوم ... ساروا بغير مسيرك
لعل نفسيَ تحظى ... بنفحة من عبيرك

* * *

نظرة حبيب

نضارة الأحوال في نظرة الحبيب
وليلة الوصال هي ليلة القدر
ما أحوج العشاق لنغمة الحادي
يبوح بالأشواق في مهمه القَفْر
وكل مستهام يرثي له قلبي
كأنه حَمام يبكي على وكري
وكل من يهيم يبوح بالأسرار
لا غرو في نديم غنى على سكر
أنوار أحبابي تزيد في الإشراق
طافوا بأكواب في حانة الخمر
مقامهم عال يزهو على الأكوان
وشرطهم غالي في العسر واليسر
صلى عليك اللّه ما غرد القمري
وقال عاشق آه وباح بالسر

* * *

مدح لشيخ الطريقة

لنا ساق يحب إلى النديم مناولة من العصر القديم
ويُخبر أن من يسقيه كأساً فلا يخشى الملامة من مُليم
فطب نفساً وسل عنها خبيراً ولا تدع المهارة من حكيم
هي الراح التي فيها ارتياح وإِفْرَاحٌ إلى القلب السقيم
مروّحة لأرواح الندامى مشعشعة من العهد القديم
لنا في شربها يا صاح سر لطيف قد سرى مسرى النسيم
تعلّلها اصطباحاً واغتباقاً على طرب وشوق مستديم
بحيث غدا الجلوس على بساط تأرج فيه عطر من شميم
وكل سعادة في الدهر أضحت تشير إلى بني سعد وتومي
كرام كلما نزلوا بأرض سمت شرفاً كزمزم والحطيم
ومِن أصفى المدام لهم شراب وليس لهم شراب من حميم
وإن ضل الفؤاد وتاه يوماً وبات يسير في ليل بهيم
فآنس جِذوة في حي ليلى على عَلَم تُشب إلى كريم

* * *

تأملت فيما أنت عنه ذهول ... وَبَادرْتَ للتسليم فيما تقول
فما الشيخ آت بالمناكر كلها ... ولا بعضها كلا.. وكيف أقول
وما هو للإرشاد إلاَّ موفق ... وما هو عن صوب الصواب ضلول
وما هو للفعل القبيح بفاعل ... ولكن لأفعال الكمال فعول
وما الرقص بالأذكار والرقص بالغنا ... ء سيان وما الإنشاد فيها بطيل
على أنه صح الحديث بحله ... كما صح في الأذكار صوت عويل
وكل الذي حرمته فهو جائز ... وفي صحة التجويز جاءت نقول
وفي حجة للذاكرين كفاية ... لَعَمْر أبى في الرد سيف صقيل
أتمنع ما جاء الحديث بحله ... وفي محكم التنزيل فهو نزيل
أما سمعت أذناك أن أمامنا ... كتاب ومرسول إلينا رسول
لعلك شيطان تُضلّ جويهلاً ... لتهواه من ذاك الضلال خُبُول
فابشر بخيبان وإن كنت قاصداً ... لذاك فلسنا للضلال نميل
ومن ضيعة الأعمار كن متأوهاً ... أسيفاً حزيناً والفؤاد عليل
ومت كمداً، وانظر لنفسك حفرة ... لمقبرة الكفار أنت نزيل
فمن كان ذا حصن منيع من الردى ... فليس لشيطان إليه وصول

أيا من يريد النصح مني ويرتجي سلامته من كل أمر يهول
عليك بحب القوم واسلك سبيلهم تجد منزلاً في الحبّ نعم النزول
فهم خلصاء الدين والشرع نهجهم وليس لهم في الابتداع سبيل
وليس لهم في السعي إِلاّ ثلاثة تفكر ساعات، وذِكْر أصيل
مذاكرة تحلو مذاقاً وكلها بإخلاص نيّات وحسن يعول
وإن هرولوا للذِكْر من فرط وجدهم فمنهم دموع العاشقين تسيل
فهم بِسماتٍ عن سواهم تميزوا وقد ظلت الأفكار فيهم تجول
فطائفة مالت إليهم وسلمت وأنى لهذاك الفريق دخيل
وطائفة يستهزئون بفعلهم يقولون هذا باطل وفضول
وبعض أناس قال ـ هم سامرية ـ أولئك قوم ليس فيهم عقول
فلا تستمع ما قيل فيهم فإنها أقاويل أبداهن وغد سفيل
أقاويل إبليسية مستحيلة بها يَنهوِي في المهلكات غَفُول
أقاويل أبداها بنظم مكرر قوافيه والمنظوم منها ثقيل
أقاويل أبداها المسمى بـ«عالم» مجرد اسم والمسمى جهول
فلا يعرف الإحليل أين محله ولا إن أراد البول كيف يبول
ولا يقبل التفهيم إن رمت فهمه ولا إن أراد النطق كيف يقول
فما مثله في الجاهلين جويهل ولا مثله في العالمين عَطُول
تكامل فيه الجهل حتّى كأنه إِلى الجهل فناً كان فيه يجول

أيادي وهمة

دعتني إلى تنميق نظم لمدحه أياديه حتى قيل ذاك هو العقد
له الهمة العليا كأن صفاته رياض على أفنانها يعبق الند
أنيس الندامى يملأ القلب نشوة وجوهر فضل في محاسنه فَرْد

* * *

أهلاً وسهلاً بالأهلة إذ بدت سهلت عليّ مسالك الخيرات
وتعطرت بقدومهم آفاقنا كتعطر الأزهار بالنسمات
وكذا الكواكب في السماء طلوعها مستحسن في حندس الظلمات
يتعرضون لنفحة المولى ومن شأن الكرام تعرض النفحات
فهم الكرام ولا كرام سواهم هم سادتي وأئمّتي وثقاتي
لا تنكروا هيمان قلبي من فتى مترنماً فيهم على الكاسات
أسماع من يهوى الأحبة لم تزل محتاجة لمحاسن النغمات
وعيون من يشتاق رؤيتهم غدت مضطرة أبداً إلى العبرات

* * *

أيهــا الساقــي

أيــهــا الــســاقــي تَــمَــلّــه	واســقــنــا خــمــراً نــقــيَّــه
مــن شــراب لــم يُــمَــلَّــى	كــل مــن ورد بــنــيّــه
أيــهــا الــعــاشــق عَــلّــه	مــن شــراب الــقَــيُّــومــيّــه
وادخــل الــحَــضْــرَة وشــاهــد	تــجــد أســراراً خــفــيَّــه
واتــبــع الأســتــاذ الــطــاهــر	تــحــظَ بــالــرُّتْــبَــةْ الــعــلــيَّــه
وأَدِم ذِكْــــــــر الإلــــــه	بــالــغــداة والــعــشــيّــه
وأبــصــر إن كــنــت مــبــاشــر	لــم يــكــن فــي الــعــصــر زيُّــه
ســيــدي فــي الــعــلــم بــاهــر	وإمــامٌ لــلــصــوفــيــة
ســره كــالــشــمــس ظــاهــر	لــيــس تــفــنــيــه الــعــطــيــه
كــل مــن أتــاه عــاشــق	يَــسْــقِــهِ خَــمْــراً ســنــيّــه
مــثــل حــســنــك مــا رأيــنــا	قــطّ يــا نــعــمَ الــبــهــيَّــه
أنــت عــزي أنــت كــنــزي	أنــت ذو الــرُّتْــبَــة الــعــلــيَّــه
قــد نــرى الأســرار تــبــهــز	مــنــك تــأتــي بــالــعــطــيّــه
قــد جــمــعــت كــلَّ فــن	فــي الــعــلــوم الــمــالــكــيــه
وهــتــكــت كــل عــارض	مــدعــي بــدعــوى قــويّــة

وأظهرت سر سلمى بعد ما كانت خفيَّه
وجلوتَ كلَّ ظُلْمَه في قلوب الأوجليّه
ورأيت الحق لما أنت جلَّيت عَلَيَّ
أرسلك مولى الموالي قدوة للشاذليّة
فبكائي وحنيني واشتياقي زَادْ بِيَّ
فأغثني يا أستاذي واسقني كأس الحميّه
قد ملكت كل فخر بجيرة خير البريّه
وصلاة وسلاما بالغداة والعشيّه
تصحب الهادي الشفيع ألفَ ألفِ بعد مِيَّه

* * *

نفحة من نحو سلمى

غَشَتْنا نفحة من نحو سلمى ... فلو مرت على صرعى لفاقوا
يجر بها نسيم الود جرا ... إلى قوم على الأجناس فاقوا
فكان لهم بها عشق ووجد ... وتذكار وشوق واشتياق
يلذ إليهم ما كابدوه ... من البلوى وما قاسوا ولاقوا
وما استطاعوا التنقل عن هواهم ... كأن على قلوبهم وثاق
يروح العاذلون لهم محاقا ... ونور الله ليس له محاق
قد ابتدروا السلافة كل يوم ... فهاموا في معانيها وراقوا
وساقيها وسائقها لسَعدٍ ... فَنِعْم السقي منه والمساق
يحث إليهم كأساً فكأساً ... فليت عواذلي علموا وذاقوا

* * *

طاب الشراب

طاب الشراب وطابت الأنفاس	وصفا السرور وزال عنا الباس
لله يا نفحات وجد أصبحت	فينا تدير كؤوسها الأكياس
عين اليقين فلا تزال تقيهم	ما أن يُشِر بقلُوبهم وسواس
ولهم إلى ذات الحبيب محبة	شغلتهم عما يقول الناس
ومن احتذى حذو «ابن سعد» هكذا	يُعطى له التكميل والإيناس
وإلى المريد تأرجّت أخلاقه	فكأنها ورد إليه وآس
بقلب يحيى ثم يصبح يانعاً	مهما تطفح في يديه الكاس
والأرض إن سُقِيت بماء طيب	لا غرو فيها أن يطيب غراس
فانظر إلى فكر المريد كأنه	نور يضيء وقلبه نبراس

* * *

طبيعة.. وخلال

من رسائله الشعرية أبيات راسل بها أحد معارفه يصف حالة صديق له.. عام 1940 إفرنجي.

دعوه إِلى إضاعته لحبي — وقد أضحى لدعوتهم يلبي
وحظي من طبيعته جفاء — وإن كان الجفاء لغير ذنب
أصاحب من يليه كي أراه — وأرغب أن أصادفه بصحبي
وكل فتى تملكه هواه — يسير مع الهوى جنباً لجنب
فأحياناً تراه إزاء شرق — وأحياناً تراه إزاء غرب
واذكر معشراً قنصوا فصادوا — وقد نصبوا الحبائل أي نصب
إذا ساررتهم فهمو زجاج — وعهدهمو كعهد سعاد كعب
وما تدري لعمرك إذ تراهم — لنفع نفوسهم أم نفع شعب

* * *

مناجاة الروح

رفرفي في الكون يا أيتها النفس العريقة
واجمعِي الرحلة واستجلي بها نفس الحقيقه

* * *

جاءت الدنيا بقوم أكثروا فيك الجدالا
وكتاب اللّه من أمرك لم يترك مجالا
إنما يختلس الشا عر ما كان محالا
وإلى حب المنا جاة دعاه الاشتياق
ليس بالبدع مناجا ة من النفس المشوقة

* * *

لم نجد في البحث ما نرجو به كشف الغطاء
لم يكن وصفك إلا في خيال الشعراء
أين وحي العقل في الإيمان من وحي السماء
ليس للناس على ما قيل في الروح اتفاق
غير أن الطبع ميـ ـال إلى كشف الحقيقه

رفرفي في الكون يا أيتها الروح الزكيه
ليت شعري هل تنا جينا بأسرار خفيه
غير ما تبديه أفكار العقول الفلسفيه
فهي لا تعلم من أمـ ـرك إلا ما يطاقْ
لا تني في جانب التنقيـ ـب ما دمت مطيقة

* * *

حلقي في عالم الأروا ح يا ذات الخلوذ
في جمال الكون قد شاهدت أسرار الوجود
رفرفي في حضرة الإ طلاق من تلك القيود
كان أفلاتك منها بعد أن ضاق النطاق
وبذاك العَالم العلْـ ـوي أصبحت طليقه

* * *

حومي في الكون واستبـ ـقي لدي التنقيب ساعة
وآسألي الروح التي كا نت على رأي الجماعه
واستزيدي من ذوي التفـ ـكير أصحاب البراعه
هل تعودين لمن كا ن له منك فراق!؟
لك قد كان رفيقاً وله كنت رفيقه

* * *

نحمل الرأي على ما قاله فيك ابن سينا

أنت كالورقاء تر	جيعا وشوقاً وحنينا
ولئن قضيتِ بالآ	لامِ في السجن سنينا
لك يوم النزع من	حشرجة الصدر انطلاق
وفجاج الأرض قد	كنت بها غير طليقه

* * *

أخبرينا بعد ذاك الـ | ـنزع أين المستقر!!؟
هل على مقدار ما | قدمت من خير وشر!!؟
أم وجدت الأمر مو | كولاً إلى سرِّ القدر!!؟
لست أدري ما إلى الـ | ـفهم من الأمر يساق
غير تسليم وتفو | يض إلى باري الخليقة

* * *

أخبرينا عن مصير الأ | مر فيما قيل فيه
يُحشر المرء على | ما كان في الدنيا عليه
أم رأيت الأمر في | ما قيل موكولاً إليه
بعد حكم الله حكم الـ | ـعقل زيغ واختلاق
لم يكن يظهر في | تحقيقه وجه الحقيقه

* * *

رفرفي في الكون يا | أيتها الروح النقيّه
فلنا ما لك لكن | لك فضل الأسبقيّه

أنت بعد النزع حقاً صرت نفساً عبقريه
هل تعودين كما كـ ـنّا.. ولا تم افتراق!!!؟
فلك المرء شقيق وله كنت شقيقه

* * *

هام أهل العلم في تذكار مأتيٍّ وآت
ليس للإنسان إلا ما سعى نحو الحياة
هذه الأرواح لا تخـ ـرج إلا بالصفات
حيث لا منع ولا رد ولا ثَم شقاق
لم يكن يترك من أعمال ماضيها دقيقه

* * *

ما تراه من سراب لم يكن إلا سراب
كلما أغلق باب نحوها يفتح باب
حيث لا منع ولا رد.. ولا ثَمّ حجاب
إنما الناس نيام فإذا ماتوا أفاقوا
حينما تجلى لهم من أمرهم كل حقيقه

* * *

ترنيمة صوفي

يـا أخـلاء الـمـعـالـي يـا كـرام الـنـاس هـبـوا
أنـا صـب فـي هـواكـم فـي هـواكـم أنـا صـب
أنـا مـشـتـاق ولـي فـيـ ـكـم مـنـاجـاة وقـرب

* * *

لـن تـنـالـوا الـبـر حـتـى تـؤمـنـوا بـالـلـه وحـده
وعـد الـنـاس بـخـيـر وهـو لا يـخـلـف وعـده
وإذا الـمـرء بـإخـلا ص دعـاه لـن يـرده
حـاكـم.. والـحـاكـم الـعـاد ل لا يـظـلـم عـبـده
كـاشـف الـكـرب إذا مـا اشـتـد بـالأزمـة كـرب
مـالـك الـمـلـك فـلا يـعـجـزه سـلـم وحـرب

* * *

آمـنـوا بـالـلّـه والـمـخـ ـتـار خـيـر الأنـبـيـاء
وبـمـا جـاء بـه فـي الأر ض مـن وحـي الـسـمـاء
سـبـق الـعـهـد وحـفـ ـظ الـعـهـد مـن صدق الـولاء

لا تخلّوا بوفاء   يا أخلاء الوفاء
وإذا ما اتسع الخر   ق بكم أو ضاق رحب
فبتقواه استعينوا   وإلى رحمته آصبوا

* * *

إنما اللّه إلاه   خاذل كل مناوي
لا يرى الخلق إزاء الـ   ـحق إلا بالتساوي
فانهجوا منهج خير   واتقوا شر الدعاوي
وإذا مسّكمو ضرّ   وقد عز المداوي
فاذكروا الله كثيراً   إن ذِكر الله طب
وهو لا يدخل في   حضرته إلا محب

* * *

لم نجد لولا وجو   د الله للخلق وجودا
جاعل القرية من   ظلم أهليها حصيداً
قاهر كل عنيد   كان جباراً عنيدا
ومذيق الناس من بغـ   ـيهمو بأساً شديداً
لا يحيق المكر إلا   بعد أن يسبق ذنب
حيث لا يجدي كتاب   لا ولا ينفع كتب

* * *

لا ينال البر إلا   من غدا للبّر أهلا

درب النفس على الصعـ ـب فصار الصعب سهلا
لم يقل مهلاً ولا يعـ ـرف في الفرصة مهلا
هكذا الإنسان من نشأ ته مذ كان طفلا
لم يزل يدأب في أضـ ـواتها حتى يشب
وعلى قدر موالا ت الهدى ينمو ويربو

* * *

لا ينال البر إلا من غدا فيه محقا
واحتذى حذو كرام جاهدوا في الله حقا
أحرزوا سبقاً وخير الـ ـناس من أحرز سبقا
أخلصوا في صالح الأعـ ـمال إيماناً وصدقاً
لم يكونوا مثل قوم قيل فيهم واستحبوا
قل ما يسلم من كيدهمو شرق وغرب

* * *

لا ينال البر إلا من تخلى بالمزايا
وتخلى مشمئزاً من معاطاة الدنايا
ثابت الجأش على ما اشـ ـتد من حمل البلايا
إن فقد الصبر للإنـ ـسان من أعلى الرزايا
في سبيل الحق مرتا ع إذا ما اشتد خطب
لا يطيق النهض من كبـ ـوته حين يُكبّ

إن للمرء حياة وحياة القلب نور
كيف من يفقد نور الـ ـلّه في الدنيا يسير
وطريق الحق لا يسـ ـلكها إلا بصبر
ليس يدري موقع الأمـ ـن بها إلا خبير
جامع علماً وحلماً وهو في الحالين قطب
وعن الشر بعيد وعلى الخير مكب

* * *

رحمة اللّه ورضـ ـوان على تلك الصفات
جمع الدهر عليها مأتماً للنائحات
وغدا السائر منا خابطاً في الظلمات
ما فقدنا النور حتى فقدت روح الحياة
حيث لا للأمر إيجا ب ولا للنهي سلب
حيث لا للسمع إصـ ـغاء ولا للفهم قلب

* * *

ربما نبغي دواء وهو في الأنفس داء
ربما نحمل علماً وهو في الجهل سواء
كل عِلم لم يصاحب عملاً فهو هباء
كل شيء من كتاب الـ ـلّه يا قوم شفاء
لم يكن لولا نظام الـ ـلّه أمر مُستتبّ
لا.. ولا في الكون يعلو فوق حزب اللّه حزب

ابتهال وتضرع

يا خالق الخلق يا من — به المقادير تجري
إن ضاق صدري فمن لي — سواك يشرح صدري
أو مسني الضر يوماً — فأنت تكشف ضري
وجهت يا رب وجهي — في حال عسري ويسري
ولم تكن لي نجاة — سواك إن عيل صبري
مولاي.. مولاي.. إني — إليك فوضت أمري
أرجو رضاك فهب لي — حُسن الختام لعمري

* * *

الناسك وسحر الجمال

سيئاتي تركت في خلدي ... حسن ذكرى أحمد الله عليها
كلما أذكرها تذكرني ... رحمة الله وإسنادي إليها
لم تدع في القوم من يمقتني ... أنا والقوم جميعاً في يديها
نحن نبغي وهي من عزتها ... ليس تبغي غير نفس تبتغيها
خفيت عنا فلا نبصرها ... وهي لا تبصر إلا من يليها
كم توارت تحت أستار الهوى ... حذراً من أن نراها أو نريها
وإذا ما نصبت أشراكها ... في خفاء وقع الناسك فيها
أمها الشهوة والغيظ أب ... كل شر ناتج من أبويها
نحسب الحسناء لا تسحرنا ... فإذا السحر أتى من مقليتها
كم تقيّ ترك الورد سدى ... إذ رأى الورد زهى من وجنتيها
ومحب بات يشكو سقماً ... ورأى أن الشُّفا في شفتيها
سيئات ليت شعري هل أرى ... بعدها من ثمرات أجتنيها
أيها الغارق في لجّتها ... في مياه بعدت عن ضفتيها
لم تزل نفسك في رقدتها ... فإذا ما انتبهت عفت يديها
لا تقل نفسي غدت في خطر ... إن حسن الظن بالله بقيها

وحدة الوطن

قد طالما قلت في شعري وفي أدبي يا أخت برقة في مجد وفي حسب
شقيقتان لكل منهما عقب والمجد من عقب يسري إلى عقب
أختان كونتا جيلاً قد انتقلت له النجابة من آبائه النجب
وليبيا تجمع الأختين واحدة لا فرق إلا بوضع الاسم واللقب
عوامل الربط تبدو من طبيعتها بصورة عن خيال المرء لم تغب
ومن أشار إلى تفكيك وحدتها بأي حال من الأحوال لم يصب
إن قلت «فزان» للأختين ثالثة قد قلت حقاً وما في الحقّ من ريب
لكل أخت مع الأخرى مودتها قديمة لم تزل من سالف الحقب
مودة إن ذكرناها تذكرنا عهداً تكلل بالأفراح والطرب
عهد به كان حبل الود متصلاً وقد صفا الجوّ بين الترك والعرب
لما انقضى دارت الأيام دورتها توقع الناس منها سوء منقلب
مدت إليها يد العدوان فاصطدمت بصخرة لم تنل منها سوى العطب
فكان من أثر العدوان أن فشلت يداه وأنقلبت رأساً على عقب
ورب أمنية خابت ولو بُنيت يوماً على الصدق والإخلاص لم تخب
والحرب إن رفعت أوزارها ارتفعت أصوات شاك ومستاءٍ ومضطرب

خُلف قد اتسعت في الناس رقعته	والخُلف يدعو إلى الويلات والحرب
وكل نفس بما تهواه طالبة	وهل لها غير ما تهواه من طلب
وربما كانت الأهواء ظاهرها	جد، وباطنها ضرب من اللعب
وقادة الفكر لو صحت ضمائرهم	لم يبق في الأمر ما يدعو إلى الشغب
يا جارة الحي لا تزري بعاصفة	من الملام على التقصير في الطلب
لا تعذليني إذا ما قمت مندفعاً	من ثورة الحب أو من ثورة الغضب
كحافظ قال «هل في مصر مفخرة	سوى» التنافس «في الألقاب والرتب»
وذاك تذكرة منه وتبصرة	وفي التبصر نور غير محتجب
فلا تكوني كميت لا حراك به	تحت التراب إذا نوديت لم تجبي
وهذه فرصة حانت فلا تقفي	عنها فقد قيل إن الوقت من ذهب
عليك لاحت من الآمال بارقة	بعقد «جامعة» موصولة النسب
تحيي الشعور وتحيي كل ذاكرة	كالروض يحيا بمنهل من السحب
والصبر في طلب العليا لنا خلق	ونحن ما بين مشتاق ومرتقب
وإنما انقادت الأيام صاغرة	للحاملين سلاح الصبر في النوب
كم للعروبة من فضل يشاد به	في روعة الشعر أو في رنة الخطب
إذا تطلبت العليا فلا عجب	وإنما تركها العليا من العجب
لا فضل للشعب إلا أن يكون له	عقل إلى العلم أو روح إلى الأدب

* * *

تحية للمجاهد «عبد الرحمن عزام»

أثرت بصوتك الشوق الكمينا ... فأورثنا التوجع والأنينا
ومثلك من يحن له حنينا ... ويحفظ وده حينا فحينا

* * *

وصالك مغنم ولقاك عيد ... لنا في قربه أمل وطيد
ويكفي منك ما حمل البريد ... إذا كان الزمان به ضنينا
طربنا من حديثك وهو يملى ... وآيات التحية منك تتلى
معاني الحب إذ وافتك عطلى ... نظمت لحسنها الدر الثمينا
وألفاظ بها طرب الكريم ... وقد أضحى برقتها يهيم
كغصن إذ يهب به النسيم ... يزيد قوامه عطفاً ولينا
وما هب النسيم بطيب نشر ... ولا زف الأديب بنات فكر
بأحسن من تحية أهل مصر ... وشبّان بها متهذبينا
بعثت بها إلى الوطن اشتياقا ... فمدت من فصاحتها رواقا
وحُسن اللفظ يتسق اتساقا ... ليرسخ في قلوب السامعينا
بعثت بها إلى الوطن الوفيّ ... لأكرم معشر وأعزّ حيّ
أخي الإقدام والنظر العلي ... يقوم بصالح الأعمال فينا

يقوم بواجبين بدون منع وجوب مروءة ووجوب شرع
وخير الناس أقربهم لنفع وأنهضهم لأمر المسلمينا
عظيم النفس من يأبى الدنايا ولو نيطت بمهجته المنايا
ويحمل في حقائبه المزايا ويحفظ ما بها حفظاً متينا
ومن أسدى إلى وطن كتابا ليفتح للتفكّر فيه بابا
فحتم أن يرد له جواباً يوشحه بفضل الذاكرينا
وتمييز الأفاضل عن سواها بمقدار الذي كتبت يداها
وكل فضيلة فيهم تراها تضاف إلى الكرام الكاتبينا
ليهنك يابن عزام بلاد على محض النفوس لها اعتماد
ولم يطرق بساحتها فساد إذا كان الشعور لها معينا
نفوس همها سبل المعالي وآثار تسجلها الليالي
ويوم الروع أرسى من جبال وأرسخ في الوغى من طور سينا
ومصر هي البلاد وما تراه لصالحها فليس لها سواه
تطالب خصمها فيما أدعاه فإمّا أن تبيّن أو تبينا
على الأثر القديم توارثوها وبالمجد الأثيل تبوّأوها
ولا عجب إذا أحيا بنوها مآثر مجدها في السابقينا
إلى تلك المدارس والعلوم وينبوع المعارف والفهوم
بدت همم لهم فوق النجوم كنشأة مجدها في الأولينا
رعاه الله من وطن معلى ونال بأهله القدح المعلى
وما خُلق ابن آدم فيه إلا ليحفظ في الورى نسباً ودينا

سلام اللّه ما هطل الغمام وما غنّى بدوحته الحمام
على مصر وحق لها سلام لشهرة فضلها في العالمينا
يسير بذكره حادي الحداة بما يحويه من كرم الصفات
يؤم به إلى مصر الفتاة ويخترق الفلا في الظاعنينا

بين ليت.. ولعل.. وعسى

بين ليت ولعل وعسى أمل كان بكم ملتبسا
أمل كان خيالاً فبدا علماً في جانب الحق رسا
ها هو استقلالكم قد بات في يدكم فابنوا عليه الأسسا
فإذا ما أسست أركانه رجع الفضل لمن قد أسسا
فاجعلوا شملكم منتظماً باطراد لم يكن منعكسا
وانهضوا الأمة من كبوتها طالما كانت تغط النفسا
إنما ينهض بالشعب فتى بات من كيد العدا محترسا
جد في نهضته لما رأى وطناً يحيى حياة البؤسا
في سبيل العز في نيل العلا لم يضق صدراً ولم يخش الأسا
ذو صفات لم يشبها دنس وكريم النفس يأبى الدنسا

* * *

ما ذكاء المرء إلا لمحة وهي في القلب تحاكي القبسا
فعلى أضوائها يُعرف من كان في وجهته مختلسا
لجهاد الشعب نور لم يكن من سوى نور الهدى مقتبسا
ذهب العهد الذي يسكتنا وإذا نحن نطقنا عبسا

لم يبح حرية القول ولم يرض إلا أن نكون خرسا

* * *

هذه الفرصة قد حانت فلا تقفوا وقفة من قد يئسا

إن للّه يداً تنقذ من قسوة البغي إذا الباغي قسا

يضع الإنسان في موضعه ويلي بالعفو عمن قد أسا

وإذا ما كرمت أخلاقنا لم يضع حق إذا ما التمسا

غَزليـة

أحبّ من المحبوب لي منه موعدا … وتكراره للوعد أحلى وأسعدا

ويحسب لي مولى وأحسب عبده … وإن كان خصمي في هواه منذُدا

ولما رأيت النور للعين حاجباً … جعلت عناني في هواه مؤكدا

وأعلن بالأحداق راية حربه … كأني له قد صرت من جملة العدا

ومزّق أحشائي بسهم لحاظه … وقد تفعل الألحاظ ما تفعل المدا

وطالت بي الأسقام إذ طال عهده … ومت فأحياني محياه إذ بدا

وشاهدت بعد الموت جنة خده … فصرت به في نار عشقي مخلدا

وأضمرت أوجاعي لحسن تجلدي … فقلت أرى للشامتين تجلدا

ولو خف حبي لاستراح مفندي … وهيهات مثلي أن يريح المفندا

فلو ناول الصهباء من كف أغيد … لأصبح لي فيها معينا ومنجدا

فقل لفتى ظن الغرام سجية … وعن سنن العشاق ضل وما اهتدى

فرب فتى يهوى الحجاز وقلبه … يحن إلى نجد ولم يك أنجدا

وقد ينتمي للحب من ليس أهله … ولا سيما شخصاً عليه تولدا

ويحمي الهدى من لم يكن للهدى أخا … فكيف بمن أضحى وأمسى أبا الهدى

* * *

كتمان الهوى..

كتمت عن صحبي هوى شادن ولم أزل وَجداً به أهتف
وهمتي في الحب مبذولة وقفاً على ذاته لا تُصرف
ولم تَعد وقفاً على غيره لقولنا: الوقف لا يوقف

صورة من المحاكم الشرعية[1]

أيها الحاكم انتقل   لا عدمت التنقلا
خل كرسيك الذي   منك غيظاً قد امتلا
جئت كالصخر فوقه   ومن الصخر أثقلا
لا تحمّله إنه   لا يطيق التحملا
أنت في الجهل آخر   مثل ما كنت أولا
قد تجليت صورة   وتمثلت هيكلا
قد ظنناك قاضياً   ليس إلا لتعدلا
تابعاً سنة الذي   جاء بالحق مرسلا
فإذا الأرض أجدبت   وإذا الربع أمحلا
أصبح الغيث مدبرا   وغدا القحط مقبلا
إن للدين حلية   لا تجاري التحيلا
ليس للعلم حاجة   لك إلا لتعملا
أنت قاض وبالقضا   كلنا صار مُبتلى
فاجعل الحكم شاملا   ودع القول مجملا

---

(1) سبق في الطبعات الأولى أن نشرت أبيات منها وهي متكاملة في هذه الطبعة.

خل أشغالك التي قمت فيها لتفصلا
عدة ثم رجعة أو طلاقاً مبتلا
أو نكاحاً وفسخة أو صداقاً تأجلا
ثم إنفاق منفق من ذوي اليسر والملا
ثم إنكار منكر أو يميناً مكمّلا
أو وصيّاً وحاضناً ترك الطفل مهملا
ومن الكيد أن ترى بين زوجين مشكلا

* * *

ما ترى غادة بها لمحة الهم تجتلى
فترى الوجه شاحباً وترى الدمع مرسلا
تدّعي: إن لي فتى خلته من ذوي العلا
جاءني وهو خاطب بعد ما كان أرملا
جاء بالزي مظهرا أنه من ذوي الملا
كنتُ أملت أن أرا ه كريماً مسهلا
فأبى اللّه أن يحقـ ـق فيه المؤملا
فتبصرت أنه لم يكن صادق الولا
فهو يأوي لحانة يحتسي أكؤس الطلا
ثم يأوي لمنزلي لا غدا لك منزلا
لم تقر فيه فأرة ومن الهر قد خلا
رحمت فيه حالتي حالة الفقر في الفلا

ومن الطيش أنه أتلف الحلي والحلا
هالني سوء فعله وأرى الصبر أهولا
كم تجرعت غصة وتذوقت حنظلا
هأنا مثل ما ترى لم أجد عنك معدلا
إفصل الأمر بيننا دمت للحق فيصلا

* * *

فانبرى الزوج بعدما قد أطال التأملا
قائلاً - وهو مطلق بين فكيه مقولا
- سيدي إن هذه تعلن البغض والقلى
كل ما تدّعي به حيلة أو تحيّلا
كم تحملت نحوها من شقاء ومن بلا
صار بالدَّين كاهلي في رضاها مثقلا
أكثرت قول - هات لي - هبط السعر أم غلا
وغدا المال في ويا ل وقلبي تبلبلا

* * *

إن من وُلّيَ القضا عرض النفس للبلا
ومن الناس من غدا مُرخِصاً فيه ما غلا
عزله مثل موته ويرى الموت أجملا
ومن الناس من يرى عزله منه أفضلا

* * *

عتاب وملام صديق

قد جئت يا ابن الحسن بغير أمرِ حسن
عريضة قدمتها فليتها لم تكن
ولم يكن تقديمها باسم أديب فطن
فليتني لم أرها وليتها لم ترني
تقول فقد رؤيتي من القضا تمنعني
أقول إني واحد من عدد معين
أبوك كان عندي من أجلّةِ في الوطن
فكيف لا تشبهه في طبعه المستحسن

تهنئة لصديق

يا ابن «الوفاتي» اليوم طاب لك الهنا ويدت لك البشرى بطالعك السعيد
سميت «ياسمين» منك تفاؤلا بجميل ستر الله والخلق الحميد
الله يكلؤه ويحرس ذاته بزيادة التوفيق والعمر المديد
حتى يرى في عصره متحليا بالبر والإحسان والرأي السديد

رسالة تحية لصديقه أحمد الفساطوي

روى الحديث فكان أحسن ما روي	عمل الكرام على صراطهمو السوي
وإذا هويت من الآثار أجلها	قدراً فدين الله أحسن ما روي
«ولأحمد الفساطوي» رسالة	فغدت على كل المحاسن تحتوي
جمعت من الدر النظيم قلائداً	كادت لرؤيتها الكواكب تنهوي
فاقت على «العقد النضير» إذا غدا	يوماً على جيد المليحة يستوي
و«قلائد العقيان» من حسد لها	تشكو كما يشكو الضعيف من القوي
قد ثار معناها وجوهر لفظها	شوقاً غدا بين الأضالع ينطوي

مباحث مولانا الشهاب جليلة أحاطت بأسرار الحديث بلا مين
أضاف سمي «الأخضري» لحسنها تمائم قد أضحت أماناً من «العين»
لعمرى هو الشيخ «البوصيري» أشرقت بصيرته إشراق بدر لذي «عين»
فأوضح «بالتقرير» ما كان مشكلا بأكمل إيضاح وأجمل تبيين

* * *

كامل بن مصطفى: مفتي طرابلس

توفي 1897

أيدي المنية كل يوم تصرع ... وبها الفؤاد مزحزح ومزعزع
وعناؤنا متموه بهنائنا ... وشراب دنيانا سراب بلقع
لا يبرح الصبر الجميل عن الفتى ... حتى يضيق له الفناء الأوسع
إن المهولة لا تزال مهونة ... حتى يموت لها الخلائق أجمع
لم يبق بعد «محمد بن المصطفى» ... إلا فؤاد يستفز ويفزع
أفعالنا معتلة ودموعنا ... منهلة وقلوبنا تتصدع
ناديت أن يا قلب، لا تهلك أسى ... فكأنني ناديت من لا يسمع
وغدوت أنتظر العزاء فبان لي ... أن العزاء أشد شيء يمنع
وغضضت جفني كي تفيض مدامعي ... فسبقن غض الجفن تلك الأدمع
لا غرو أن يجري البكا يوماً على ... بحر به كل النفائس تجمع
العالم البر، التقي، الماجد السـ ... ـهل الخلائق والكريم الأروع
والكاشف السر الخفي بموجز ... معناه أثبت في النفوس وأوقع
كانت ثواقب فكره بين الورى ... كالنار تسرح في الهشيم وتسرع
سل عنه أفنية المساجد إنه ... فيها لعمر أبيك روض يمرع

أو ما تراه إمام كل سميدع / وإليه في كل الحوادث يرجع
كانت سوائم فكر أرباب النهى / في روض مجلسه تجول وترتع
أوقاته الغر الحسان لها به / في كل يوم شمس فضل تطلع
فاق الصباح تبهجاً وتبسما / ولدى المساء ترفه وترفع
ما زال ناضر عيشه في رقة / ولطافة حتى غدا يتقطع
لم يخل منزله البهيج وإنما / خلت الديار فكل دار بلقع
لهفي عليه لعبقري بعده / قلب يفارقه ودمع يهمع
لهفي عليه لراية النعمان إذ / كانت بغير يمينه لا ترفع
ومدارس المعقول والمنقول إذ / حنت إليه كما يحنّ الموضع
يا أيها القمر الذي بخسوفه / عمّ العناء فكلنا يتضعضع
وتنكبت سبل العزاء فلن ترى / إلا كئيباً قلبه يتصدع

* * *

ما كنت أحسب قبل يومك أن أرى / عَلماً على تلك المناكب يوضع
كلا ولا الشمس المنيرة أصبحت / كذخيرة تحت الثرى تتوّدع
هذا هو الخطب الذي ما بعده / للقوم إلا أنّة وتفجع
لكن يسر القلب أنك لم تزل / نشراً يضوع ودوحة تتفرع
فلعل فرعاً من فروعك ملحق / بك، والفروع لأصلها تسترجع
ويعود صفو العيش بعد ذهابه / ولخطة الإفتاء يحسن مطلع
ولئن فقدنا كاملاً فكماله / باقٍ، ونشر ثنائه يتضوع
أو إن غدا أمراً مهولاً فقده / ولمعشر الإسلام خَطب مفظع

فـالـلـه يـشـرح بـالأجـور صـدورنـا   حـتـى يـكـون إلى الـتـجـلـد مـوضـع
ولـظـنـنـا بـالـلّـه فـي آمـالـنـا   حـسـن بـغـيـر كـمـالـه لا يـقـطـع

* * *

فيم البكاء.. وفيم الهم والكدرا؟ إذا تجلى قضاء الله والقدر

إليك في موت إسماعيل تعزية حسبي وحسبكمو يبقى لها أثر

رفقاً بقلبك في أمرٍ تدبره والقلب ينحته التدبير والفكر

والصبر كاسمك محمود عواقبه وزر يحطم أو أجر فيدخر

واصبر على خطر الأيام ما بقيت واقنع من الدهر أن يبقى لك العشر

واستصحب الزاد لا تحسب إقامتنا إقامة.. وهي لو أبصرتها سفر

ولا تدع لغدٍ أمراً فربّ غدٍ يأتي على غير ما يرعى وينتظر

إنا لنحسب آمالاً فتنسفها يد المنية لا تبقي ولا تذر

خاب التكهن.. خاب القائلون به لا يرفع الشك إلا الخُبر لا الخَبر

قالوا حياة.. فقلت كلها تعب قالوا شؤون.. فقلت كلها عبر

فما انقضى كدر إلا أتى كدر يصفو قليلاً ويأتي بعده كدر

والدهر كالليث في ناب وفي ظفر وليس في الليث إلا الناب والظفر

وإن تشأ.. قلت، أستاذ ومدرسة علياء، مصدرها الأمثال والسير

هي الحوادث كم أبقت لنا أثراً وللحوادث تذكار ومذّكر

* * *

' عثمان

إذا ما غبت يا عثمان عني ... ومن نظري فَذِكرك لا يغيب
وقفت بقبرك الميمون أبكي ... فما نفع البكاء ولا النحيب
بموت قد نعيت ففاض دمعي ... وكاد القلب من لهب يذوب
إذا فقد الحبيب فقدت أنسي ... وما أنسي إذا فقد الحبيب
ونحن إذا تذكرنا المنايا ... تنوسيت النوائب والخطوب
يقال لكل ذي داء دواء ... وداء الموت ليس له طبيب
وأعظم ما يكون من الرزايا ... إذا فُقد السميدع والأديب
محاضرة وآداب وفهم ... له في كل معضلة نصيب
وبالخلق الكريم غدوت إلفي ... وبالأخلاق تأتلف القلوب
صفاء مودة، وولاء صدق ... يدوم فلا أَرِيبُ ولا يُريبُ
وأبعد ما يراد من الليالي ... محب لا يفارقه حبيب

* * *

محمد مصباح

هاجت بنعيك عَبرة وتفجع | وغدت بمأتمك القلوب تصدع
خبر تلقاه الأحبة فجأة | طال البكاء به وهال المصرع
خبر يشق على كرام شأنهم | حفظ الوداد لهم عليك توجع
بالأمس كنت ولم يكن أحد له | في الناس منتظر ولا متوقع
من للحميّة والشهامة والوفا | إن تدعه يوماً يجيب ويسمع
يا صارقاً في المكرمات حياته | ولشمل مجلسها يضم ويجمع
أنت الشريف محمد وأبوك مصـ | ـباح وجدك شافع ومشفع
لولاه ما عُرف الضلال من الهدى | وأُزيل عن وجه الحقيقة برقع
تبكي لمصرعك المروءة والندى | وسراة ودك والأحبة أجمع
إن همهم سوء انقطاعك عنهمو | فجميل ذكرك عنهم لا يقطع
أو كان مضجعك التراب وأنت من | نسل النبيّ فنعم ذاك المضجع
كثر الزحام على جنازتك التي | ضاق الفضاء بها وضاق المهيع
فلك الهناء مصاحب وملازم | ولك العناء مشيّع ومودع
هطلت عليك سحائب الغفران ما | سحت على فقد الأحبة أدمع

عالم من «مسلاتـة»

يقولون قد مات السري ابن أحمد   إذا رمت أن ترثيه فاسمح وحقق
فقلت قصارى القول قد مات عالم   فأكرم به من لوذعي محقّق
شقي معاديه، سعيد محبّه   ولا شك من عادى الأصيل هو الشقي
حريص على جمع الفروع وحفظها   بغير شعار العلم لم يتخلق
أصيل عريق فاضل متفضل   شريف، عفيف، زاهد، ورع، تقي
«مسلاتة».. كانت تشاهد فضله   بنصح وإرشاد وحسن تخلق
ومن جده «عبد السلام» فلم يكن   إلى القلب شيء غير حُسن التعلق
وهذا رثائي في ابن أحمد قلته   ويكفيك ما قد قلت عن ذكر ما بقي

شيخه الصوفي

ما أحدث الدهر فينا حادث نزلا كالمنتهى في المعالي ينتهي أجلا
أعظم به من مصاب جاء مطعمه كالصاب غيّر في أذواقنا العسلا
ترعى النجوم بليل وهي طالعة والليل يفترض التطويل والمللا
رجالنا ونساء الحي ساهرة من الرقاد سلين الأعين النجلا
حق لطيبة بل حق لساكنها تنوح تندب، تبكي السيد البطلا
نجل الأفاضل مولانا وسيدنا من لم يزل في طريق الله مبتهلا
نجم الهداية والساقي بمنقبة فيها وكم بطل من دونها بطلا
وافى الإله على شوق ومعرفة وأكرم الخلق من وافى ومن عقلا
وما أناخ لدى الباري مطيته حتى كسا القوم من نور الهدى حللا
أضحى يُشيعُ والتَشْيِيعُ في نظري بحر على آلة حدباء قد حملا
وصرت أشهد ما كنا نقدرها شبراً من الأرض قد ضمت لنا جبلا
نعم الجوار إلى خير الورى أبداً حيّا وميتاً وأكرم بالفتى نزلا
قد كنت أنثر دراً في محاسنه واليوم أنثر دمع العين مهتطلا
كيف العزاء لمن أضحى بصحبته يفارق الأهل والأصحاب والخولا
كيف العزاء لمن جد الغرام به شوقاً إليه، ولا يصغي لمن عذلا

لو كان طوع يد الأحباب رحلته   لكان كل فتى في الحي مرتحلا

فللأسود وجوم في أجمتها   وعلة في سواها أورثت عللا

كادت تغادر أوصالاً مقطعة   لو لم يكن مسند المسعود متصلا

الفائض المدد بن الفائض المدد   بن الفائض المدد بن السادة الفضلا

لا ريب في ذاك والأيام مشعرة   بأن للفرع ما للأصل قد حصلا

* * *

إبراهيم باكير

توفي 1943

عزاء بني باكير إن مصابكم يعم سواكم في الأسى والتوجع
علينا لكم حق الوفاء محتم ومنا ومنكم أنة المتوجع
حرام علينا أن نودع فاضلاً ولم نقض بالتذكار حق المودع
وما الحق إلا أن يكون أداؤه أداء وجوب لا أداء تطوع
ولا فقد في الدنيا لعمري موجع إذا لم يكن فقد الكرام بموجع
أقول لمن أمسى يبرحه الأسى لك الخير لا تجزع ولا تتصدع
وقل إن إبراهيم أصبح ذاهباً إلى جنة الرضوان غير مروّع
وما مات حتى غادر البيت حافلاً بطالع سعد وهو أحسن مطلع
نجابة فرع من نجابة أصله يسابق طبع فيه لا بالتطبع
فلله بيت لم يكن غير آهل ولله دار لم نجدها ببلقع
ولم أنس أن الشيخ كانت حياته حياة مجدٍّ لا حياة مضيع
وقوراً إذا دار الحديث ومؤنسا فما هو بالجافي ولا المتصنّع
وليس على شيء ـ وإن جلّ أمره ـ إذا لم يكن يعنيه، بالمتطلع
ولم ينتصر يوماً لجانب رأيه غروراً، ولم تأخذه عزة مدّع

يصارحنا بالحق والحق بيّن ويصبو إلينا بالحديث الممتع
يرى أن دين الله يسر ميسر ولم يك دين الله بالمتنطع
وكنا وقد ساد التفاهم بيننا يميل لما نصبو، ويصبو لما يعي
وليس له - والحمد للّه - غاية تقوم على حكم الهوى والتسرع
هو الشيخ لا أنسى جلالة قدره أكان مع الحزب المعارض أم معي
نشيعه إذ كان بالرغم راحلاً فأكرم به من راحل ومشيع
على قبره الميمون أزكى تحية لها أرج من نشرها المتضوع

عمر المنتصر

تصفو الحياة لشخص غير مدكر وذو الحجى غير مأمون من الخطر
ونحن أبناء دهر لا وفاء له لكن من الحزم أن نبقى على حذر
كل النوائب تلقى من يقاومها بوازع الرأي أو بالصارم الذكر
وحادث الموت أمرٌ لا يفرجه إلا الرضا بقضاء الله والقدر
يا آل «منتصر» قد جل خطبكم قد جل خطبكم يا آل منتصر
وأصبح الأفق مغبراً بجانبكم وقد عهدت إليكم طلعة القمر
خَطب الـمّ فأشجى كل مكرمة وآلم الفضل في بدو وفي حضر
خطب الـمّ فلم يصبر له أحد كأنه لم يكن في طاقة البشر
قد بات منه ضياء الدين في ضجر وفاقد الأنس لا يخلو من الضجر
فما رأيت عيوناً غير ساهرة ولا رأيت فؤاداً غير منفطر
تواصلت حركات البؤس واتصلت أفعاله بضمير غير مستتر
من مأتم لم يزل ثوب الحداد به يكسو الأحبة من شوق ومن سهر
تحادرت عبرات فيه لو جمعت يوماً على الأرض لاستغنت عن المطر
ينساب فيه عقيق الدمع من مقل ما بين منتظم منه ومنتثر
موت ـ ابن منتصر ـ بالرغم أودعنا هماً وأذهب عنا لذة السمر
البائع النفس في حب النبي وفي آل النبي بلا جهل ولا غرر

والمشتري الحمد من أزكى عناصره والوارث المجد من آبائه الخير
وطالما كانت الأيام تنشده بوركت يا عمر الخيرات من عمر
في الجود أشهر من نار على عَلم بلى.. وأوضح من شمس لدى بصر
فلو أباح له المولى خزائنه بين الورى لم يدع فقراً لمفتقر
مخدرات المعالي من كرامته قد قابلته بوجه غير منحصر
للمستجير وذي الحاجات من يده يُمْن من النفع، أو أمن من الضرر
وإن رآه لآل البيت منتسباً أحله في محل السمع والبصر
عِلماً بأن إله العرش طهرهم ولم يدع بعدهم فخراً لمفتخر
تجارة لم يزل في الدهر يصحبها بين الخلائق لم تكسد ولم تبر
فرد مضى عمره في غير مضيعة فلم نقل بعدها يا ضيعة العمر
وهمه كان في تعمير منزله بصالح الذكر لا بالعود والوتر
وفي سبيل العلا أمضى عزائمه بالعطف والود لا بالكبر والبطر
فاجمع كرام الورى واجعله مبتدأ في الجمع يا صاح.. وارفع جملة الخبر
يا راحلاً عن ديار الحي ما سئمت منك الديار.. ولا اضطرّتك للسفر
من للرواحل إن ضاق المناخ بها!؟ من للأرامل في الآصال والبكر!؟
كانت لديك رياض الأنس زاهرة وقد جنى القوم منها يانع الثمر
كم أصبح الجانب الشرقي مؤتمناً بجانب منك لا يدعو إلى الخطر
تركت في الدهر ذكراً لا براح له مخلداً لم يزل في آخر العصر
ما بعد أيامك الغر التي ذهبت إلا الرجوع إلى أبنائك الغرر
لا زال قبرك محفوفاً بخاتمة يفوح عرف الشذا من نشرها العطر

فراقك أيها المولى الأمين ... يزيد به التوجع والأنين
أذاب حشاشتي وأطار نومي ... وقرّح عيني الدمع السخين
أنوح لفقدكم أبداً وأبكي ... لقلب في محبتكم رهين
ومن لفتى يسير إلى مناه ... وكان بنور هديك يستعين
تمر به المواعظ والوصايا ... فيرهقه بها عطف ولين
وكنت لكل مكرمة وفضل ... يزيد بك التنبه واليقين
إذا خاض الأحبة في هواهم ... فأنت إلى نجا تهمو سفين
تسير بهم إلى عمل وعلم ... وتوفيق الإله لهم قرين
لقد وفيت للإرشاد حقاً ... وكنت لأهله نعم المدين
ومذ كانت تزورك أهل بدر ... علمنا أن فضلك مستبين
بكت لفراقكم سبيل المعالي ... وشد بها التشوق والحنين
ومن أنكى المصائب موت شخص ... يموت بموته شرف ودين
وكيف تصان أسرار المعاني ... لمودعها إذا فقد الأمين
ولو يؤتى به بدلاً صبرنا ... ولكن الزمان به ضنين

* * *

رثاء صحفي..
رئيس تحرير جريدة «بريد برقة»

بات النهى متصعد الزفرات و«بريد برقة» فائض العبرات
وغدا اليراع بما عراه من الأسى نحو الحمى متضائل الحركات
لم يأت بالأنباء بعد محمد لولا شقيق محمد لم يات
فقدت وليداً شب في أفق العلا والعيش غض والزمان موات
وله على حي الكرام ببرقة حق الولاء وسابق الحرمات
وأقام بالمعلى الذي بخديجة الـ ـكبرى بقوم بأطيب النفحات
ومضى إلى مولاه بعد دخوله باب الرضا وإقالة العثرات
أبت المنية أن تطير بروحه قبل الوقوف بها على عرفات
قد فارق الوطن العزيز ليلتقي بعد الفراق بهازم اللذات
نهضت إلى البيت الحرام وجاورت ذاك المقام ومهبط البركات
كتب الإله بأن تتم حياته في موسم الغفران والحسنات
يكفيه برهان السعادة أنه ختم الحياة بأفضل القربات
وإذا السعادة أقبلت نحو امرىء فمصيره أبداً إلى الجنات
لو أصبحت كل المنايا هكذا لنجا الورى من سائر العقبات

لولا الجبلّة لاعترتنا نشوة ومسرة بدلاً من الحسرات
ما زلت تطلب يابن برقة غاية حتى وصلت لمنتهى الغايات
لله كم وشّحت جيد صحيفة أدباً وكم سددت من نظرات
فز بالقبول وبالإجابة كلما وقف الحجيج بصالح الدعوات

أحمد ضياء الدين

توفي 1929

أفلت أفول البدر يا طلعة البدر
وفاجأك المقدور من حيث لا تدري

قضاء ولكن لا قضاء لرده
وصبر.. ولكن لا سبيل إلى الصبر

فراق.. ولكن لا تلاقي بعده
إلى الموعد الأقصى إلى موعد الحشر

وداع وتشييع، وفي القلب حرقة
أشد على الأحشاء من لهب الجمر

نزلت ضياء الدين وحشة مفرد
ولوعة مشتاق وحاجة مضطر

تركت بأنواع المكارم ثلمةً
وأعظم منها ثلمة حاجة القطر

وغادرت من يهوى المكارم والعلا
مدى الدهر مكلوم الفؤاد من الدهر

كُسيت من الرضوان حلة رونق
وفزت بما أوتيت من عمل البر

وحبك آل البيت أصدق آية
تدل على تحسين خاتمة العمر
رغبنا بأن تبقى طويلاً ليحتفي
بذاتك أهل العصر . . يا بهجة العصر
لقد صحّ عندي أن في اليأس راحة
ولكن بيأسي منك لم يسترح فكري
أهدد بالهجران طرسي وأنني
أروع يراعي بالقطيعة والهجر

* * *

يميناً بمن في الخطب أوجب للفتى
من القول ما يرضى الإله بلا نكر
لموت ضياء الدين أوقع حادث
على النفس من وقع المهندة السمر
فتى حَلَب الشطرين من دهره معاً
ودرّت له أخلاقه أيما درّ
ولم نره في جانب السعي طالباً
بلوغ الأماني بالخديعة والمكر
ولكن بنفس لم تخلها منوطة
بشيء سوى الجوزاء والأنجم الزهر
بعيد المدى ما إن يقعقع حوله
بشيء ولا بالبدر كان بمغتر

وألسنة الأقلام تشهد أنه
حريص على جمع المكارم والبر

حريص على جبر القلوب كأنما
خلائقه عدت إلى قسمة الجبر

لديه بأبناء البتول عناية
تمر مع الأنفاس إثراً على إثر

ولم يدخر في القلب إلا مودة
أقيمت على غير الخيانة والغدر

أديب خوى البيت العروضي بعده
وغابت عن الأوزان قافية الشعر

وقد لبست ثوب الحداد لطائف
وأصبحت الآداب خاملة الذكر

شكت وبكت «ذات الرمال»[1] لفقده
كما كانت الخنساء تبكي على صخر

وقد شاركتها في التوجع برقة
مشاركة الأختين في السر والجهر

وقد صبغت تلك الستور بأعين
وما صبغت إلا بأدمعها الحمر

تبلل في تلك الربوع مطارفاً
كما بلّ مطلول الرياض من القَطر

(1) ذات الرمال: مدينة مصراتة.

فمن لوفود الشرق والغرب بعده
يهلل وجهاً بالطلاقة والبشر

ألا فاندبوا واستندبوا حول قبره
فقد يعذر الباكي على صاحب القبر

أقول لنجل قد أضرّ به الأسى
تساهمك الأيام في ألم الضر

فحسبك أن تبقى فتى متذرعاً
بصبر فإن الصبر فاتحة الخير

ويا ابن أبيه المرتضى إن صبركم
وإن جلّ قد أضحى أمرّ من الصبر

تواصوا بحق بعد أحمد واقتدوا
بمن ختمت في حقهم آية العصر

وها هي أبيات الرثاء أزفها
محسنة الهندام طيبة النشر

وليس على قدر الفقيد تحسناً
لكنها في الحسن جاءت على قدر

علينا له حق الوداد محتم
ألا أن حفظ الود من شيم الحر

على قبره سحت شآبيب رحمة
وبوركت يا قبراً لأحمد من قبر

* * *

مـؤلفـات وتـحـقـيـقـات
علي مصطفى المصراتي

1 ـ أعلام من طرابلس ـ مطبعة ماجي ـ طرابلس 1955 إفرنجي.

2 ـ لمحات أدبية عن ليبيا ـ المطبعة الحكومية ـ طرابلس 1956 إفرنجي.

3 ـ إبراهيم الأسطى عمر ـ شاعر من ليبيا ـ دار الكشاف ـ بيروت 1957 إفرنجي.

4 ـ جحا في ليبيا ـ مطبعة ماجي ـ طرابلس 1958 إفرنجي.

5 ـ صحافة ليبيا في نصف قرن ـ دار الكشاف ـ بيروت 1960 إفرنجي.

6 ـ غومة فارس الصحراء ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1960 إفرنجي.

7 ـ أبو قشة وجريدته في طرابلس ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1961 إفرنجي.

8 ـ المجتمع الليبي من خلال أمثاله الشعبية ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1962 إفرنجي.

9 ـ مرسال مجموعة قصص ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 إفرنجي.

10 ـ أَحمد الشّارف ـ ديوان ودراسة ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 إفرنجي.

11 ـ ابن حمديس الصقلي ـ اقرأ ـ دار المعارف ـ القاهرة 1963 إفرنجي.

12 ـ نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان لأَحمد النائب ـ تحقيق ودراسة ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1963 إفرنجي.

13 ـ الشراع الممزّق ـ قصص ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1963 إفرنجي.

14 ـ حفنة من رماد ـ مجموعة قصص ـ مطبعة الغندور ـ بيروت 1964 إفرنجي.

15 ـ أسد بن الفرات ـ فاتح صقلية.

16 ـ سعدون ـ المكتب التجاري ـ بيروت 1964 إفرنجي.

17 ـ رحلة الحشائشي إِلى ليبيا ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1965 إفرنجي.

18 ـ ديوان مصطفى بن زكري ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1966 إفرنجي.

19 ـ مجمع الجهلة ـ بيروت 1972 إفرنجي.

20 ـ فنون الأدب الشعبي في ليبيا ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1966 إفرنجي.
21 ـ ابن غلبون ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1968 إفرنجي.
22 ـ ديوان أحمد البهلول ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1967 إفرنجي.
23 ـ الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1966 إفرنجي.
24 ـ مؤرّخون من ليبيا ـ المطبعة السريعة ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع 1977 إفرنجي.
25 ـ رسائل القليبي بين تونس وطرابلس ـ الدار العربية للكتاب 1976 إفرنجي.
26 ـ جمال الدين الميلادي ـ مطابع الثورة العربية ـ طرابلس.
27 ـ الشمس والغربال ـ مجموعة قصص ـ مطابع الدجوي ـ القاهرة 1977 إفرنجي.
28 ـ نماذج في الظل السِفر الأول ـ مطابع الثورة ـ طرابلس 1978 إفرنجي.
29 ـ التعابير الشعبية الليبية ـ دلالات اجتماعية ونفسية السِفر الأول ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع ـ طرابلس 1982 إفرنجي.
30 ـ خمسون قصة ـ 1983 إفرنجي.
31 ـ الجنرال في محطة فكتوريا ـ الدار العربية ـ 1991 إفرنجي.
32 ـ صائدة الفراشات ـ 1992 إفرنجي.
33 ـ القرد في المطار ـ 1992 إفرنجي.
34 ـ عبد الكريم تحت الجسر ـ 1992 إفرنجي.
35 ـ قطرات من يراع ـ 1992 إفرنجي.
36 ـ التعابير الشعبية ـ السفر الثاني.
37 ـ نماذج في الظل ـ السفر الثاني.
38 ـ وخمسون قصة أخرى.
39 ـ ومضات قصصية ـ الطائر الجريح.
40 ـ رفاق سعدون.

ـ يصدر قريباً:

ـ بشير السعداوي مجاهداً وزعيماً.
ـ رفاق سعدون كوكبة من الشهداء والفرسان.
ـ عاشور في الطابور.
ـ حكايا..

فهرس

أحمد الشارف

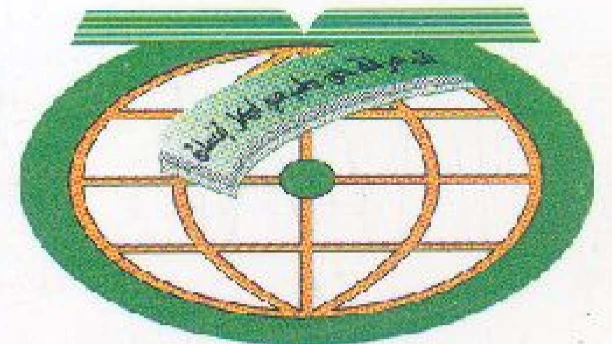
الشاعر أحمد الشارف، من أكبر شعراء ليبيا كان يطلق عليه، شيخ الشعراء. وهو من الذين أسهموا بقسط وافر في الحركة الأدبية في ليبيا.

أسهم الشاعر في ميدان الكلمة الشاعرة، وظل يعطي الكلمة النابضة، ويجول في مختلف ضروب الشعر الأصيل والرصين، ويقدم شحنات النور، وفورات الحماس في عربية صافية وشاعرية أصيلة تمتد جذورها في المنبت الثقافي إلى المتنبي والبحتري ومهيار.

ومن أجل الوفاء للشاعر وتحقيقاً لعهدنا له، وتكريماً لذكراه، نقدم اليوم هذه الدراسة وهذه المجموعة من القصائد مساهمة في إحياء المكتبة الأدبية في ليبيا العربية.

المؤلف

ISBN 9959-0-0016-8

الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
مصراتة: ص.ب.17459 هاتف: 614658-051 بريد مصور: 619410-051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى